المملكة العربية السعودية
جامعة الملك عبد العزيز
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
بمكة المكرمة
قسم الدعوة وأصول الدين

الثقافة الإسلامية

المستوى الثاني (٢٠١)

تأليف
الشيخ عبد الرحمن حبنكة
الشيخ محمد الغزالي
الدكتور مصطفى عبد الواحد

راجعه وأشرف على طبعه
دكتور محمد ابراهيم على
دكتور حسين حامد حسان

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ·
بحمد الله وحسن توفيقه أصبحت مادة الثقافة الاسلامية مادة اجبارية « متطلبات جامعة » على جميع طلاب الجامعة باختلاف مستوياتهم الدراسية·
واهتماما بهذه المادة من كلية الشريعة والدراسات الاسلامية باعتبارها الكلية المشرفة على تدريس هذه المادة فقد طلبت من بعض أساتذة مادة الثقافة الاسلامية بقسم الدعوة وأصول الدين بالكلية وضع منهج لهذه المادة يساعد الطلاب الدارسين على فهمها ويشرح بعض مفرداتها يكون في يد الطالب حسب مستواه · وقد وزع منهج هذه المادة على أربعة مستويات حسب المنهج المعتمد ·

نسأل الله أن ينفع به وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم ،

عميد كلية الشريعة والدراسات الاسلامية

راشد بن راجح الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

منهــــاج الثقــافة الاسلامية

المستوى الثانى (٢٠١)

أولا ــ القرآن الكريم :

(أ) نزوله ــ الغرض من انزاله ــ حكمة نزوله منجما ــ جمعه وتدوينه ــ ثبوت نصه علميا .

(ب) فكرة عامة عن القراءات العشر مع المراد من قول الرسول (أنزل القرآن على سبعة أحرف) .

(جـ) دفع شبهات أعداء الاسلام حول القرآن (كالتشكيك بظاهرة الوحى ، والتشكيك بصحة بعض القراءات الثابتة وغير ذلك) .

(د) مضمونه وما اشتمل عليه من موضوعات .

(هـ) قيمته ومكانته باعتباره المصدر الأول للاسلام .

(و) أسلوبه واعجازه المثبت انه كلام الله حقــا ــ كونه لا يأتيه البــاطل من بين يديه ولا من خلفه وليس فيه ما يخالف الحقائق العلمية بحال من الأحوال ، وما يبــدو فيه من ذلك لبعض الناس فهو من خطأ فى فهم النص القرآنى أو من خطأ فى المعرفة العلمية نسبت الى الحقيقــة العلمية ما ليس منها .

(ز) كيفية البحث عن آية أو موضوع قرآنى .

ثانيا : دراسة متانية عميقة لسورة او أكثر من القرآن :

وذلك بشكل يشــد الطلاب الى كتاب الله ، ويحببهم فيــه ، ويبرز لهم روائعــــه الفكرية والعلميــة ومضامينـــه التوجيهيــة والاصلاحيــة للأفراد والمجتمعات ، وهدايته المثلى الى سعادة الدنيا وسعادة الأخرى مع العنــــاية ببيان الوحدة الموضوعية للسورة . للمدرس أن يختار من سور القرآن احدى السور التالية أو ما يعادلها مما يراه محققا للهدف :

(النور ــ التوبة ــ آل عمران ــ الأنعام ــ الرعد) .

ثالثا : السنة :

(أ) ما تشتمل عليه من اقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأفعاله (سيرته) وتقريراته (حياة الصحابة معه) ـ معانى الحديث والخبر والأثر والحديث القدسى .

(ب) منهج المسلمين الدقيق فى تحقيق الحديث وتحرى صحته ونفى الدخيل عنه . تدوين الحديث مع التركيز على دفع شبهات أعداء الاسلام حول ذلك .

(جـ) مهمة السنة : تفصيل لمجمل القرآن ، وبيان له ، وتطبيق عملى لأحكامه فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .

(د) اهميتها ومكانتها فى رسم الصورة الكاملة للاسلام على أساس القرآن ـ وضرورتها لمعرفة الاسلام وانه لا يمكن معرفة كثير من أحكام الاسلام الا عن طريقها .

(هـ) تعريف عام بأهم كتب الحديث الصحاح وبأصحابها لاسيما صحيح البخارى وصحيح مسلم .

رابعا : الاجماع :

فكرة عامة موجزة عنه ـ كون القرآن والسنة هما الأساس له فى الحقيقة .

خامسا : اجتهاد علماء المسلمين وآراؤهم المستنبطة والمعتمدة على القرآن والسنة والمنبثقة عنهما والخادمة لهما (يدخل فى هذا القياس والاستحسان وغيرها من الأدلة) . (تعطى فكرة موجزة عن ذلك) .

سادسا : دراسة لطائفة من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ينتقيها المدرس من صحاح الأحاديث التى تشتمل على أمهات أصول الاسلام مع تجديد الانتقاء من سنة لأخرى . ويحسن ان يراعى فى انتقائها ان تكون مشتملة على جوانب العقيدة والتربية ونماذج من تشريع الاسلام الاقتصادى والسياسى والاجتماعى والاخلاقى والدعوة الى نشر الاسلام والجهاد فى سبيل الله .

القسم الأول

معلومات عامة حول القرآن الكريم

الفصل الأول ــ التعريف بالقرآن ، نزوله ، قراءاته ــ موضوعاته

كتب هذا الفصل الشيخ عبد الرحمن حبنكه الميداني

القرآن الكريم

القرآن هو كلام الله الذى انزله على نبيــه ورسوله محمد خاتم الأنبيــاء والمرسلين صلى الله عليه وسلم ، مستجمعا للخصائص التالية :

١ – فهو الخاتم للكتب الربانية المنزلة على انبيائه ورسله ، وقد نزل به على محمد صلى الله عليه وسلم أمين الوحى جبريل عليه السلام قال تعالى : ((**نزل به الروح الأمين**)) (١) .

٢ – وهو الجامع لأسس خاتمة رسالات الله للنــاس ، ولأصول الدين الذى ارتضاه سبحانه لهم ، وهو دين الاسلام .

٣ – وهو الكتاب المعجز فى مبناه البيانى ، فقد تحدى الله كل البلغاء أن يأتوا بمثله منفردين ومجتمعين ، والمعجز فى مضمونه ومعـــناه ، اذ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فهو تنزيل من عزيز حكيم ، واعجاز القرآن الدائم هو الدليل المستمر الخالد على أنه كلام الله حقــا ومنزل من لدنه .

٤ – وهو الكتاب المحفــوظ المصـــون من التحريف والتبـــديل والزيادة والنقصان ، بمقتضى الكفالة الربانية المعلنــة بقول الله تعالى : ((**انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون**)) (٢) وقد تهيأ له من وسائل الحفظ ما لم يتهيأ لأى كتاب آخر فى تاريخ الناس . وبحفظه ونشره فى أقطار الأرض تقوم حجة الله البالغة على عباده ، وتنقطع اعذارهم ، اذ هو يشتمل على تبليغ مستمر للرسالة التى حملها رسول الله لهم ، وهو بمثابة استمرار الرسول المبلغ بين الناس فهذا بلاغه معلن محفوظ .

٥ – وهو المصدر الأول للمفاهيم الاسلامية كلها ، وللتشريع الاسلامى الذى يشمل كل أنواع السلوك الانسانى .

كيف تم انزال القرآن :

لقد انزل الله القرآن على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وفق الأسلوب التربوى المتدرج ، خلال فترة رسالته التى بدأت بعد ما بلغ الرسول الأربعين من عمره وبعد أن نزل عليه أمين الوحى جبريل أول ما نزل فى غار حراء ، وانتهت بوفاته صلوات الله عليــه ، وكان قد بلغ من العمــر قرابة ثلاثة وســتين عاما قمريا ، أى : كان نزول القرآن مفرقا خلال ثلاثة وعشرين عاما .

(١) الشعراء الآية ١٩٣

(٢) الحجر الآية ٩

وكان أول ما نزل من القرآن الآيات الأولى من سورة (العلق) :

((اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم)) (١) .

وكان آخر ما نزل من القرآن قول الله تعالى عقب الآيات التى أعلنت التحريم القطعى للربا :

((واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون)) (٢) .

وكانت وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية بتسع ليال هذا هو القول الأصح فى بيان آخر ما نزل من القرآن .

وهذا التنزيل المفرق هو ما يطلق عليه (التنزيل المنجم) أى : أنزل نجما بعد نجم (قسما بعد قسم) ولم ينزل دفعة واحدة .

ولهذا التنجيم فى التنزيل حكم تربوية عظيمة ، منها الحكم التالية :

١ ـ معالجة بناء الأمة الاسلامية الأولى وفق البناء التدرجى الذى تخضع له سنة الحياة بوجه عام ، فيكون الاهتمام الأول بتأسيس العقائد بدءا من جذرها الرئيسى ، الذى يتمثل بالايمان بالله الخالق ، ثم بتوحيده فى ربوبيته ، ثم بتوحيده فى الوهيته ، ثم بما يلزم عن ذلك من فروع اعتقادية وعملية ، مع مراعاة الاهتمام بما هو أولى فى الخطة التربوية .

٢ ـ منح المسلمين فرصة تلقى القرآن فترة بعد فترة ، حتى يحفظوه ويتدبروه أولا بأول .

٣ ـ تثبيت فؤاد الرسول به ، بما يتضمن من توجيهات تربوية له ، تجاه الأحداث الثقال التى يواجهها فى دعوته .

٤ ـ مراعاة مناسبات الأحداث ، والأسئلة ، والاستفتاءات ، وما يجرى فى السر أو فى العلن من أمور ، وما تتحدث به نفوس المؤمنين أو المنافقين أو غيرهم ، لانزال الآيات المتضمنة للبيانات والمكاشفات والحلول والتوجيهات الاسلامية والأحكام الشرعية الملائمة .

ولا يخفى ما فى هذا من تأثير عميق فى تمكين الايمان ، والاقناع بالاسلام

---

(١) سورة العلق من ١ الى ٥

(٢) سورة البقرة ٢٨١ .

وتثبيت الأحكام الدينية ، والحلول والتوجيهات الاسلامية ، والاقناع بأفضليتها وملاءمتها للمصلحة الفردية والاجتماعية العاجلة أو الآجلة .

وللتنجيم فى التنزيل أثر عظيم أيضا فى التنبيه على أنه من عند الله ، وفى اضافة عنصر مهم من عناصر اعجاز القرآن .

فآيات عتاب الرسول صلى الله عليه وسلم لابد أن تأتى وفق مناسباتها ، وعتاب الرسول فى آيات تتلى دليل على أن القرآن من عند الله لا من عند الرسول صلوات الله عليه .

ونزول القرآن مفرقا ، ثم وضع كل نجم ينزل منه فى مكانه الملائم من سورة من سور القرآن ، دون أن يظهر فى النتيجة خلل فى الترابط الفكرى ، القائم على الوحدة الموضوعية لكل سورة ، عنصر من عناصر اعجاز القرآن ، وأنه كلام منزل من عند الله .

وقد أشار القرآن الى الحكم المقصودة من التنجيم بقول الله تعالى :

« وقرآنا فرقناه لتقراه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » (١) .

ولما اعترض الذين كفروا على تنزيله منجما أنزل الله على رسوله قوله :

« وقال الذين كفروا : لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا » (٢) .

أى : كذلك نزلناه مفرقا منجما لنثبت به فؤادك يا محمد .

وهناك آيات يدل ظاهرها على أن القرآن نزل فى ليلة واحدة .

مثل قول الله تعالى عن القرآن : **« انا أنزلناه فى ليلة القدر » (٣) .**

وقوله تعالى :

« حم . والكتاب المبين . انا انزلناه فى ليلة مباركة انا كنا منذرين » (٤) .

وقوله تعالى :

« شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » (٥) .

---

(١) الاسراء ١٠٦ .
(٢) الفرقان ٣٢ .
(٣) سورة القدر ١
(٤) الدخان ١ — ٣
(٥) البقرة ١٨٥

فهذه النصوص تشعر بأن القرآن قد انزل كله فى ليلة القـــدر من شهر رمضان ، مع أننا علمنـــا من الواقع ومن النصوص الأخرى انه نزل مفرقا منجما . فكيف نجمع بين هذا وهذا ؟

لقد أجاب ابن عباس عن هذا الاشكال بأن القرآن قد أنزل فى ليلة القــدر فى شهر رمضان الى السماء الدنيـــا جملة واحدة ، ثم انزل نجوما على قلب النبى صلى الله عليه وسلم فى الشهور والأيام .

واجاب الشعبى بأن بدء نزول القرآن قد كان فى ليلة القــدر ، وأن هذه النصوص قد دلت على ذلك .

ترتيب القرآن :

كلما نزل من القرآن شىء آية فأكثر او اقل كان الرســول صلى الله عليه وسلم يبين لأصحابه موقعه من القــرآن ، فيبين لهم السورة ، ومكان ما نزل من السورة ، فترتيب القرآن قد تم بالتلقى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذا ما يطلق عليه عبارة : ترتيب القرآن توقيفى ، أى : متوقف على التلقى من الرسول ، وليس للصحابة منه شىء الا النقل .

وكذلك الترتيب بين سور القرآن مأخوذ بالتلقى عن النبى صلى الله عليه وسلم قطعـــا فى أكثره ، وعلى الأرجح فى أقله ، وهذا الترتيب الموجـــود فى المصحف أمر مجمع عليه بين المسلمين منذ عهد أبى بكر رضى الله عنه .

الرسول يتدارس القرآن مع جبريل فى رمضان :

كان جبريل يتعاهد الرسول صلى الله عليه وسلم لتحفيظـــه القرآن ، وتمكينه فى فؤاده ، فكان ينزل عليه فى رمضان فيدارسه القرآن ، وطريقة هذه المدارسة ان يقرأ الرسول وجبريل يستمع ، ويقرأ جبريل والرسول يستمع ، وهكذا حتى يستكملا قراءته ، وفى رمضان من السنة التى توفى فيها الرسول نزل جبريل عليه مرتين ، ودارسه القرآن مرتين ، وكان ذلك عرضـــة أخيرة للقرآن ، قبيل وفاة الرسول ، روت السيدة عائشة أم المؤمنين ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، قال لها : **« ان جبريل كان ينزل على فيدارسنى القرآن مرة واحدة فى رمضان ، وقد نزل على هذا العـام مرتين ، وما اراني الا قد اقترب اجلى » .**

وفعلا فقد توفى الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذلك العام .

القراءات العشر :

وهناك امران لابد من ملاحظتهما :

الأول : نحن نعلم أن العرب كانت لهم لهجات ينطقون بها عربيتهم . فمنهم مثلا من يميل الألف المقصورة فى أواخر بعض الكلمات ، ومنهم من لا يميلها ، مثل : الضحى . أتى موسى . بلى .

ومنهم من يرقق بعض الحروف ومنهم من يفخمها ، مثل : الراء فى نحو (خبيرا ــ بصيرا) ، واللام فى نحو (الصلاة ــ الطلاق) .

ومنهم من يسهل الهمز فى بعض الحالات ، ومنهم من يحققها ولا يسهلها ، مثل الهمزة الثانية من (أأنذرتهم) والهمزة من (قد أفلح) .

ومنهم من يكسر حرف المضارعة فى أول الفعل المضارع ، والأكثر لا يفعل ذلك .

ومنهم من ينطق الصاد فى بعض الكلمات سينا ، والحاء فى بعض الكلمات عينا ، مثل : (الصراط ــ السراط) ومثل : (حتى حين ــ عتى عين) والثانية لهجة هزيل .

ونحو ذلك .

ومن أجل التخفيف على القبائل العربية ، ومن أجل جمعهم على تلاوة القرآن بما تطاوعه ألسنتهم من لهجاتهم أنزل الله القرآن على وجوه من الأداء ، تسهل على القبائل العربية المختلفة أداءه وتلاوته ، مع أن اللهجة الأساسية التى أنزل بها انما هى لهجة قريش .

الثانى : قد تكون الجملة صالحة لأداء المعنى المقصود ، بوجهين من من الاعراب أو أكثر ، أو بالافراد والتثنية والجمع ، أو بابدال كلمة بكلمة مرادفة لها ، أو بالتقديم والتأخير بين كلمتين ، أو بزيادة حرف مثلا كحرف من حروف الجر .

وقد تكون الجملة صالحة لأداء أكثر من معنى ، بوجهين من الاعراب أو أكثر ، أو بالافراد والتثنية والجمع ، أو بابدال كلمة بأخرى ، أو بالتقديم والتأخير ، أو بزيادة حرف مثلا ، كحرف من حروف الجر ، ويكون المعنيان أو ما زاد عليهما معانى مقصودة فيما يراد تنزيله .

وبغية التفنن فى التعبير ، وبغية الدلالة على المعانى المتعددة من الجملة الواحدة فى مكانها من القرآن ، مع الايجاز والاعجاز نزل القرآن بوجوه من الأداء متعددة .

وقد ثبت فى الصحيح الذى قارب أن يكون متواترا ان القرآن قد أنزل على سبعة أحرف ، أى : على سبعة وجوه .

فمن الروايات الثابتة فى ذلك ، ما رواه البخـــارى ومســـلم ، واللفظ للبخارى ، أن عمر بن الخطـاب رضى الله عنـــه قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان فى حيـــاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستمعت لقراءته فاذا هو يقرؤها على حروف كثيرة ، لم يقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكدت أساوره فى الصلاة ، فانتظرته حتى سلم ، ثم لببته بردائه فقلت : من أقرأك هذه السورة ؟ قال : اقرانيهـــا رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلت له: كذبت ، فوالله ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأنى هذه السورة التى سمعتك تقرؤها ، فانطلقت أقوده الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ، انى سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، وانت اقرأتنى سورة الفـرقان ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ارسله يا عمر ، اقرأ يا هشام » فقرأ هذه القراءة التى ســـمعته يقرؤها . قال رسول الله صلى الله عليـــه وســـلم : « هكذا أنزلت » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان هذا القرآن أنزل على ســبعة أحرف ، فاقرؤوا ما تيسر منه » .

وفى مسند الحافظ ابى يعلى : أن عثمان رضى الله عنه قال يوما وهو على المنبر : أذكر الله رجـــلا سمع النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ان القرآن أنزل على سبعة أحرف كلهــا شـاف كاف » لما قام ، فقاموا ، حتى لم يحصوا فشهدوا بذلك ، فقال عثمان رضى الله عنه : وانا أشهد معهم .

فالأحرف السبعة التى نزل عليهــا القرآن تشمل وجوه اللهجات العربية التى نزل بها القرآن ، وتشمل وجوه الأداء التى تستند الى اختلاف وجـوه الاعراب ، والافراد والتثنية والجمع ، والخطاب والغيبة والتكلم ، وتبـديل كلمة بكلمة ، والتقديم والتأخير فى بعض الكلمات ، وزيادة حرف ونقصـانه ، ونحو ذلك . وقد تشمل أيضا وجوها من المعانى يمكن أن تستنبط من القرآن وفق أصول الاستنباط ، ووجوها من أصول الحقائق التى نزل القرآن لبيانها وتوجيه الناس اليها ، والله أعلم بمراد الرسول الكامل من ذلك . ويكفينا أن نعلم أن القرآن قد أنزل على وجوه سبعة .

ثم ان المسلمين قد رووا ما أخذه أصحاب الرسول عنه من القرآن ، ونبغ بعد ذلك من الرواة القـــراء المتقنين نابغون ، تلقى عنهم تلاميـــذ كثيرون ، وانقسمت رواياتهم الصحيحة الثابتة المتواترة المشتملة على وجوه من القراءة الى عشر روايات ، سميت بالقراءات العشر المتواترة .

فنحن نثبت أن ما يسمى بالقراءات العشر ، انما هى روايات صحيحـــة ثابتة متواترة ، مروية عن الرسول صلى الله عليه وسلم بالنقل المتواتر ، تلقاها

أصحاب رسول الله عنه ، وتلقاها رسول الله عن جبريل عليه السلام ؛ فكل ما جاء فيها فهو من القرآن قطعا .

ولا بد أن نعلم أنه ليست كل قراءة من القراءات العشر ، أو الروايات العشر ، تعنى رواية حرف واحد من الأحرف السبعة التى أنزل عليها القرآن ، اذ قد تشتمل الرواية الواحدة منها على عدة احرف من الأحرف السبعة فى بعض جوانبها .

مضمون القرآن وما اشتمل عليه من موضوعات :

القرآن كتاب الحق لهداية الانسان ، الى سبيل سعادته العاجلة والآجلة .

فلا بد اذن أن يكون مشتملا على كل أسس عناصر هداية الانسان لما يحقق له هذه السعادة العاجلة والآجلة ، ويحقق له خيرى الدنيا والآخرة ، فردا كان أو مجتمعا ، حاكما أو محكوما .

فليس من غرض القرآن أن يكون كتابا للعلوم الرياضية والطبيعية والفلكية والجغرافية والتاريخية ، ونحو ذلك من علوم باستطاعة الانسان أن يتوصل اليها بالبحث والدراسة والتتبع والاختبار والتجربة ، ولا يتوقف عليها اصلاحه فيما خلق من أجله وهو الابتلاء فى ظروف هذه الحياة الدنيا ، وانما يتوقف عليها تحقيق وسائل رفاهيته ونماء القوى التى يملكها مما أودعه الله من طاقات فى هذا الكون .

على أن القرآن قد دفع الانسان المسلم الى البحث والتأمل والدراسة والاستنباط ، حتى يصل الى غايته من كل هذه العلوم التى تفيده وتنفعه فى دنياه .

وحينما يتحدث القرآن عن بعض حقائق هذه العلوم ، فانما يتحدث عن أمور كبرى ، لا يصل اليها الانسان الا بعد دراسات طويلة واكتشافات متتابعة يعتمد بعضها على بعض ، فاذا وصل الى مرحلة اليقين العلمى فى بعضها مما تحدث عنه القرآن ، وجد ما وصل اليه مطابقا للحقيقة القرآنية الكبرى التى تحدث عنها ، ولفت نظر الانسان الى دراسة الكون حتى يصل اليها ، فيعرف اعجاز الله فى كونه ويستدل عليه من آياته ، واعجازه فى كتابه ويستدل عليه من قرآنه ، ويزيد يقينه بأن هذا القرآن منزل من الحق تبارك وتعالى ، الذى أبدع بقدرته وعلمه حقائق هذا الكون ، فهو المهيمن عليها ، ولا يمكن أن يصدر عنه فى شأنها الا ماهو مطابق تماما للحقيقة التى وضعها بيديه ، وهيمن عليها بعلمه وقدرته وتدبيره .

ونقتبس من الدكتور محمد الصادق عرجون فى كتابه : (القرآن العظيم — هدايته واعجازه فى أقوال المفسرين) عرض أصول الهـــداية فى القرآن ، اذ ارجعها الى عشرة أصول :

الأصل الأول : العقيدة .

الأصل الثانى : التشريعات التعبدية .

الأصل الثالث : سياسة الخلق .

الأصل الرابع : الوشـــائج الاجتماعية بين الأفراد والجماعات .

الأصل الخامس : ايقاظ العقل الانسانى وتحريره .

الأصل السادس : عوامل الدفع القيادية فى المجتمع الاسلامى .

الأصل السابع : مكانة العلم فى الحياة .

الأصل الثامن : التربيـــة السلوكية (أى الشـــاملة للأخـلاق والآداب والحقوق وغير ذلك) .

الأصل التاسع : المجتمع البشرى بين عناصر التماسك وعوامل الانحلال .

الأصل العاشر : اعجاز القرآن بين الهداية وروعة البيان .

ظاهرة الوحى :

لقد تلقى الرسول القرآن عن الوحى ، والوحى هو الطريقة التى اختارها الله لتبليغ أنبيائه ورسله عليهم الصـــلاة والســلام ، ما أراد اعلامهم به من شرائع واخبار ووصايا وأحكام وغير ذلك .

ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم فى تلقيه عن الوحى بدعا من الرسل ، فظاهرة الوحى أمر معروف وسنة متبعـــة لا ينكرها أحد من الذين يؤمنون بالأنبياء والرسل السابقين . ويتحقق تلقى الرسول اليقينى عن الوحى بكون القرآن الذى تلقاه معجزا بحـــد ذاته ، لا يمكن ان تأتى به الطاقات البشرية منفردة ولا مجتمعة ، وما كان لمحمد وهو بشر أن ينفرد من دون الناس بطاقة اعجاز بلاغى وعلمى وتشريعى واخبـــارى ، حتى يصح فى العقل امكان نسبة القرآن الى أنه من كلامه ، وليس وحيا أوحى الله به اليـــه .

ويأتى أعداء الاســلام من المستشرقين والمبشرين ، فيشككون عن تضليل مقصـــود بظاهرة الوحى التى تلقى بها الرسول محمد صلى الله عليـــه وسلم رسالته من ربه ، مع انهم يعتقدون بالوحى الذى أنزل على موسى وعيسى من قبل ، ويقبلون ما هو دون الوحى من الهامات يزعمون انها حصلت لقديسيهم وفيها من الأقوال والأخبـــار ما لا تقبـــله العقول من آحاد الناس ، بل من عصاتهم وفساقهم ، فضلا عن قديسين ملهمين .

وفى هذا التشكيك المضلل يطرحون عدة أفكار .

١ ـ يقولون : لعل الحالة التى كانت تعترى محمدا ـ حين يقول : ان الوحى قد نزل عليه وأبلغه ـ حالة اضطراب فى أعصاب البصر ، يخيل له معها أنه يرى شيئا ، وهو لم ير فى الحقيقة شيئا .

وقد أجاب القرآن عن هذا قبل ايراده ، بقول الله تعالى :

« ما زاغ البصر وما طغى » (١) .

وأجاب الواقع بأن ما يأتى به بعد هذه الحالة علم لا يمكن أن يأتى به من تزيغ أبصارهم .

٢ ـ ويقولون : لعل الحالة التى كانت تعتريه حالة اضطراب فى قوى الفكر ، كانت تمثل له المعانى والأفكار على صورة أشباح أجسام ، وتمثل له الأحلام والتخيلات أجساما ترى .

وقد أجاب القرآن عن هذا قبل ايراده بقول الله تعالى :

« ما كذب الفؤاد ما رأى » (٢) .

وأجاب الواقع بأن ما يأتى به بعد هذه الحالة علم حق لا يمكن أن يكون الا منزلا من لدن عزيز حكيم .

٣ ـ ويقولون : لعل الحالة التى كانت تعتريه حالة آتية من قبل الجن أو الشياطين .

وقد أجاب القرآن عن هذا بقول الله تعالى :

« وما تنزلت به الشياطين ، وما ينبغى لهم وما يستطيعون ، انهم عن السمع لمعزولون » (٣) .

وأجاب عنه القرآن أيضا بأن الجن لا يعلمون الغيب وان كانوا صالحين ، فمن أين لهم أن يأتوا بعلوم الغيب التى جاء بها القرآن ، قال الله تعالى فى معرض الحديث عن سليمان :

« فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين » (٤) .

---

(١) سورة النجم ـ الآية ١٧
(٢) سورة النجم ـ الآية ١١
(٣) سورة الشعراء ـ الآيات ٢١٠ ـ ٢١٢
(٤) سورة سبأ ـ الآية ١٤

وأجاب الواقع بأن ما أتى به بعـد حالات الوحى علم عظيم وقرآن معجز لا يستطيع الجن ولا الانس ان يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، وهو معصوم من الخطأ فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفـه ، أما ما تأتى به الجن والشياطين لاخوانهم من البشر فتلفيقات ان صدق بعضها كذب اكثرها ، وليس شيء منها يصدق كله .

فهذا القرآن وحى من عند الله ، فما كان يعرض للرسول محمد صلى الله عليه وسلم هو قطعا من قبيل الوحى الصادق .

والظاهرة الوحى خصـائص تميزها عن الأعراض الأخرى التى قد تعرض للنـاس .

١ ــ فهى ظاهرة تأتى الرسـول من دون تكلف ولا تصنع ولا تحضير ، انهـا امر يأتى الرسول من غير اختيـار منه ، وقد يطلب الرسول الوحى فلا يأتيه ، وكثيرا ما كان يأتيه مفاجئا دون سابق تطلع نفسى له .

٢ ــ وهى ظاهرة مصحوبة بحالة وعى كامل من الرسول ، فهى لا تشـبه حالات الاغماء ، أو النوم ، أو الغيبوبة المرضية ، بوجـه من الوجوه ، وقد اثبت ذلك أصحابه حينما كان يأتيه الوحى وهم معه .

٣ ــ وهى ظاهرة تصاحبها حالة صحـة تامة وقوة كاملة فى ذاتيـة الرسول وجسده ، فهى تخالف تماما حالات الأعراض المرضية التى يضطرب بها الجسم ، ويصفر منها الوجه ، وتبرد معها الأطراف وترجف ، وتصطك الأسنان ، وتنكشف العورات ، ويحتجب نور العقل .

بل يكون معها نمو فى قوة البدن ، واشراق فى اللون ، وارتفاع فى درجـة الحرارة ، ويقظة كاملة .

وكان أمر هذه الظاهرة لا يخفى على أحد ممن ينظرون الى الرسول حين كان ينزل عليه القرآن ، اذ كانوا يرونه قد أحمر وجهه فجأة ، وارتفعت حرارة جسمه حتى يتفصد جبينه عرقا ، وثقل جسمه حتى يكاد فخذه يرض فخذ الجالس الى جانبه ، واذا كان على راحلته بركت من ثقل الوحى ، وكانوا مع ذلك يسمعون عند وجهه أصواتا مختلفة تشبه دوى النحل ، كل هذه الأمور ثابتة فى الصحيح .

روى البخارى عن عائشة انها قالت : ((**ولقد رايته ينزل عليـه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا**)) .

وثبت أنه جاءه الوحى مرة وفخذه على فخذ زيد بن ثابت ، فثقلت عليه حتى كادت ترضها .

الى غير ذلك من نصوص .

فمزاعم أعداء الاسلام حول التشكيك بظاهرة الوحى للرسول محمد صلى الله عليه وسلم تضليلات تنفثها أحقادهم الدفينة ، وعداواتهم المتوارثة ، وعدم رغبتهم باتباع الحق الذى اتاهم به من عند ربهم .

كيف تبحث عن آية أو موضوع قرآنى :

١ ـ اذا كان فى ذاكرتك قسم من آية قرآنية ولو كلمة واحدة ، فاستطاعتك أن تستخرج هذه الآية بالرجوع أولا الى كتاب (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) وضع محمد فؤاد عبد الباقى ، أو الى كتاب (المرشد لألفاظ القرآن الكريم) والأول منهما اكثر اتقانا ، لتأخره واستفادته ممن سبقه .

فقد رتب هذا المعجم على طريقة ترتيب المعاجم بالاعتماد على أوائل أصول الكلمات فثوانيها فأواخرها ، اذ تأتى فيه أصول الكلمات المبدوءة بالألف بعدها الألف ، ثم الألف بعدها الباء ، ثم الالف بعدها التاء ، ثم الالف الباء بعدها الثاء ، وهكذا الى آخر حروف الهجاء .

فاذا انتهت الكلمات التى تبدأ أصولها بالألف ، جاءت الكلمات التى تبدأ أصولها بالباء بعدها الألف ، ثم الباء بعدها الباء ، ثم الباء بعدها التاء ثم الباء بعدها الثاء ، وهكذا الى آخر حروف الهجاء .

فاذا انتهت الكلمات التى تبدأ أصولها بالباء ، جاءت الكلمات التى تبدأ أصولها بالتاء ، وفق الطريقة السابقة ، حتى آخر حروف الهجاء .

ويراعى فى الجميع الحرف الثالث من الكلمة تدرجا من الألف الى الياء ، كمراعاة الأمر فى الحرف الثانى :

مثل	ومثل	ومثل
ابت	بأت	تبر
أبث	بأث	تثر
أبج	بأج	تجر
أبح	بأح	تحر
أبخ	بأخ	تخر
أبد	بأد	

فاذا ظفرت بالكلمة التى تبحث عنهـا فستجدها فى آية أو أكثر اذا كانت من الكلمات القرآنية فعلا .

عندئذ تتبع المقاطع من الآيات التى وجدت فيها هذه الكلمة ، فاذا ظهرت لك الآية التى تبحث عنها وجدت الى جانبها كما يلى :

رقم الآية فاسم السورة فرقم السورة من القرآن

مثل كلمت : (السحت) تجدها فى (سحت) كما يلى :

السحت : سماعون للكذب أكالون للسحت رقمها ٤٢ سورة م المائدة رقم ٥ وقد رمز واضع المعجم بـ (م) الى أن السورة مدنية ، وبـ (ك) الى أن السورة مكية .

عندئذ ترجع الى المصحف وتستخرج الآية المطلوبة كاملة من السورة التى ذكرها المعجم ، ووفق رقم الآية الذى ذكره .

٢ ـ واذا كنت تبحث عن موضوع وتريد أن تستخرج آياته ، فعليك أن تجمع ذهنك ، وتستحضر الكلمات التى يمكن أن يكون لهـا علاقة بالموضوع ، وتبحث فى المعجم المذكور عن كل كلمة منها ، فانك ستظفر بجملة من الآيات فيها بعض الكلمات التى استحضرتها ، وهذه الآيات ستنبهك على نظائرها ، أو على كلمات يمكن أن تنفعك فى استخراج آيات تناسب الموضوع الذى تبحث عنه فى القرآن .

أو ترجع الى كتاب (تفصيل آيات القرآن الحكيم) الذى وضعه (جول لابوم) ونقله الى العربية (محمد فؤاد عبد البـاقى) فقد وضعه جامعه على الموضوعات . وجعل له فهرسا ، فباستطاعتك أن ترجع اليـه ، وتستخرج الموضوع الذى تريد أن تبحث عنه ، اذا كان من الموضوعات التى تعرض لهـا القرآن بصراحة .

الفصل الثانى

ثبوت القرآن ـ جمعه ـ اعجازه

كتب هذا الفصل الاستاذ الشيخ محمد الغزالى

ثبوت القرآن ... !

من قرون سحيقة ، والشمس — فى مرآى العين — هى الشمس — لم تتغير على تعاقب الأجيال ، ولم تزد ولم تنقص على اختلاف الليل والنهار ! .

ومن قرون سحيقة ، والقمر — فى مرآى العين — هو القمر لا يزال بين الخلف والسلف مستدير القرص — هادىء النور ، لم يطرأ عليه مع أطراد الزمان تبديل ، ولا نالت منه (عوامل التعرية) التى يقول العلماء : انهـا تنقص الجبال الرواسى وتبريها ، طولا وعرضا .. !!

ونحن المسلمين نرى القرآن الكريم حقيقة علمية ثابتة كهذه الحقـائق الكونية الدائمة : فهو هو منذ بدأ لم يزد حرفا ، ولم ينقص .. !!

نقله جبريل عن الله بأمانة ، ونقله كذلك محمـد عن جبريل ، ونقـله الصحابة عن محمد ، ثم تتابعت الجماهير الغفيرة ، تنقله عبر القرون ، حتى بلغت به الينا مثلما نزل قبل أربعة عشر قرنا ، وسنورثه نحن غيرنا بهـذه الهيئة المكتملة المصونة ، وسيظل الحفظة يروونه للأعصـار المقبلة الى أن ينفض سرادق الحياة والأحياء وينقلب الناس جميعا الى الله ..

لا بل سيظل القرآن فى العالم الآخر باقيا يتلوه أهله على النحـو الذى نزل به امين الوحى لأول مرة ، وفى الحديث : ((**يقال لقـارىء القرآن : اقرأ وارق ، ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا فان منزلك عند آخر آية تقرؤها**)).

ان هذا القرآن قد اختصه الله بالحفظ والخلود : فهو حقيقة محصنة من التحريف ، وهـو حقيقـة تغالب الفناء وتغلبه .. لا بالظن والحدس واستنطاق الآثار ، بل بالحس القائم على الرؤية والسماع ..

ان الأدلة التاريخية المختلفة قـد ترشـح ببعض الحق ، أما الحـالة بالنسبة للقرآن فان الشواهد على صدقه تجىء سيلا غدقا ، ينفى بطبيعته الشبه ، ويؤسس اليقين تأسيسا .. !! والطريق الاول فى أخذ القرآن عن صاحب الوحى ، ثم فى انتشاره بعد بين الناس . هو التلقى بالمشافهة على سبيل التواتر والاستفاضة ، فالنبى صلى الله عليه وسلم يقرأ ما يجيئه من عنـد الله والصحابة يسـمعون منه بآذانهم . فيعـرفون منه حقيقة النظم القرآنى ، وأسلوب أدائه معا . كأنواع المـدود ومخارج الحروف وما الى ذلـك .

وهذا الضرب من التلقى لم ينتقل به القرآن الكريم من الرسـول الى أصحابه مرة واحدة ، أعقبها صمت طويل كلا : فان تكرار القراءة جعـل تداول الوحى الأعلى أمرا مفروضا فالرسول يحفظه ، وأصحابه الآخذون

عنه يحفظون . ثم يعود هـذا المحفوظ الى الظهـور فى الصـلوات الموقوتة : فالرسول يقرأ والصحابة يستمعون .

واذا أراد أى مسلم أن يتعبد ، قرأ فى جوف الليل أو فى وضح النهار ، واذا أراد أن يتغنى بالقرآن فعل واذا أراد أن يخطب به فعل ، واذا أراد أن يدرسه فعل ، وهكذا . ما ان ينزل شيء من القرآن حتى تستوعيه الصدور ، ثم تردده فى كل افق لا فى يوم أو عام بل فى قرابة ربع قرن ، ولا مع رجـل واحد ، أو قبيلة واحدة بل بين الألوف المؤلفة من الناس ..

ان هذه الأشرطة الحية لم تكن فقط مستودعا يحفظ القـرآن لتتيسر عند اللزوم اذاعته . بل كانت تهدر بآيات الله اناء الليل ، وأطراف النهار ، فى حلق الذكر ومجالس العلم ، ومحاريب الصلاة ، وخطب الجمع والمجـامع العامة .. !! وبهذا التواتر الرائع ثبت القرآن ثبوتا لا مجال فيه لظنـون أو أوهام .. !! وعلماء المسلمين يعتمدون على طريق التلقى هذه ، ويرجعون اليها وحدها فى علوم التجويد والآداء . قال السيـوطى : والأمة كمـا هى متعبدة بفهم معانى القرآن واحكامه ، متعبـدة بتصحيح الفاظه ، واقامة حروفه على الصفة المتلقاه من الأئمة القراء ، وهى الصفة المتصلة بالحضرة النبوية ، اى انه لا يكفى الأخذ من المصاحف بدون تلق عن أفواه المشـايخ المتقنين للتلاوة . ! يدل على ذلك ما رواه الطبرانى وغيره عن مسعود بن زيد الكندى ، قال : كان عبد الله بن مسعود يقرىء رجـلا ، فقرأ الرجل الآية ((**انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها ..**)) (١) قراءة مرسـلة خطف فيهـا المدود فلم يشبعها كما ينبغى ، فقال عبـد الله بن مسـعود : ما هكذا أقرانيها ثم تلاها مرة أخرى (**انما الصـدقات للفقراء**) .. ومـد الفقراء المد اللازم المعروف .

والواقع أن الحديث الحسن النازل من عند الله أخـذ يطرد سـائر الأحاديث الأخرى من شعر ونثر : فاذا العرب المؤمنون يدعون حفظ المنظوم والمنثور ويتوجهون الى حفظ الآيات البينات . !

ان معجزة الاسلام واءمت طباعهم كما يتواءم الحق وغطاؤه ، ومن ثم رأينا جيوشا بأسرها تتألف من أولئك الحفاظ الواعين .

ثم ان الله عز وجل أراد أن يقى الاسلام ما اصاب الديانات الأولى من زيغ وتحريف : فان بعض هذه الديانات تلاشت حقائقها جملة . وتوارت فى طوفان من الغفلة والضياع ، والبعض الآخر تطرق اليه التحريف والتبـديل

(١) التوبة الآية ٦٠

على نحو استخفت به الحقيقة وعز ادراكها . ومن ثم اقتضت العناية العليا أن تصاغ الرسالة الجديدة فى اطار من الجمال الأدبى تتعلق القلوب بصيانته وتتلاقى على قداسته . بل ان الشكل اعتبر جزءا من الموضوع فان الفاظ القرآن الكريم اعتبرت جزءا لا ينفصل عنه وأصبحت قراءتها عبادة ، وأصبح مجرد ترديدها قربى الى الله ... والتعلق بألفاظ القرآن نفسها على هذه الصورة انما قصد به تقوية السياج الذى يصون أحكام الوحى ، وتوجيهات السماء ، فلا تتعرض رسالة الاسلام للفوضى التى سقط فيها اتباع الديانات السابقة ، بعد ما تزحزحت عن أصولها . وتاهت عن منابعها الأولى :

وذلك يفسر لنا سر الترغيب الشديد فى حفظ القرآن ، وادمان تلاوته ، وترديد آياته بين الحين والحين . وهناك بعض وصايا النبى صلى الله عليه وسلم التى تحث الأمة على تعهد كتابها واحياء دراسته .

قال : ((**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**)) ..

وقال : ((**من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها . لا أقول ألم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف**)) !

وقال : ((**ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم . الا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده**)) ..

وقال : ((**ان هذا القرآن مأدبة الله ، فاقبلوا مأدبته ما استطعتم ، ان هذا القرآن حبل الله ، والنور المبين والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه ، لا يزيغ فيستعتب ، ولا يعوج فيقوم ، ولا تنقضى عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد ، اتلوه فان الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات ، أما انى لا أقول لكم الم حرف . ولكن الف ، ولام ، وميم**)) ..

وهذه التوجيهات غيض من فيض ، فان عشرات ومئات الأحاديث ترادفت على هذا السياق الواضح ، وتضافرت على ابقاء القرآن الكريم رطبا على الألسنة مكنونا فى الصدور يتلى فى البيوت والأسواق ، والمساجد والمحافل ، لا يزاد عليه ولا ينقص منه حرف واحد .. !! انه هو هو كما قراه صاحب الرسالة من اربعة عشر قرنا ، يرويه عن جبريل عن الله جل شأنه ..

وثبوت القرآن الكريم عن طريق التلقى والتواتر والاستفاضة هو احد طريقين يظاهر أحدهما الآخر ويقربه وان كان الطريق الأول اشهر .. اما

الطريق الثانى فهو الكتابة ، ذلك أن الكلام الالهى كما استوعبته صـــدور الحفاظ استوعبته سطور الصحف ..

كانت الآيات تنزل فيبادر الكتبة الى تسجيلها ، ويخطون فى صحائفهم معالمها ، وان كان هذا التسجيل يجىء كتوثيقات العقود فى عصرنا ، أى بعد تمامها علميا أو عمليا ..

والعرب امة امية بيد أن شيوع الأمية فيهم حتى لو وصلت نسبتها الى ٦٥٪ لا يبخس القلة الكاتبة حقها ولا ينقص خطرها ، فليس من الضرورى لثبوت الكتابة أن تطبع الوف النسخ من كتاب واحد ، بل يكفى أن توجـد جملة من النسخ المطابقة المتوافقة تتسق مع المحفوظ ويتم تسجيلها باشراف النبى نفسه وجهد كتبة الوحى معه ..

وقد ظهرت صحف القرآن الكريم منذ بدأت الدعوة ، بل فى الفتـرة السرية لانتشارها ، والأمر يحتاج الى استنتاج ، فان اسم « الكتاب » علم يرادف القرآن ، ويدل كلاهما دلالة متســاوية على الوحى الالهى العزيز ..

وهذا العلم المشهور يعرف فى مكة ويعرف فى المدينة على سواء ، ففى القرآن النازل بمكة ترى قوله تعـالى : ((**حم ، تنزيل الكتاب من الله العـزيز الحكيم**)) (١) . ((**حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم**)) (٢) . ((**طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين**)) (٣) الخ .

وفى القرآن النازل بالمدينة تـرى قوله تعالى : ((**آلم ، ذلـك الكتـاب لا ريب فيه**)) (٤) . ((**ألم ، الله لا اله الا هو الحى القيوم ، نزل عليك الكتـاب بالحق**)) (٥) . والتنويه بشـأن الصحف التى تحمل الوحى وتيسر للنـــاس مطالعته مذكور فى السور النازلة بمكة والمدينـة جميعـا ، وذلك كقوله جل شـــأنه :

((**كلا انها تذكرة ، فمن شاء ذكره ، فى صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة ، بايدى سفرة ، كرام بررة**)) (٦) . — وهى سورة مكية ..

---

(١) الاحقاف الآية ١ ، ٢
(٢) غافر الآية ١ ، ٢
(٣) النمل الآية ١
(٤) البقرة الآية ١ ، ٢
(٥) آل عمران الآيات ١ ، ٢ ، ٣
(٦) عبس الآيات ١١ — ١٦

وقوله : « **رسول من الله يتلو صحفا مطهرة ، فيهـا كتب قيمـة** » (١) . والسورة مدنية ..

وعندى أن التنويه بوظيفة القلم فى نشر هـذه المعرفة السـماوية وخط الكتابة فى اشاعة هذا القلم واستبقائه على الزمن هو سر القسم فى الآيات : « **ن والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون** » (٢) ..

وانك لتقارن بين صدر هذه السورة وبين ختامها فيتأكد لديك هـذا المعنى اذ أن ختام السورة : « **وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصـارهم لما سمعوا الذكر ويقولون انه لمجنون ، وما هو الا ذكر للعالمين** » (٣) .

ولعل من الاشادة بحظ الكتابة فى نشر القرآن قول الله عز وجل فى أول آيات أنزلت : « **اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقـلم ، علم الانسـان مالم يعـلم** » (٤) .

والذى يعنينا اظهار المدى الواسع الذى انتشرت فيه صحف الوحى ، فان القرآن المكتوب كان متداولا فى دائرة رحبة ، وكان معروفا فى كثير من البيوت التى يتقن أصحابها الكتابة . وقد شرعت له أحكام فقهية خاصة ، منها الا يمسه جنب وألا يسافر به الى أرض العـدو المحارب مخافة امتهانة ، وكان للوحى كتاب مخصوصون أشـبه بالموظفين المنقطعين له ، يؤدون لـه واجب التدوين فى السفر والاقامة ويملى عليهم الرسول ما ينزل به الملـك ذلك عدا الذين يكتبون لأنفسهم ما يحفظونه او ما ينقلونه . فلما انتقل الرسول الى الرفيق الأعلى ، كان القرآن كله محفوظا فى الصدور وكان كذلك مثبتا فى السطور ..

وشيوع القرآن الكريم على هذه الصفة الواسـعة لم يجىء عفوا ، وانما مهدت له أسباب فعالة نوجزها هنا :

فالعرب فى فجر الاسلام كانوا أمة لها خاصـة بارزة فى مآثرها ومفاخرها هى تذوق الأدب العالى ، والاقبال عليه ، ونحن نعرف الأمم الآن بخلائق معينة تشيع فيها ، واطعمة مادية وادبية تلتصق ببيئتها . ففن البنـاء مثلا يبلغ أن يكون غريزة فى الايطاليين ، ويستطيع النقاد ان يحصوا معـالم المجتمعات فى

---

(١) البينة الآية ٢ ، ٣

(٢) القلم الآية ١ ، ٢

(٣) القلم الآية ٥١ ، ٥٢

(٤) العلق الآيات ٣ ، ٤ ، ٥

القارات الخمس ويذكروا الى جانب الطبقـــات الانسانيـــة المشـــتركة صفة خاصة ، أظهر وأذيع في قوم دون آخرين .. ! !

فالعرب في فجر الاسلام كانوا أمة لها خاصـــة بارزة في مآثرها ومفاخرها في قصيدة جيدة ، أو كلمة حكيمة ، وقد ارادوا ابراز آثارهم التى تكشف عن نواحى العظمة فيهم ، فكانت المعلقات السبع .. !! كانت صناعة الكلام لديهم تضارع فى زماننا هذا أرقى الصناعات التى تنتجها الأمم وتقيم لها المعارض ، وتدعو لها الزائرين ! ! وانك لتقرأ من ولوعهم بالأدب ما يثير العجب .. !!

أتعرف الصحابى الجليل عبد الله بن عبـــاس ؟ انه اســـتمع الى الشاعر عمر بن أبى ربيعة فى قصيدة غزل له تربى على السبعين بيتا وحفظها ؟ !

روى صاحب الأمالى قال : أتى ابن عباس عمر بن أبى ربيعـــة فأنشـــده قصيدته :

أمن آل نعـــم أنت غـــاد فمبـــكر
غـــداة غـــد أم رائح فمهجـــر ؟

حتى بلغ آخرها . فقال ابن عباس : ان شئت أعدتها عليك ! فقيل له : أو قد حفظتها ؟ قال : أو منكم من يسمع شيئا ولا يحفظه ؟ ؟

وروى عن التابعى المحدث الفقيه الورع سعيد بن المسيب انه فاضل بين شاعرين وتلا أبياتا يحتج فيها لرأيه فى ترجيح أحدهما . قال صاحب الأمالى : فلما انقضى الكلام استغفر الله سعيد مائة مرة بعدها بالأصـــابع الخمس .. ! وسعيد غلبته طبيعة البيئـــة وفطرة العرب فصنع ما صنع . وهو لم يرتكب اثما وانما رأى انه شغل نفسه بغير ما ينتظر من مثله .. !!

ونخلص من ذلك الى تقرير حقيقة معروفة عن العرب أيام الرسالة ، هى ولوعهم بالآداب العليا ، وحفظهم لها . وتنويههم بأصحابها .. !!

والقرآن الكريم ، وهو المعجزة الأدبية الخالدة فى لسان العرب ما ان ظهر حتى بهر !! ولا غرو . فليس فى تراث المستقدمين ولا المستأخرين نظير له . وقد استمع البلغاء له فهيمن على مشاعرهم ، ونفـــذت بلاغته الى شـــغاف قلوبهم ، واذا كانوا يعجبون بألوان من البيان أقل بمراحل مما جاء فى القرآن ، فكيف يكون انتباههم لهذا اللون الجـــديد من الحكمـــة التى هبطت عليهم ، وأثارت دهشتهم ! انهم ــ وهم عشاق الأدب البحت ــ واجدون فيه ما يروى غلتهم ، ويسكن تطلعهم الغنى الى الكمال والجمـــال ، فكيف اذا امتزج هـــذا التقدير الأدبى بالايمان الدينى ؟

لا شك أن القرآن الكريم سيكون شغلهم بالليل والنهار .. !

ثبوت .. وثبوت .. !!

لا يزعم النصارى أن الأناجيل الكنسية القائمـــة الآن وحى من الله الى عيسى بن مريم ، بل هم يقفون بها عند حدودها العتيدة ، ويرونهـــا سـيرا خاصـــة كتبهـــا رجال معينون ، وأودعوها ما لديهم من معارف ووصايا ، وتواريخ لحياة السيد المسيح ومن ثم ينسبون كل انجيل لكاتبه فحسب ! ! .

واطلاق كلمة « انجيل » على هذه التواليف مجاز قد يوقع فى اللبس ، اذ يحسب العامة أن هناك صلات بين تلك القصص المكتوبة ، وبين الانجيل الذى ثبت لدينا أن الله أنزل على نبيه عيسى بن مريم وهو الكتاب المقدس الذى هو غير موجود الآن لأنه ــ كما يبدو ــ ذهب مع الاضطهـــاد اليهودى الرومانى القـــديم .

والواقع المسلم به هو دليل ذلك الاســـتنتاج البين . والا فأين يا ترى انجيل عيسى بن مريم ؟؟ .

واذا اتضح ذلك ، يمكننا أن ننفى أية مقـــابلة بين القرآن الكريم ، وبين انجيل ما من هذه الأناجيل فلا موضع البتة لمقارنة بين وحى الهى منزل وبين كلام انسانى مؤلف .

ذاك من ناحية « المتن » . أما من ناحية « السند » فلا موضع البة للمقارنة بين ما تواترنقله ، وتلقاه جمهور من العدول الموثقين عن جمهور مثله ، وبين أشياء يرويها أفراد ، لو أن كل واحد منهم ثقة ما بلغ حديثه درجـــة اليقين الجازم .. ان مجال المقابلة يوجد بين هذا القـــرآن وبين الانجيل المنزل على عيسى نفسه وهو انجيل لا شك فى انه حق لأن الله عز وجل اخبـــرنا بذلك فى كتابه الأخير فقال : **« وقفينـــا على آثارهم بعيسى بن مريم مصـــدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيـــه هـــدى ونور »** (١) .. على أن ما لدى النصارى أنفسهم من كتابات يومىء الى وجود هذا الانجيل المفتقد .

وما يقال فى الأنجيل الموحى به ، يقال فى التوراة ، على اختلاف فى التفصيل والتمثيل ، فان الأمر منته حتما بالنتيجة السابقة ..

والواقع انه ليس فى العالم الآن كتاب تصح نسبته الى الله ، وتتقدم الدعوى به محفوفة بآلاف الأدلة وتسطع حقيقته فى الأذهان سطوع الضحوة الكبرى ، فى الأبصار .. الا هذا القرآن الكريم ..

---

(١) المائدة الآية ٤٦

انه وحده صوت السماء ، ووديعة الملأ الأعلى وكلام الله الذى **« لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » (١) ..**

لكن يبقى بعد ذلك أن مؤلفى الأناجيل ، رووا فيها تعاليم شتى نطق بها نبى الله ، وكلام الأنبياء له قيمته ، واذا كانت هذه المرويات لا تقارن بالقرآن مثلا ، فلم لا تقارن بالأحاديث النبوية ؟ وهذا تساؤل حقيق بالاجابة ..

فان هناك وجه شبه بين الأناجيل ، وبين بعض أحاديث الآحاد عندنا ، أعنى الأحاديث « المرسلة » ، و « المنقطعة » و « الموضوعة » ..

وقد يكون هناك شبه بين بعض تعاليم عيسى ، وبين ما صح من كلام محمد ، عليهما الصلاة والسلام ..

والأمر يحتاج الى فضل ايضاح ..

فالسلسلة منقطعة فى احد المواضع ، وانقطاع السلسلة يزرى بالرواية فى حديث آحاد ، ويجعل العلماء فى حل من رده .

فماذا تقول اذا علمت أن كاتب انجيل لوقا ، لم ير عيسى ، ولم يسمع منه ؟ ان انقطاع السلسلة بين لوقا وعيسى ، يحل العلماء من قبول مؤلفه هذا دون حرج ..

وذلك كله على فرض سلامة المتن ، وسلامة بقية الرواة ..

وروى ابن ماجة عن خالد بن عمرو القرشى الأموى السعيدى عن سفيان الثورى عن أبى حازم عن سهل بن سعد الساعدى ، قال : جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، دلنى على عمل اذا عملته أحبنى الله ، وأحبنى الناس ، فقال : **« ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس » ..**

قال العلماء : الحديث ضعيف ــ وان لطف معناه ــ لم ؟ لأن خالدا الراوى الأول ، رجل متهم متروك الحديث !! .

فماذا تكون عليه الحال اذا كان (بولس) الراوية الكبير فى النصرانية رجلا متهما ؟ .

واذا كان (متى) نفسه قد التحق بوظيفة محصل ضرائب للرومان الظلمة .

---

(١) فصلت الآية ٤٢

هذه الأوصاف والأعمال ، تجعل صاحبها فى نظر النقاد المسلمين غير مأمون الرواية !!! .

ثم انفرض جدلا أن الأسانيد فوق الشبه وان المتون لا غبار عيها ، وأن الأحاديث بعد ذلك صحيحة لا يسوغ ردها ، فما نتيجة هذا الفرض ؟

ان الأحاديث الصحيحة لا تفيد أكثر من الظن العلمى .. وأصول الأديان من عقائد واحكام ، وقواعد وشعائر ، لا تقبل الا من مصدر يقينى ، أى من مصدر متواتر مكين .

والمسلمون لا يعرفون هذه المنزلة كاملة الا للقرآن الكريم ، لأنه جملة وتفصيلا ، متواتر بخلاف السنة ، التى قل المتواتر فيها .

ان التراث الأدبى فى الأناجيل الكنسية ، اذا قيس بما يشابهه عندنا ، لم يحرز تقديرا يذكر . فاننا نحن المسلمين بلغنا فى ضبط المنقول مدى اربى على الغاية ، وانقطعت دونه الظنون .

وذلك أن علماء الاسلام حرروا ما ينسب لنبيهم على ضوء قواعد لا يجد العقل منفذا لخدشها ، فنقلة الكلام يجب أن يكونوا سلسلة موصولة الحلقات من الرجال العدول الثقات ، فاذا انخرمت السلسلة فى موضع ، او تطرق الطعن الى أحد الرواة لم يكن الحديث موضع تسليم ..

واذا اتصلت السلسلة ، وسلمت أقدار الرواة ، نظر بعد ذلك الى الكلام نفسه ، فقد تكون به علل قادحة ، يستبينها النقدة على طول التأمل ، وقد يكون فيه شذوذ عما استراح اليه العقل والنقل من طرق اخرى ، فان وجد شىء من ذلك رفض الحديث ...

ولا نظن أن هناك دقة فى وزن الكلام ، وتصحيح نسبته ، وتقدير قيمته ، فوق ما وصل اليه علماء المسلمين فى هذا المجال ..

ولنضرب طائفة من الامثلة الكاشفة المقارنة لترسخ فى الأذهان هذه الحقائق ، روى احمد بن حنبل بسنده الى الحسن البصرى ، عن أبى هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من استمع الى آية من كتاب الله كتب له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نورا يوم القيامة » ..

هذا الحديث تضمن معنى جميلا . بيد أن العلماء يحكمون عليه بالضعف مع ذلك ! ولم ؟ لأن الجمهور يرى أن الحسن البصرى لم يسمع من أبى هريرة ..

فكيف تكون الحال اذا كانت دعائم النصرانية لا تقوم الا على أخبار الآحاد ؟ وأى آحاد ؟ آحاد فى أسلوب روايتهم متسع لترويج الشائعات ، وتصديق الخرافات . . وفى تسلسل الرواية عنهم ، فجوات وفجوات ! .

خذ مثلا انجيل (متى) . ان الرجل كتب سيرة عيسى بن مريم — التى تسمى خطأ ، أو مجازا — انجيل (متى) بالعبرانية أو السريانية ، والنسخة المكتوبة بهذه اللغة أو تلك لا تعرف ، وانما توجد نسخة باليونانية ، هى أقدم ما عرف من ذلك الانجيل .

أين الأصل الأول ؟ من الذى ترجمه ؟ متى كتب الأصل ؟ ومتى تمت الترجمة ؟

ليست هناك اجابات على هذه الأسئلة .. !! الباحث الحر فى حل من حجب ثقته عن مثل هذا الكتاب ، من ناحية سنده التاريخى ، فلننتقل الى المتن نفسه ، بعد ما عرفنا قيمة السند . .

قال الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة : « لقد اشتمل بعض هذه الكتب على أخبار لو صحت لكانت معلومة مشهورة فى التاريخ ، يعرفها الخاص والعام، ولدونتها كتب التاريخ على أنها حوادث مفردة عجيبة فى الدهر ، أن أمثال هذه الحكايات كانت فى حاشية النسخة العبرانية وأدخلها الكتاب فى المتن ، وهذا وقع فى يد المترجم فترجمها كما وجدها » .

ونقول : لعل كثيرا مما فى المتن أصله فى الحاشية ثم نقل خطأ فى المتن .

واذا كان الأمر كذلك ، فكيف يكون هذا الكتاب وأشباهه مصدرا لاعتقاد جازم ، وايمان بدين ؟ وكيف يزعم زاعم أن هذا الكتاب بحواشيه الداخلية ، غير المعلومة من متنه الأصيل ، هو بالهام من الله العلى القدير ؟ . .

ولكن فى العالم عقول تقبل ذلك ، بيد أنه من الانصاف لهذه العقول أن نقول : ان أصحابها يقيمون عليها غواشى تمنع نورها أن يكشف عن موضع الضعف فى هذا الكلام ، فهى تقبله على غير بينة ولا سلطان .

ومن الانصاف أن نذكر ضميمة أخرى الى جانب هذه الحقيقة وهى أن فى صحائف العهد القديم والجديد آثارا حسنة ، وعظات صادقة ، وأمثالا حكيمة . .

ولن تعدم فى ركام المرويات التى اجتلبها الرواة من كل مكان ، كلاما عليه طابع الوحى ، تطل من خلاله أرواح موسى ، وعيسى وغيرهما من أنبياء بنى اسرائيل . .

ولا غرو ، فالمأخوذ على القوم انهم لبسوا حقـا بباطل ، وشركا بتوحيد ، وهوى الأنفس بأحكام الله فكان هذا الخلط سبب ما عراهم من انحراف ، بل ما عرا العالم كله — معهم — من شقوة وشرود ..

ولكن لم يرد لها ذكر فى التاريخ ، ولم يعرف الناس امرها الا من تلك الكتب. هذا « متى » يقول عند صلب المسيح وقيامته :

« فصرخ يسوع بصوت عظيم ، واسلم الروح واذا حجاب الهيكل قد انشق الى اثنين من فوق الى أسفل » والأرض تزلزلت ، والصخور تشققت ، والقبور تفتحت ، وقام كثير من اجساد القديسين الراقدين ، وخرجوا من القبور بعد قيامته ، ودخلوا المدينة المقدسة ، وظهروا لكثيرين — وأما قائد المائة والذين معه يحرسون يسوع فلما رأوا الزلزلة وما كان خافوا جدا وقالوا: حقا كان هذا ابن الله » .

وهذه حادثة عظيمة لو صحت لدونها التاريخ العام الذى لم يشر الى المسيح بكلمة .

ولو صحت ايضا لآمن الرومان واليهود ، أو آمن نفر منهم .

الصخور تنشق ، والأرض تزلزل ، والأموات ينتشرون ويسيرون على الأرض ، ويراهم الكثيرون ويبقى بعد ذلك مساغ لانكار ؟ ومع هذا لم ترد أخبار بايمان أحد من اليهود على اثر تلك البينات الباهرات . ولقد جزم العلامة المسيحى نورتن بكذب هذه الحكاية ، وقال فى تكذيبها : « هذه الحكاية كاذبة » .

كيف تم جمع القرآن .. ؟؟

عندما آثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يذهب الى الرفيق الأعلى ، وترك هذه الدنيا بعد ما أدى رسالته انجح اداء . تركها وللاسلام فيهـا دولة قائمة ، ودعوة واضحـة ، وقوة مهيبـة ، وسـلطان يعصم دمـاء المؤمنين واموالهم ، ويرد نزوات السفهاء عنها .

تركها بعد ما استقر الوحى فى صدور الرجال ، وبطون الكتب ، وانداحت الدائرة التى يتلى فيها القرآن الكريم ، حتى بلغت الف ميل من اقصى اليمن الى أطراف الشام ، ومن الخليج الفارسى الى شواطىء البحر الأحمر .. !

ومما يجب التنويه به أن القرآن الكريم — فى فترة كفاح الدعوة . وضغط الوثنية كان يتلى ويكتب دون مصادرة تنال من اصله ..

صحيح أن المشركين ضاقوا به ، وثاروا عليه ، بيد أن خصومتهم له كانت تتخذ فى التشويش عليه طرقا اخرى لا تتصل بجوهره ..

منها تلفيق كلمات تشبه سور القرآن ، وتتحدى اعجازه !! .

ومنها اللغط فى مجالسه ، وافتعال ضجيج يمنع سماعه !!

وهذه وتلك محاولات صبيانية ، لم تلبث أن ذابت فى حرارة الجد ، وسطوة الحق ، والغريب أن معلمى القرآن وصلوا الى حد من الكثرة يستحق التأمل ، وخصوصا فى هذه الفترة المكافحة العصيبة . انظر كيف قتل سبعون قارئا فى معركة بئر معونة . ومع هذه الخسارة الفادحة ، فان معلمى القرآن فى صحراء الجزيرة لم تقع بينهم ازمة ، بل ظلت وفودهم تنساب هنا وهناك من غير انقطاع .

فاذا كانت هذه حال القرآن أيام غربته ، وهو يشق طريقه بين الخصومات والعقبات فكيف تكون حاله بعد ما رست دعائمه ، ووضحت معالمه ، وتكونت له دولة تاخذ لربها ونفسها ما تشاء ؟ .

الحق أن الوجود الانسانى منذ الأزل لم يعرف كتابا توافرت له ضمانات الحفظ وتظاهرت حوله أسباب العصمة ، مثل ما عرف لهذا القرآن الكريم .

ان التواتر القوى يشد أسانيده من كل ناحية ؟ جماهير كثيفة تروى عن جماهير كثيفة ، وتبلغ فى الاستقصاء أن تحصى كلمات السور ، بل تعد حروف الهجاء الموجودة بها حرفا حرفا .

وهذا على نقيض ما وقع لديانات أخرى لم تلق أصولها ذرة من هذه العناية ولنضرب النصرانية مثلا لهذا التفاوت .

ان البون بعيد بين الظروف التى توفى فيها محمد صلى الله عليه وسلم ، والظروف التى توفى الله فيها عيسى ورفعه اليه ، كلا الرجلين نبى كريم ، بلغ رسالات الله بأمانة ووفاء ، غير أن الاسلام كان أسعد حظا فى النجاة من أعدائه، والغلب على مؤامراتهم ، من المسيحية التى تعرضت لخصومات عاصفة .

كان عيسى بن مريم عليه السلام كأنما يقاتل فى معركة انسحاب ، لقد اعتبر هو واتباعه خارجين عن القانون السائد ، وخروج المصلحين على العرف القائم ، والتقاليد الموروثة ، أمر لا يضيرهم ، بل قد يكون أساس شرفهم ومحور كرامتهم ، وهنا يدور الصراع بين مبادىء ومبادىء ، وجيل وجيل ويحتدم النزاع بين الحق والباطل ، ريثما تجىء النتائج الحاسمة .

ويبدو أن الذين آمنوا بعيسى لم تكن لهم شوكة مرهوبة . اما لقلتهم ، واما اضعف شأنهم واما لقوة اليهود والرومان والذين تألبوا عليهم .

ومن ثم جاء ختام هذا العراك مؤسفا ، فقد سير الرومان ثلة من رجال الشرطة ألقوا القبض على عيسى ؟ وقتلوه كما بزعم النصارى ، وأفلت من

أيديهم كما نعتقد نحن المسلمين ، وطويت صحائف هذه الدعوة المضطهدة بهذا المصير الخطير ؟ وتبدد الاتباع شذر مذر ؟ وضاع الانجيل الذى أنزله الله على نبيه ، فلم يعثر له على اثر الى يوم الناس هذا ، وكل ما أثر من تعاليمه بقايا أشاعها لفيف من كتاب سيرته بعد عشرات السنين من وفاته ، فى أحوال تحفها الريب ، ويغلب عليها التخليط والخبط ، وسميت هذه السير المؤلفة أناجيل. وليست هى البتة بالأنجيل الذى أنزل على نبى الله عيسى بن مريم . ؟

شتان بين هذه الأحوال ، وبين الأحوال التى اكتنفت صدر الاسلام فان اتباعه الأوائل — على ما شرحنا — صنعوا سياجا من حديد حول دعوته ، فلما حاول الباطل أن يفضها انكسرت انيابه حول كيان مصفح شديد . وهو وهم مبعثه كما ترى شدة الغيرة على القرآن وان كانت الايام لم تتمخض عنه ، ولا اقتربت منه ، فان الحفاظ الواعين كلما حصدت المعارك منهم نفرا ، نبت مكانهم مثلهم أو ضعفهم . ومع ذلك فان فكرة جمع القرآن المكتوب فكرة مقدورة مشكورة بلا ريب ، وقد نفذها ابو بكر ، واليك رواية البخارى فى هذا الشأن :

عن زيد بن ثابت قال : « **بعث الى أبو بكر لمقتل أهل اليمامة — وعنده عمر ، جاءنى فقال : ان القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن وانى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى كل المواطن ، فيذهب من القرآن كثير ؟ وانى أرى أن تامر بجمع القرآن ، قال : قلت لعمر كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عمر هو والله خير ؟ فلم يزل يراجعنى فى ذلك حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر عمر ، ورايت فى ذلك الذى راى عمر . قال زيد : فقال لى ابو بكر : انك رجل شاب عاقل لا نتهمك ، قد كنت تكتب الوحى لرسول الله ، فتتبع القرآن فاجمعه ؟ قال زيد : فوالله لو كلفنى نقل جبل ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن !! فقلت كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله فقال ابو بكر : هو والله خير !! فلم يزل ابو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر ابى بكر** » ..

وفى رواية : « **فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر ، ورأيت فى ذلك الذى رأيا** » ..

قال : « **فتتبعت القرآن اجمعه من الرقاع والعسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع ابى خزيمة الأنصارى ، فلم اجدها مع أحد غيره (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ..) فالحقتها فى سورتها ..** قال : **فكانت الصحف عند أبى بكر حياته ، حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته حتى توفاه الله . ثم عند حفصة بنت عمر** » ..

واخذت السنون تمر وامر الاسلام فى صعود ، والرقعة التى يسودها تتسع والأفواج التى تدخل فيه تنمو ، وظل الوحى ينزل ثلاثا وعشرين سنة مات الرسول صلى الله عليه وسلم آخرها بعد أن رهق المصلين فى مسجده ثم استنار وجهه كأنه مذهبة . ان القرآن يتلى فى محرابه ، والجموع تنصت له فى يقين وخشوع والدنيا فى طول الجزيرة وعرضها تدين له ، والحياة الاجتماعية والسياسية تقوم عليه اى ان الأمة والدولة كلتيهما سناد لهذا القرآن ، واشياع وحراس .

وحدث عن كتاب اصبح روح شعب ، ومراسيم حكومة ؟

ان العناية بأمره لن تحتاج الى تكلف ولا استكراه . وقد بسطنا القول آنفا ان القرآن نزل كله ، وكتب كله ، وحفظ كله على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلما استخلف أبو بكر وتولى شئون المسلمين عن لأولى الأمر ان يجمعوا الوثائق التى سجلت فيها آيات الكتاب العزيز ، وان يضموا بعضها الى بعض ، ليكون من هذه الأصول المكتوبة بامر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مصحف واحد تحفظه الدولة لديها وهو وان اودع خزائنها لعدم الحاجة اليه فى الحاضر .. فان المستقبل قد يطلبه . نعم لم تكن هناك حاجة عاجلة لهذا الجمع ، فان القراء كثرة مستفيضة . ورواية القرآن بالتلقى العام منتشرة بين جماهير المسلمين ، والكتابة وحدها لا تكفى كما بين فى تعلم القرآن وتعليمه . ذلك أن ضبط الأداء كما جاء عن الرسول نفسه لا يكون الا مشافهة ، وهذا ما تظاهر المسلمون على حفظ القرآن به وان جاءت الكتابة الى جانبه سياجا بعد سياج .

وتذكر الروايات ان السبب المباشر فى جمع القرآن — من وثائقه المكتوبة — هو توجس أبى بكر وعمر ، لاستشهاد عدد كبير من الحفاظ فى حروب الردة ومقتل مئات من القراء ايام ابى بكر لا يضر بالقرآن شيئا فى يومه القريب فان حفاظه أربى من ذلك واغزر . بيد أن المعارك المتوقعة بين الحق والباطل قد تظل مشتعلة الاوار عصرا بعد عصر ، وقد تكون مسارعة هؤلاء الأبطال الحفاظ الى خوضها سببا فى ضياع التواتر الذى انفرد هذا القرآن به .

ومن ثم يجب جمع القرآن المكتوب ، وايداعه فى حرز بيد الدولة ، تجنبا لهذا الوهم ، وسياق هذا الحديث كما رواه البخارى يحتاج الى بيان وتوضيح . ما الذى كلف به زيد ؟ ان العمل الذى كلف به زيد هو جمع النصوص المتناثرة المكتوبة بامر رسول الله . والتى يحتفظ بها اناس كثيرون لأنفسهم ، ثم تنسيق هذه الجزازات والرقاع فى ترتيب يوافق المحفوظ فى صدور الرجال ..

وليس هذا الترتيب مستحدثا ، فقد بدأ بتوقيف من الرسول نفسه ، اذ كان يأمر الكتبة كلما نزل وحى جديد ان يثبتوه فى المكان الذى يذكر فيه كذا من القرآن النازل قبلا ..

ومهمة زيد ــ والحالة هذه ــ لا تعدو ضم ما تفرق هنا وهناك على نسق معهود له ولغيره من جمهور الحفظة ..

وزيادة فى الاستيثاق كان لا يقبل من المكتوب الا ما شهد اثنان بأنه سجل بأمر الرسول ، وهو اشتراط تمليه الحيطة الزائدة فحسب ، والا فهو تشدد بالغ .. وهنا يحكى زيد أن ما يحفظه هو وغيره من ختام سورة براءة ، وجدوا له أصلا واحدا مكتوبا عند أبى خزيمة الانصارى ، وهو الرجل الذى اختصه رسول الله بمزية يعرف بها وحده ، تلك أن شهادته تعدل شهادة رجلين . وبذلك تم لزيد ما ألزم به نفسه ..

وماذا صنع زيد ، بل ماذا صنع رئيس الدولة بالمصحف الذى جمعه زيد ؟ احتفظ به عنده انه فى نظرى كوثائق العقود التى تودع للحاجة ، أما حقيقتها الخارجية فليست محل جدل ، لانها أشبه بالمحسوسات المادية الراسخة !! ..

وبقى سؤال أخير : لماذا دار هذا الحوار الوجل بين أبى بكر ووزيره ، أو بينهما وبين زيد بن ثابت ، يقول لفيف من العلماء : انه الحرص الدقيق على ابقاء الأوضاع كما كانت أيام رسول الله ، والحذر من الاتيان بجديد لم يسبق اليه النبى الكريم ولو كان هذا الجديد جمع القرآن فى مصحف واحد ؟ !

وقد يكون ذلك سبب ما حدث من أخذ ورد ، وعندى أن هذا الموقف يعود الى استعظام أولئك الرجال لكلام الله ، واكبارهم لمهمة جمعه بأنفسهم وهم يرون أشخاصهم على جلالتها ــ دون هذا العمل . فمثار التردد يعود الى غمطهم لانفسهم لا الى مشروعية هذا العمل ؛ ولذلك مضوا فيه دون تردد لما بدالهم أن جوانب الخير فيه لا يجوز اهمالها .. وبقيت الصحف المجموعة فى مستودعها العتيد لا يحتاج احد اليها . أو لا يشعر بها ، فان القراء يتلون كتاب الله عن ظهر قلب ويتدارسونه فى بيوتهم ومحافلهم واسواقهم ومجامعهم ، دون ريبة .. واطرد سير القرآن مع امتداد الدولة الاسلامية ، فما يفتح بلد جديد الا عمره بالقرآن أهل القرآن ، يقيمون به الدولة ، ويبنون عليه المجتمع ..

كان للجيوش الاسلامية فى جبهتى فارس والروم دوى بالقرآن كدوى النحل فى خلاياها ، ولم يكن هناك علم آخر يشرك القرآن جزءا من الوقت ،

حتى السنة النبوية منع عمر بن الخطاب شغل الناس بدراستها ، حتى يعطوا ليلهم ونهارهم للقرآن وحده ولا نعرف — كما قلنا — كتابا فى التاريخ لقى هذه الحفاوة ، أو وجد ذلك الاقبال وقد كانت سورة القتال تتلى أحيانا فى نشيد جماعى تهدر به الكتائب الغازية ، كما نرى هتاف الجموع فى عصرنا بالنشيد القومى مثلا أبان فترات الحماس ..

ولم يقع شيء ذو بال بعد ذلك الا جمع المسلمين على المصحف الواحد الذى أمرت الدولة بحفظ وثائقه بعد وفاة الرسول ..

ذلك أن القرآن — كما يعرف علماؤه — نزل بوجوده عدة ، قرأ بها الرسول وأقرأ بها غيره ويسره على المسلمين تلاوة ما يؤثرون منها . فهى جميعها سواء .. ودلالتها على الوحى الأعلى كدلالة ليث وأسد على الحقيقة المعروفة .. نعم فان آية : ((**ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا**)) يصح أن تتلى ((**ان جاءكم فاسق بنبأ فتثبتوا**)) (١) كلتا هما سواء وليست احداهما بأكثر من الأخرى فى شيء .. بيد أن بعض الذين بلغهم وجه واحد من هذه القراءات ، ربما اعترضوا القارئين بالوجه الآخر وقد ينشب لذلك جدال يفضه أهل العلم فور وقوعه .

ولكن الأمر مع انتشار المسلمين فى أنحاء العالم خيف أن يتفاقم ، وان ينشب حوله خصام ينال من قداسة الوحى نفسه .. فكان ذلك العمل الجليل الذى قام به عثمان بن عفان رضى الله عنه فقد كان حذيفة بن اليمان رضى الله عنه يشارك أهل الشام وأهل العراق فى فتح أرمينية وأذربيجان فأفزعه اختلاف بعض المسلمين فى قراءة القرآن ، فقدم على عثمان فقال له : يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الأمة قبل ان يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى .
فأرسل عثمان الى حفصة أم المؤمنين ان أرسلى الينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ، ثم نردها اليك .

فأرسلتها حفصة الى عثمان ، فأمر عثمان زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام . فنسخوها فى المصاحف .

ثم رد عثمان الصحف الى حفصة رضى الله عنها ، وارسل الى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر مما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف ان يحرق .

---

(١) الحجرات الآية ٦

وقصة هذا العمل الذى قام به عثمان بتنبيه من حذيفة بن اليمان رواها البخارى فى صحيحه بسنده عن أنس بن مالك عن حذيفة . وسمى ما نسخ فى عهد عثمان بالمصحف الامام ، وعليه تم نسخ مصاحف المسلمين بعد ذلك .

وقد كانت كتابة هذه المصاحف خالية من الشكل وخالية من النقط ، ثم دعت الضرورة الى ضبط الكتابة بعد أن أثرت اللغات غير العربية على السنة الشعوب العربية فأدخل النقط على الحروف لتمييز المتشابهات منها فى الرسم ، وادخل الشكل لتحديد حركات الحروف به ، وحماية لكتاب الله من اللحن ، وكان ذلك فى عهد عبد الملك (٦٥ هـ) والمشهور ان واضع أصـــول نقط القرآن وشكله أبو الأسود الدؤلى ، ويذكر فى هذا الموضوع أيضا يحيى بن يعمر ، ونصر ابن عاصم الليثى .

اعجاز القرآن

الاعجاز البيانى

اننى واحد من الألوف التى قرأت هذا القرآن ومررت بمعانيه وغاياته مرور العابر حينا ومرور المتفرس المتأمل حينا آخر ..

والقرآن ليس الكتاب الوحيد الذى طالعته ، فقد طالعت مئات الكتب الاخرى على اختلاف موضوعاتها واقتربت من نفوس أصحابها ومن البابهم ، وأذنت لهذه الكتب أن تترك آثارها فى فكرى ، لاقلبها على مكث ، وانتفع بما أراه نافعا والفظ ما أراه باطلا ..

ومن اليسير على وعلى اى قارىء مثلى ان يكون حكما معينا على الكتاب الذى تناوله . فقد اخلص من قراءة كتاب ما ، ثم اقول : هذا المؤلف واسع الاطلاع .. أو اقول : ان ثقافته غزيرة فى الآداب الأجنبية ، او انه طائل الثروة فى الأدب العربى لقديم ، أو انه ملم بآخر ما وصلت اليه الكشوف العلمية ، أو انه قصير الباع فى اعطاء المعنى حقه ، أو انه مصطبغ بلون يسارى ، أو انه من المعجبين بالفيلسوف الفلانى أو أن فى نفسه عقدة تميل بأسلوبه الى الحدة فى ناحية كذا ، أو انه مرن الفهم والأداء .. الخ .

وقلما أعجز عن استبانة الخصائص الانسانية المتباينة فى تأليف الرجال الذين طالعت نتاجهم الذهنى ، أو آثارهم الروحية .

وكثيرون غيرى يجدون فى انفسهم هذه القدرة . وقد تلوت القرآن مرارا ، ورجعت بصرى فى آياته وسوره ، وحاولت ان اجد شبها بين الأثر النفسى

والذهنى لما يكتب العلماء والأدباء وبين الأثر النفسى والذهنى لهذا القرآن فلم اقع على شيء البتة ..

وقد احكم بأن كتابا ما صدر عن مؤلف في عصر كذا ، وان جنسية هذا المؤلف ومزاجه واهدافه هى كيت وكيت .

اما بعد قراءة القرآن . فاجزم بأن قائل هذا الكلام محيط بالسموات والأرض ، مشرف على الأولين والآخرين ، خبير بأغوار الضمائر واسرار النفوس ، يتحدث الى الناس تحدث السيد الحقيقى الى عباده ، الذين خلقهم بقدرته ، ورباهم بنعمته ، ويتناول الامم والقرون فى هالة من الجبروت والتعالى يستحيل ان تلمح فيها شارة لتكلف أو ادعاء .

ومع رفعة المصدر الذى تحس ان القرآن جاء منه احساسك بأن هذا الشيء اتى من بعيد فانك ما تلبث ان تشعر بأن الكلام نفسه قريب من طبيعتك ، متجاوب مع فطرتك ، صريح فى مكاشفتك بما لك وما عليك ، متلطف في اقناعك ، فما تجد بدا من انقيادك لأدلته ، وانفساح صدرك لتقبله ..

ولا تحسبن هذا الوصف متأثرا بمواريث التدين التى انتقلت الينا من الأولين ، فان الكفار انفسهم ادركوا ان القرآن مباين بأسلوبه الخاص لجنس ما الفوا من كلام ، وملكتهم الدهشة لدى سماعه .

فقد روى ان الوليد بن المغيرة ــ وهو من زعماء الكفر فى مكة ــ جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم ، واستمع الى ما يتلو من هذا القرآن فلما انصت وتدبر . كأنما رق له قلبه ، فبلغ ذلك ابا جهل ، فأتاه وقال له :

يا عم ، ان قومك يرون ان يجمعوا لك مالا ليعطوك اياه ، فانك اتيت محمدا وملت الى دينه .. !!

قال الوليد ــ مستنكرا عرض المال عليه ــ : لقد علمت قريش انى من اكثرها مالا .

قال : فقل فيه قولا يبلغ قومك ، فيعلمون انك مكذب له وكاره .

قال : وماذا اقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم منى بالشعر ، لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن .

والله ما يشبه الذى يقوله محمد شيئا من هذا ، ووالله ان لقوله لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وانه لمنير اعلاه ، مشرق اسفله ، وانه ليعلو ولا يعلى ، وانه

ليحطم ما تحته . وغضب ابو جهل لهذه الشهادة ، فان الصدق فى هذه القضية لا يعنيه ، بل يؤذيه .

والعراك على الرياسة فى هذه البيئات يذهل عن شئون الكفر والايمان . فليكن محمد صادقا .

وليكن كلامه وحيا .

بيد أن المصلحة القبلية تقضى بكتمان امره وانتقاص شخصه .
ولذلك عاد أبو جهل يلح على الوليد : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه :

فقال الوليد . . دعنى أفكر . .

وفكر الوليد ، ثم احب أن يكون منطقيا مع نفسه فقال : هذا سحر . !!
ولعله يقصد بالسحر ما جاءت به قوى خفية لا يعرف الناس عادة حقيقتها .

وفى هذا الحوار نزل قوله عز وجل : « **ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا انه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا ، انه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال ان هذا الا سحر يؤثر ، ان هذا الا قول البشر ، ساصليه سقر** » (١) .

والواقع أن من الكذب الشائن على الفطرة والبداهة ، وعلى العقل والرواية ، أن يزعم زاعم بأن القرآن الكريم كلام عادى . وأن اديبا راسخ القدم فى البلاغة يستطيع أن يجىء بمثله . . .

وقد تساءل كثيرون عن أسرار هذا التفرد الذى اتصف به القرآن الكريم .
ولا شك أن المعانى التى تضمنها والتى نسج سداها ولحمتها من الحق الخالد اساس لهذا الاعجاز . بيد أن المعنى على جلاله ان لحقه قصور فى صورته واثره ، نقصت قيمته ، وطاشت دلالته .

وهناك معان جميلة فى نفوس اصحابها ، ولو استبانت على السطور لأشرقت بها الصحائف . . . ولكنها مشاعر فى النفوس فحسب :

---

(١) المدثر الآيات ١١ — ٢٦

ان الـــكلام لفى الفــؤاد وانما
جعل اللســـان على الفؤاد دليلا

فتصوير المعنى الصادق حتى يبرز فى الحروف كما يبرز الجمال الانسانى فى أبهى حلله ، وحتى ينتقل سناه الى الأفئدة نفاذا اخاذا ركن ركين فى خدمة الحقيقة وبسط سلطانها . وازاحة العوائق من أمامها . .

وقد تعرض لفيف من علمـــاء الاسلام لشرح الاعجاز البيانى فى القرآن الكريم .

وكنت أنا نفسى كثير الطواف حول هـذا الجمال البيـــانى ، أسرح فيه الطرف وأردد فيه الفكر ، لكنى كنت كالذى شـغله الاعجاب بالجمال ، عن وضع تفاسير له أو لعلنى حاولت ثم غلبنى القصور ، فتوقفت مؤقتـا حتى تسنح فرصة . . . الى أن قرات للمرحوم العـــلامة الشيخ « محمد عبد الله دراز » كتابه « النبأ العظيم ــ نظرات جـديدة فى القرآن » فرايت الرجل وفى هذا المجال حقه ، وافاض فى الحديث ، كأنما يتدفق من ينبوع لا يغيض أبدا .

وددت لو أن الرجل بقى حتى أكمل ما بدأ ، بيد أن المنية عاجلته فقضى وهو مجاهد فى سبيل ربه ــ طيب الله ثراه .

شرح الدكتور فى تفصيل طويل المعـــانى التى احتـــواها القرآن والتى يستحيل ــ بالبراهين الحاسـمة ــ أن تصدر عن بشر ، واحصى جملة الشــبه التى يمكن أن تخطر ببال أى متردد مرتاب ، ثم أجهز عليها .

ومضى يستعرض ما يقوله المستقصى فى طلب الحقيقة وبسط الاجابة فى أدب وفقه ، واسمع الى هذا البيان :

« فان قال : قد تبينت الآن أن سكوت الناس عن معارضــة القرآن كان عجزا وانهم وجدوا فى طبيعة القرآن سرا من أسرار الاعجـــاز يسمو به عن قدرتهم . ولكنى لست أفهم أن ناحيته اللغوية يمكن أن تكون من نطـــاق هذا السر ، لأنى اقرا القرآن فلا أجـــده يخرج عن معهـود العرب فى لغتهم العربيـــة .

فمن حروفهم تركبت كلماته ، ومن كلماتهم الفت جمـــله وآياته ، وعلى مناهجهم فى التأليف جاء تأليفه .

فأى جديد فى مفردات القرآن لم تعرفه العرب من موادها وأبنيتهـــا ؟ وأى جديد فى تركيب القرآن لم تعرفه العرب من طرائفها ، ولم تأخذ به فى مذاهبها حتى نقول :

انه قد جاءهم بما فوق طاقتهم اللغوية ؟

قلنا له : أما أن القرآن الكريم لم يخرج فى لغته عن سنن العرب فى كلامهم أفرادا وتركيبا فذلك فى جملته حق لا ريب فيه . وبذلك كان أدخل فى الاعجاز وأوضح فى قطع الاعذار **« ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى » ؟ !** (١)

وأما أبعد فهل ذهب عنك أن مثل صنعة البيان كمثل صنعة البنيان ، فالمهندسون البناءون لا يخلقون مادة بناء لم تكن فى الأرض ، ويخرجون فى صنعتهم عن قواعدها العامة ، ولا يعدو ما يصنعونه أن يكون جدرانا مرفوعة ، وسقفا موضوعة ، وأبوابا مشرعة . ولكنهم تتفاضل صناعاتهم وراء ذلك فى اختيار أمتن المواد ، وأبقاها على الدهر : وأكنها للناس من الحر والقر ، وفى تعميق الأساس ، وتطويل البنيان ، وتخفيف المحمول منها على حامله ، والانتفاع بالمساحة اليسيرة فى المرافق الكثيرة ، وترتيب الحجرات والأبهاء بحيث يتخللها الضوء والهواء .

فمنهم من يفى بذلك كله ، أو جله ، ومنهم من يخل بشىء منه أو أشياء ... الى فنون من الزخرف يتفاوت الذوق الهندسى فيها تفاوتا بعيدا .

كذلك ترى أهل اللغة الواحدة يؤدون الغرض الواحد على طرائق شتى ، يتفاوت حظها فى الحسن والقبول .

وما من كلمة من كلامهم ، ولا وضع من أوضاعهم بخارج عن مواد اللغة وقواعدها فى الجملة .

ولكنه حسن الاختيار فى تلك المواد والأوضاع قد يعلو بالكلام حتى يسترعى سمعك ، ويثلج صدرك ، ويملك قلبك .

وسوء الاختيار فى شىء من ذلك قد ينزل به حتى تمجه اذنك ، وتفتر منه نفسك ، وينفر منه طبعك .

الاعجاز النفسى

احتوى القرآن على شرائع الاسلام وأصول دعوته . لكن هذه الشرائع والأصول لا تستغرق جزءا كبيرا منه ، فان الاسلام دين يسير الرسالة ، محدود التكاليف . وانما كثرت السور واستبحرت الآيات لكى يمكن عرض الحقائق الدينية فى أسلوب عامر بالاقناع فياض بالأدلة :

---

(١) سورة فصلت الآية ٤٤

نعم تستطيع حصر أحكام القرآن ، وزبدة عقائده وتعاليمه فى بضع صفحات وبضع صفحات ليست شيئا هينا انها تتسع لحشد كبير من المعارف الثمينة .

بيد أن الوحى الالهى ليس مجموعة من العلوم رصت فى كتاب ثم قدمت للناس .

ان عماد هذا الوحى — بعد تقرير الحق الذى جاء به — هو : كيف يغرس هذا الحق فى النفوس ، وكيف تفتح أقطارها له وكيف تبقى عليه وان تعرضت للفتن ، وكيف يبقى فيها وان زاحمه الباطل وضيق عليه الخناق بصنوف الحرجات ، ان وحدانية الله جل جلاله أم العقائد الاسلامية ومبدأ التوحيد لا يحتاج فى بيانه الى كراسات أو مجلدات ، بل كلمة التوحيد تكتب فى سطر وتنطق فى لحظات ، فهل كذلك الأمر فى اشراب القلوب حقيقة التوحيد . وتتبع مسالك الانسان لنفى الشرك عنها ، والزامها الصراط المستقيم ؟ وسرد تاريخ الأمم الأولى ، وكيف اجتالتها الشياطين عن الفطرة ، فاتخذت من دون الله أوثانا ؟ . . .

ثم كيف لقيت المصير الأسود الذى يجب أن تتعظ به الأجيال الجديدة بعد بوار القرون السابقة ؟ . . .

الأمر هنا يحتاج الى افاضة واستطراد حتى يستطاع التغلب على طبيعة الانسان المعاندة ، واغلاق كل منفذ يمكن أن تهرب منه .

ولذلك يقول الله عز وجل : ((**ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الانسان أكثر شىء جدلا**)) (١) .

قد تجد فى القرآن حقيقية علمية مفردة ، ولكن هذه الحقيقة تظهر فى الف ثوب ، وتتوزع تحت عناوين شتى ، كما تذوق السكر فى عشرات من الطعوم والفواكه . وهذا التكرار مقصود ، وان لم تزد به الحقيقة العلمية فى مفهومها .

ذلك أن الفرض ليس تقرير الحقيقة فقط ، بل بناء الأفكار والمشاعر عليها ، والتقاط آخر ما تختلقه اللجاجة من شبهات وتعلات ، ثم الكر عليها بالحجج الدامغة ، حتى تبقى النفس وليس امامها مفر من الخضوع للحق والاستكانة لله . وعندى أن قدرا كبيرا من اعجاز القرآن الكريم يرجع الى

(١) الكهف الآية ٥٤

هذا .. فما أظن امرأ سليم الفكر والضمير يتلو القرآن أو يستمع اليه ثم يزعم أنه لم يتأثر به :

قد تقول : ولم يتأثر به ؟ والجواب أنه ما من هاجس يعرض للنفس الانسانية من ناحية الحقائق الدينية ـ الا ويعرض القرآن له بالهداية وسداد التوجيه ..

ما اكثر ما يفر المرء من نفسه ، وما اكثر الذين يمضون فى سبل الحياة هائمين على وجوههم . ما تمسكهم بالدنيا الا ضرورات المادة فحسب .

ان القرآن الكريم بأسلوبه الفريد يرد الصواب الى أولئك جميعا ، وكأنه عرف ضائقة كل ذى ضيق ، وزلة كل ذى زلل ، ثم تكفل بازاحتها كلها ، كما يعرف الراعى أين تاهت خرافه ، فهو يجمعها من هنا وهناك ، لا يغيب عن بصره ولا عن عطفه واحد منها .

وذاك سر التعميم فى قول الله عز وجل :

« ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل » (١) .

حتى الذين يكذبون بالقرآن ويرفضون الاعتراف بأنه من عند الله . انهم يقفون منه مثلما يقف الماجن امام أب ثاكل ، قد لا ينخلع من مجونه الغالب عليه ، ولكنه يؤخذ فترة ما يصدق العاطفة الباكية .

أو مثلما يقف الخلى أمام خطيب يهدر بالصدق ، ويحدث العميان عن اليقين الذى يرى ولا يرون .

انه قد يرجع مستهزئا ، ولكنه يرجع بغير النفس التى جاء بها .

والمنكرون من هذا النوع لا يطعنون فى التأثير النفسانى للقرآن الكريم . كما أن العميان لا يطعنون فى قيمة الأشعة .

ولذا يقول عز وجل :

« الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد » (٢) .

---

(١) الكهف الآية ٥٤
(٢) سورة الزمر الآية ٢٣

وتصريف الأمثال للناس ترديدهم بين صنوف المعانى الرائعة ...

قال العلمـــاء فى شرح الآية : **(ولقد صرفنـــا فى هذا القرآن للناس من كل مثل ...) .**

رددنا وكررنا من كل معنى كالمثل فى غرابته وحسنه ، أوسقنا لهم وجوه العبر والأحكام والوعد والوعيد ، والقصص وغير ذلك .

والمقصود أن القرآن يملك على الانسان نفسه بالوسيلة الوحيـــدة التى تقهر تفوقه فى الجدل ، أى بتقديم الدليل المفحم لكل شبهة ، وتسليط البرهان القاهر على كل حجة .

فالنكوص عن الايمان بعد قراءة القرآن يكون كفرا عن تجاهل لا عن جهل وعن تقصير لا عن قصور ...

والجدل آفة نفسية وعقلية معا ، والنشاط الذهنى للمجادل يمده حراك نفسى خفى قلما يهدأ بسهولة .

وجماهير البشر لديها من اســـباب الجدل ما يفوق الحصر ، ذلك أنهم يرتبطون بما الفوا انفسهم عليه من أديان وآراء ومذاهب ارتباطا شـــديدا ، ويصعب عليهم الاحساس بأنهم وآباءهم كانوا فى ضـــلال — مثلا — فاذا جاءت رسالة عامة تمزق الغشـــاوات عن العيون ، وتكشف للنـــاس مالم يكونوا يعرفون . فلا تستغـــربن ما تلقى من الانـــكار والتوقف ، أو التكـــذيب والمعارضة .

وأسلوب القرآن فى استلال الجفوة من النفس ، والقاء الصواب فى الفكر ، أو فى على الغاية فى هذا المضمار .

ذلك أنه لون حديثه للسامعين تلوينا يمزج بين ايقـــاظ العقل والضمير معا ، ثم تابع سوقه متابعة ان افلت المرء منها أولا لم يفلت آخرا .

كما يصاب الهدف حتما على دقة المرمى ، وموالاة التصويب ...

وذلك هو تصريف الأمثال للناس . انه احاطـة الانســـان بسلسلة من المغريات المنوعة لا معدى له من الركون الى احداها . أو معالجة القلوب المغلقة بمفاتيح شتى لابد أن يستسلم القفل عند واحد منها . وتراكيب القرآن — التى تنتهى حتما بهذه النتيجة — تستحق التأمل الطويل .

ولسنا هنا بصدد الكلام عن بلاغتها ، بل بصدد البحث عن المعـــانى التى تألفت منها ، فكان من اجتماعها هذا الأثر الساحر ... وهاك مثلا من مئات

الأمثلة فى هذا الشأن ترى فيه حديثا عن مظاهر الكون ، ثم ايماء الى مشاهد القيامة ، ثم تحذيرا للانسان من الغفلة ، ثم دفعا قويا الى الطريق السوى لا بد فيه من الجمع بين صلاح العقيدة ، وسلامة الخلق ، وحسن العبادة ، ودقة المعاملة للناس أجمعين .

((كلا والقمر . والليل اذ أدبر . والصبح اذا أسفر . انها لاحدى الكبر . نذيرا للبشر . لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر . كل نفس بما كسبت رهينة . الا أصحاب اليمين . فى جنات يتساءلون . عن المجرمين . ما سلككم فى سقر . قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين . وكنا نخوض مع الخائضين . وكنا نكذب بيوم الدين . حتى أتانا اليقين . فما تنفعهم شفاعة الشافعين)) (١).

اننى أقرأ هذه الآيات فأحس عملها القوى فى أرجاء نفسى ، غير أننى لا أدرى سر هذا العمل القوى !

الكلمات ومعانيها من جنس ما نعرف ، اما آثارها فلسنا نعرف مأتاها ، وان تشبثت بأنفسنا الى أبعد الحدود .

والشىء قد يكون فى احدى حالاته مألوفا لا يثير انتباها ، فاذا أظهر هذا الشىء نفسه فى أوضاع أخرى اكتنفته معان شتى ! !

ألا ترى الزخرفة فى فن الرسم تتكون من (وحدة) معينة ! لو رأيت صورتها مفردة ما لفتت نظرك ، فاذا كررها الرسام بطرق مختلفة برزت معالم الجمال فى أنواع من الزخارف تسحر الألباب .

ثم ان الفك الشىء قد يخفى ما فيه من أسرار ويصرفك عن اكتشافها .

وكثيرا ما تتلو آيات القرآن مثلما تتصفح آلاف الوجوه فى الطريق ملامح تراها قد تكون دميمة ، وقد تكون وسيمة ، تمر أشكالها بالعين ، فما تثبت على احدها الا قليلا وفى ذهول .

لأن المرء مشغول بشأنه الخاص عن دراسة القدرة العليا فى نسج هذه العيون ، وغرس هذه الرءوس ، وصوغ تلك الشفاه ، واحكام ما تنفرج عنه من أسنان ، وما تؤدى اليه من أجهزة دوارة لا تقف لحظة . . . اننا نقرأ القرآن فيحجبنا ابتداء عن رؤية اعجازه . أنه كلام من جنس ما نعرف ، وحروف من جنس ما ننطق ، فنمضى فى القراءة دون حس كامل بالحقيقة الكبيرة .

---

(١) سورة المدثر الآيات ٣٢ ـ ٤٨

الا أن طبيعة هذا القرآن لا تلبث أن تقهر برودة الا لف ، وطول المعرفة ، فاذا كتاب تتعرى أمامه النفوس ، وتنسلخ من تكلفها وتصنعها ، وتنزعج من ذهولها . وركودها ، وتجد نفسها أمام الله جل شأنه يحيط بها ويناقشها ويعلمها ويؤدبها فما تستطيع أمام صوت الحق المستعلن العميق الا أن تخشع وتصيخ .

وكما قهر القرآن نوازع الجدل فى الانسان وسكن لجاجته ، تغلب على مشاعر الملل فيه ، وأمده بنشاط لا ينفد .

والجدل غير الملل ، هذا تحرك ذهنى قد يجسد الأوهام ، ويحولها الى حقائق وذاك موات عاطفى قد يجمد المشاعر ، فما تكاد تتأثر بأخطر الحقائق . وكثير من الناس يصلون فى حياتهم العادية الى هذه المنزلة من الركود العاطفى ، فنجد لديهم برودا غريبا بازاء المثيرات العاصفة لا عن ثبات وجلاده، بل عن موت قلوبهم وشلل حواسهم ... ! ! !

ونحن نعرف هذه الحالة فى طباع الناس ونحاول علاجها بألوان المثيرات التى لا تخطر ببال .

خذ مثلا عاطفة الحب الجنسى . ان هذه العاطفة مع ارتباطها بأعتى الغرائز الانسانية لم تترك للون واحد من المنشطات المادية والأدبية ، بل تسابق الشعراء والمغنون والملحنون والموسيقيون لمداعبة النفس الانسانية بألوان من الغناء واللحن والعزف تفوق الحصر .

فمن لم تعجبه أغنية هاجته أخرى ، ومن استغلق فؤاده أمام لحن انفتح أمام لحن آخر ، ومن طال به الالف فهدا أخترعت له فنون أخرى تثير الهامد من احساسه ، وهكذا . وفى أغلب الآفاق المادية والمعنوية يحسب للملال الانسان وكلاله حساب دقيق ، وتؤخذ الحيطة له كى لا يقف بالمرء فى بدايات الطريق ... ! ! !

والقرآن الكريم فى تحدثه بالنفس الانسانية حارب هذا الملل ، واقصاه عنها اقصاء ، وعمل على تجديد حياتها بين الحين والحين حتى انه ليمكنها أن تستقبل فى كل يوم ميلادا جديدا : ((**وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا**)) (١) .

واحداث الذكر هو تجديد معنويات الانسان كلما صدات على طول التعب ومس الذهول . واسلوب القرآن فى هذا المجال يربى على كل تقدير .

---

(١) سورة طه الآية ١١٣

انه يخترق أسوار الغفلة ويصل الى صميم القلب ، ثم يقفه راغبـــا أو راهبا بازاء ما يريد .

وقد توجد سورة بأكملها حافلة بهذه الاثارات المحركة لوعى الانســان ، المجددة لقواه ومشاعره كلما استرخت وفترت .

وقد تقوم ســور أخرى على طراز من المعـــانى التوجيهية كالتشريعات والأحكام لا صلة لهـــا بانفعالات القلوب ، وذلك لا يغير من الحقيقـــة التى شرحناها . فان شئون المعاملات فى القرآن الكريم تستمد قداســتها وصدق التأثر بها من مقررات العقيدة والتقوى التى غرستها سائر السور والآيات .. والشعور بالرهبة والرقة يغمرك وانت تستمع الى قصص الأولين والآخرين تروى بلسان الحق ، ثم يتبعها فيض من المواعظ والحكم والمغـــازى والعبر تقشعر منه الجلود .

وأقرب الأمثلة لذلك سور الأعراف وهود والشعراء والقصص ... الخ .
والهدف الأهم من وراء هذا السرد المتكرر ليس بيـــان الحق فقط ، بل هو – الى جانب ذلك تعميق مجراه فى القلوب تعميقـــا ينفى ما طبع عليــه الانسان من جدل وملل ...

الاعجـــاز العـلمى

لا سبيل الى معرفة الله عن طريق التأمل فى ذاته فان الوســائل الى ذلك معدومة ، وانما طريق التعرف على الله يبدأ من التأمل فى خلقه .

وعن طريق التفكير السليم فى الحياة والأحيـــاء . واستخلاص المعارف القيمة الخارجة من الأرض او النازلة من السماء ، يمكننا ان ندرك طرفا من عظمة الخالق ، الأعلى وما ينبغى أن يوصف به من كمال ... ! ! !

كيف يعرف روعة القدرة واحاطة العـلم ، ردقة الحكمة وجلال الموجود الكبير ، أمرؤ مغلق الذهن مكفوف البصـــيرة ، يمشى على الأرض كما تمشى السائمة ، لا يستبين من صفحات العـــالم ، ومن قوانين الكهرباء أو أسرار الجاذبية ، أو معالم الجمال ، أو طبائع العمران الا ما تستبينه الدواب ؟ ؟ ؟
انك تنظر الى الآلة الدوارة ، ذات التروس المتراكبة والأذرع المتشـــابكة تتحرك كما أريد لها بسرعة ونظام ، وتؤدى العمل المطلوب منها برقابة واحكام فما تملك نفسك من أن تشهد بحدة الذكاء للذى اخترعها ، ومهارة اليد التى قدرتها ، ثم سيرتها . ونحن كذلك ننظر الى ما بين أيدينا وما خلفنا وما فوقنا

وما تحتنا ، فما نملك أنفسنا من الشهادة لله ــ الذى أبرز ذلك كله من العدم ــ بأنه خلق فسوى ، وقدر فهدى .

وكلما ازدادت معرفتنا بمادة الوجود وسره وانكشفت لنا آياته وخباياه أحسسنا أن عظمة المبدع المجيد فوق ما يطيقه وعينا المحدود وأن التحية التى تقدم لهذا الاله الجليل هى الاعتراف بأن مظاهر وجوده بهرت كما يبهر السنا المتألق عيون الناظرين ! ! !

ان درسا فى الطبيعة والكيمياء هو صلاة خاشعة . وان سياحة فى علم الأفلاك هى تسبيح وتحميد . وان جولة فى الحقول الناضرة ، والحدائق الزاهرة أو جولة مثلها فى المصانع الطافحة بالحركة ، المائجة بالوقود والانتاج هى صلة حسنة بالله ، ذلك لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . . وقد كنت أهش لحصص العلوم الكونية يوم كنا نتلقى دروسها فى مرحلة التعليم الثانوى .

وكانت حصيلتنا من هذه الدراسات حسنة ، أو هى على الأقل مهاد يستطيع طالب المزيد أن يبنى عليه . . . ثم عرفت أن لجنة لتعديل المناهج فى الجامع الأزهر طوحت بنصف هذه الدراسات ، وردت أكثر الباقى الى مرحلة التعليم الابتدائى .

وحجتها فسح المجال لعلوم اللغة والشريعة .

وهذا عمل طائش ، والحجة فيه داحضة ، فان العلوم الكونية من صميم المعارف الاسلامية ، بل هى أولى بالله وبدينه من أكثر العلوم المنسوبة الى الاسلام الآن .

والحقيقة ان هذا التصرف عودة الى المعصية التى ارتكبها المفكرون الاسلاميون عندما ذهلوا عن البحث فى المادة ، وانشغلو بالبحث فيما وراءها . فرجعوا بعد عدة قرون من هذا الشطط وأيديهم صفر . فلا هم فهموا المادة وانتفعوا بعلومها المتاحة . ولا هم الذين اخترقوا أسوار الغيوب ، وعرفوا كنه ما وراء الطبيعة .

بل ابت أيديهم عادت صفرا ، لقد عادت وملؤها الوهم من فلسفات النظر الفاشل ، والتفكير المريض . . . ان كل توهين للدراسات المادية هو مشاقة واضحة لآيات النظر والتدبر الواردة فى القرآن الكريم ــ وما أكثرها ــ .

وما نغالى اذا قلنا : انها حكم بالاعدام على هذه الآيات ثم اقامة مجتمع ساذج ، أو مستغل . أو بليد بين أرض وسماء حافلتين بالنور والقوة . . .

ان الله الذى أنزل الاسلام ، وأتم به النعمة ، جعل ملاك فقهه وقيام أمره على ذلك العقـــل .

وان الله الذى أبدع هذا العالم لم يلق مفاتيح ابداعه للبـــله والحمقى ، وانما ألقاها للعالمين الأذكياء . ولم يتح تسخيرها للمفرطين العاجزين ، وانما اتاحها لأولى العزم الاقوياء . . ! !

والتطابق بين الكون الممهد ، وبين العقل الواعى كالتطـــــابق بين الحق وغطائه . . .

فاذا لم يستفق العقل ويؤد رســالته ، انفصمت العلائق بينه وبين هذا العالم ، وبالتالى وهت صلته بالله ، وانحسرت دون مداها .

فمن أين تتأتى معرفة الله على وجه مستكمل جميل الا عن طريق امعــان النظر فى ملكوت الله ، ومطالعة روائعه بين الحين والحين ؟؟

واذا كان ذلك طريق ابتداء المعرفة ، فهو كذلك طريق مضاعفتها .

ولا يصدنك عن هذا الحق أن هناك علمـــاء بالكون يجهلون ربهم ، فان أسباب جهلهم أو جحدهم لا تنبعث من هذه الدراسات .

واذا وجدنا من يقرأ الكتاب العزيز ويكفر به فليس كفرانه آتيا من قبل قراءته ، وما يجرؤ مســـلم على تحريم القراءة لأن بعض المعلولين لم يحسن الافادة منها . كذلك لا يقبل من أحـــد أبدا أن يغض من شـــأن الدراسات الكونية ، لأنها لم تهد بعض الملحدين الى رب العالمين .

وليس ثمة تفاوت بين العلم والدين ، فان الله الحق هو مصـــدر الاثنين ، واذا لوحظ أن هناك اختلافا فليس بين علم ودين ، بل بين دين وجهل اخـذ سمة العلم ، أو بين علم ولغو لبس سمت الدين .

وسترى أن القرآن الكريم مستقيم كل الاستقامة مع كل الكشوف التى يميط العلم عنها الستار ، وذلك لا ريب من دلائل صدقه وآيات اعجازه فان راكب الناقة ابن الصحراء ــ الذى لم يعل اللجج يوما أو يكابد الأنواء ــ حين يجىء على لسانه وصف علمى دقيق للبحر والجو ، نجزم بأن هــذا الوصف ليس من عنده ، بل من عند عالم الغيب والشهادة .

هب أن فلاحا من اغمار الصعيد كتب وصفا لرحلة جوية بين شـــاطىء المحيطين ، ذكر فيها انباء لا تعرفها الا ادق المراصد ، وأحوالا ما يتبينها الا أذكى الطيارين . أتحسب أحدا يصدق بأنه قال ذلك من عند نفسه . . وقبل

أن نذكر نماذج للرد المحكم الذى أفرغ القرآن فيه أوصاف الكون ، ومشاهد الطبيعة ، وقوى العالم نحب أن نذكر طبيعة الصلة بين العلم والدين أو بين آيات الله فى كتابه الكريم وآياته فى هذا الكون العظيم ... وذلك نقلا عن كتاب (سنن الله الكونية) للدكتور العالم محمد أحمد الغمراوى ...

قال : بعد شرح المسالك التى يتأوى بها العلم الى نتائجه :ـ

رأيت مثلا من طريقة العلم فى تعرف أسرار الفطرة والاهتداء الى سنن الله فى الكون ـ وتبينت كيف أن هذه الطريقة تضمن الوصول الى الحق فى القريب أو البعيد ، وان استعانت على ذلك بفرض الفروض لكن لا خوف قط على الحقيقة من هذه الفروض ما دام العلم يطبق فروضه على الواقع ويمحصها بالتجربة والاختبار .

فهذه الطريقة فى الواقع هى طريقة العلم فى الاجتهاد ، وبينها وبين طريقة اجتهاد المجتهدين فى الدين وجه شبه مهم هو :

ان رجال العلم يستوحون الحقيقة من صنع الله ، ورجال الدين يستوحون الحقيقة من كلام الله وحديث رسوله . فكل فى الحقيقة مرجعه الى الله ، وان لم يصل رجال العلم بعد الى الله . وكل فى حكم الدين نفسه مرجعه الى الله ، اذ أن هذه الحقائق الطبيعية التى يكشف عنها العلم ببحوثه ان هى الا نوع من كلمات الله ، أو هى كلمات الله الواقعة النافذة كما أن آيات القرآن هى كلمات الله الصادقة المنزلة .

ولقد سمى القرآن حقائق أسرار الخلق كلمات الله فى مثل قوله تعالى :

« ولو انما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » (١) .

« قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا » (٢) .

وكلمات الله فى هاتين الآيتين الكريمتين لا يمكن أن تكون كلماته المنزلة على رسله لأن كلماته سبحانه فى كتبه المنزلة محصورة محدودة فى حين أن كلماته المشار اليها فى هاتين الآيتين لا حصر لها ولا نهاية .

---

(١) سورة لقمان ٢٧

(٢) سورة الكهف الآية ١٠٩

فلا بد أن تكون هى كلماته النافذة فى خلقه والتى يبدو أثرها متجسما فيما يشاهد من الحوادث وفيما يكشف العلم من أسرار الكون .

فالاسلام متسع للعلم كله : حقائقه وفروضه والمجتهد مثاب اخطأ أم أصاب ، ما دام يرد وجه الحق ، وان كان العلم لا يعرف الى الآن : ان سبيل الحق من سبيل الله . .

ما مظهر الوفاق بين آيات القرآن وأسرار الكون التى أطلعنا العلم عليها فى هذا الزمان ؟ وأين مصداق ما تلاه محمد على الناس منذ أربعة عشر قرنا فكان سبقه به دليلا على انه لا ينطق عن الهوى . أن هو الا وحى ويوحى ؟ لقد ذكر الدكتور العالم أمثلة شتى تلمحها وهو يصف بدقة حقائق الطبيعة . ثم يسوق بعدها الآيات القرآنية فاذا هى منطوية على هذه الأوصاف أو متجاوبة معها . . .

وكما سخر الله سبحانه الجاذبية للانسان فى اجراء الأنهار تسير الهوينى أو غير الهوينى الى سطح البحر ، سخرها له أيضا فى كبح جماح البحر ، ومنعه ان يطغى بمائه الاجاج على النهر أو على اليابسة فهى دائما تحبسه فى مستقره الذى هو اقرب مواطن سطح الأرض الى مركز الأرض فالبحر لا يستطيع أن يفارق مستقره ذلك الا بقوة اخرى تغلب قوة الجاذبية وهيهات . فكأنما البحر ملجم بالجاذبية أن يهجم على اليابسة من الأرض ، كلما هم بالهجوم بفعل المد أو الريح ، أو حركة الأرض ، جذبته قدرة الله بلجام الجاذبية من خلف فيعود الى موطنه الذى كتب عليه أن يبقى مقيدا فيه ، ولقد من الله سبحانه على الانسان بهذا حين من عليه بحجزه بين البحرين أو بين البحر والنهر . فى قوله :

« وهو الذى مرج البحرين ، هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا » (١) .

وليس ذلك البرزخ – والله أعلم – الا ارتفاع ما بين سطح البحر وسطح اليابسة التى يجرى فيها النهر . وليس كذلك الحجر المحجور – والله أعلم – الا الجاذبية بين البحر ومركز الأرض وحبسها البحر فى موطنه . ولقد من الله على الانسان بذلك مرة اخرى ، وعاب عليه وعجب منه كيف يشرك مع الله الها آخر رغم ذلك الابداع فى قوله سبحانه :

(١) سورة الفرقان الآية ٥٣

« أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزا ؟ إإله مع الله ؟ بل اكثرهم لا يعلمون » (١) .

فتفهم هذه الآية الكريمة فى ضوء ما ذكرناه لك وتأمل تعقيبه سبحانه بقوله : (**بل أكثرهم لا يعلمون**) تعلم ان ذلك العلم من هذا الدين ، وان هذا القرآن لم يأت الا من خالق الفطرة ، وانه لا غنى للمسلم عن علم الفطرة ان كان يريد حقا أن يفهم شيئا من سر الآيات الكونية فى القرآن .

اهمية الجاذبية فى السماء :

على أن اهمية الجاذبية هى أعظم من هذا بكثير ، فان الجاذبية كما قد عرفنا ليست بين الأرض وما عليها فقط . بل بين الأرض وما عداها من الكواكب ثم هى أيضا بين كل كوكب وما عدا . .

فكل كوكب فى ملكوت الله يجذب كل كوكب آخر طبق سنة الجاذبية السابق ذكرها . أى بقوة تتناسب مع حاصل ضرب كتلتى الكوكبين مقسوما على مربع المسافة بينهما ، وناتج كل هذه القوى الواقعة على الكوكب قوة واحدة يمسكه الله بها فى مداره أو فلكه . أو فى موقعه الذى هو فيه اذا كان النجم من الثوابت

فالجاذبية اذن على قدر علم الانسان الى الآن هى القوة التى قدرها لها ، أو هذا ان شئت هو ما أدركه الانسان الى الآن من سر قوله تعالى :

« ان الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا ان امسكهما من أحد من بعده (٢) » ، وفى قوله تعالى : **« الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها »** (٣) وما يشبهها من آيات القرآن الكريم ، اشارة الى قوى الجاذبية الخافية التى هى بعد تقدير الله لها سبب بقاء اجرام السماء فى أماكنها . ومداراتها المقدرة لها فانه اذا فهم من قوله تعالى : (**بغير عمد ترونها**) أن السموات مرفوعة بعمد غير مرئية — كما هو ظاهر الآية — كانت تلك العمد غير المرئية هى قوى الجاذبية بين بعض الكواكب وبعض . لأن العمد المعروفة المادية تؤثر اثرها ، وتحمل أحمالها ، بارساء قوى ، أو ضغوط تساوى وتضاد ضغوط الأبنية عليها كما هو صريح علم القوى . وكما يحصل بالضبط بين الكواكب المتجاذبة .

---

(١) النمل الآية ٦١
(٢) فاطر الآية ٤١
(٣) الرعد الآية ٢

القسم الثانى

التفســـــير

((تفسير سورة الرعد))

المجموعة الأولى

كتب هذا القسم الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميدانى

بسم الله الرحمن الرحيم

المر تلك ءايت الكتب والذى أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر
الناس لا يؤمنون (1) الله الذى رفع السموت بغير عمد ترونها ثم استوى
على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل
الآيت لعلكم بلقاء ربكم توقنون (2) وهو الذى مد الأرض وجعل فيها
روسى وأنهرا ومن كل الثمرت جعل فيها زوجين اثنين يغشى اليل النهار
إن فى ذلك لآيت لقوم يتفكرون (3) وفى الأرض قطع متجورت وجنت
من أعنب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء وحد ونفضل بعضها على
بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيت لقوم يعقلون (4) * وإن تعجب فعجب
قولهم أءذا كنا تربا أءنا لفى خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلل
فى أعناقهم وأولئك أصحب النار هم فيها خلدون (5) ويستعجلونك
بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلت وإن ربك لذو مغفرة
للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب (6) ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه
ءاية من ربه إنما أنت منذر ولكل قوم هاد (7) الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما
تغيض الأرحام وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار (8) علم الغيب والشهدة
الكبير المتعال (9) سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف
باليل وسارب بالنهار (10) له معقبت من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من
أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا
فلا مرد له وما لهم من دونه من وال (11)

التفسير

النص :

قال الله تعالى : ((**المر**))

تتلى هذه الحروف بأسمائها ساكنة **(الف ــ لام ــ ميم ــ را)**

(أ) الشرح :

أطال الباحثون الكلام حول الحروف المقطعة التى افتتح الله بها أوائل طائفة من سور القرآن الكريم ، وقبل أن نعرض الى أظهر الوجوه التى ذكروها ، لابد من أن نقدم بين يديها أن العرب الذين عاصروا صدر الرسالة ، ونزل القرآن بلغتهم ــ وفيهم المعارضون المعاندون الذين كانوا يجهدون باحثين لعلهم يظفرون فى القرآن بمطعن للتشهير به واتخاذه مادة لنقده بها ــ لم يجدوا فى هذه الحروف المقطعة ما به ينتقدون او يشهرون ، الأمر الذى يدل على أن افتتاح الكلام بأمثالها لا ينبو عن أساليبهم وعن أصول لغتهم ومن اجل ذلك لم يثيروا حولها نقدا ولا تساؤلا ، مع العلم بأن كل السور التى افتتحت بها مكية . الا سورتى البقرة وآل عمران .

اذن فما المراد منها ؟

اليك طائفة من الوجوه التى يصلح كل منهــا أن يكون مرادا والله أعلم بمراده منها :

١ ــ الحروف المقطعة فى أوائل السور بمثابة أدوات التنبيه .

بيان ذلك .

من المعروف أن من أساليب العرب أن يفتتحوا كلامهم بشىء من أدوات التنبيه ، والغرض منها اثارة انتباه السامع الى ما يراد القاؤه اليه .

ويبدو لى أن استعمال حروف لم تجر العادة باستعمالها لغرض التنبيه أكثر لفتا للنظر واثارة للانتباه مما جرت العادة باستعماله ، وذلك أن المألوف على السمع يمر دون أن يحرك فى النفس ساكنا ، أو يوقظ فى الفكر نائما ، أو ينبه به غافلا ، فاذا طرق السمع جديد غير مألوف تحرك الساكن وتنبه الغافل واستيقظ النائم ، ومثل هذا يجرى دائما فى أساليب الكلام ، وفى مختلف وسائل التنبيه ، فربما تنبه مخاطبك بحرف ما اعتدت أن تنبهه به ، وذلك لتستدعى ذهنه من شرود ، وربما تنبهه بنقرة أو بتصفيق أو بغير ذلك مما فيه حادثة صوت سريعة متقطعة أو متتابعة تتابعا يسيرا ثم تنقطع دون استرسال طويل .

اذا عرفنا هــذا ثم تأملنا فى الحروف المقطعة فى أوائل بعض الســور وجدنا فيها من تحقيق التنبيه التام مالا مزيد عليه ، مع ادب فى الوسيلة تناسب بلاغة القرآن واعجازه ، وذلك باستعمال أسماء الحروف الهجائية التى هى أول ما يتعلمه المتعلمون من القراءة والكتابة وفى هذا اشارة لهم بأنهم بعيدون جدا عن آفاق العلم والمعرفة وعليهم أن يسيروا فى طريق التعلم ولو من نقطة الصفر ثم ليذهبوا صاعدين فى سلم مجد الانسان .

٢ ــ تشير الحروف المقطعة فى أوائل بعض السور الى ما تضمنه القرآن العظيم من تحد للأتيان بمثله أو بمثل سورة منه .

بيان ذلك .

لقد تحدى الله الناس أن يخلقوا حيوانا ، أن يخلقوا ذبابا ، وان المادة التى خلق منها كل حيوان فى الأرض معروضةامامهم ، مبذولة لهم فى متناول أيديهم ، انها عناصر الأرض ، تراب وماء ، ومع أن المادة بين ايديهم فانهم عاجزون عن خلق أى شيء صغيرا كان أو كبيرا .

وعلى مثل هذا تحدى الله الناس أن يأتوا بمثل هذا القرآن مع أن مادة القرآن التى ألفت منه آياته وسوره انما هو الكلام العربى الذى يستعملونه دائما فى تخاطبهم وفى أدبهم شعرا ونثرا ، ويتفاخرون ببلاغتهم فيه على سائر الأمم ، وهذا الكلام العربى معروض امامهم فى متناول نطقهم وكتاباتهم .

وحروف التهجى العربية تمثل المادة الأولى لهذا الكلام ، واطلاق حروف التهجى لأية لغة من اللغات هو بمثابة العنوان لهذه اللغة من جهة ، والاشارة الى مادتها من جهة أخرى فمن ينكر أن هذا القرآن كلام الله المنزل فليأت بمثله وهذه مادة جمله وتراكيبه الكلامية معروضة امامه فى اللغة العربية ، وعنوان هذه اللغة أسماء حروف التهجى الموضوعة فيها الحروف التى تنطق فى بناء الكلمات والتى منها على سبيل المثال (**الف ــ لام ــ ميم ــ را**) .

ويقرب هذا المعنى أن معظم السور التى افتتحت بالحــروف المقطعة ابتدأت بالكلام على القرآن العظيم .

٣ ــ الحروف المقطعة فى أوائل بعض السور هى أسماء لها .
ذكر هذا الوجه أكثر المتكلمين واختاره الخليل وسيبويه .

٤ ــ هى حروف مأخوذة من كلمات على طريقة العرب فى ذكر حرف من كلمــة ، وهم يريدونها كقولهم : قلت لها : قفى ، فقالت : قاف ، أى وقفت .

وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنه تأويلات لبعض هذه الحروف من هذا القبيل : معنى (ألم) أنا الله أعلم ، ومعنى (ألر) أنا الله أرى ، ومعنى (المر) أنا الله أعلم وأرى .

هذا : وأكثر السلف على أن هذه الحروف مما استأثر الله بعلمه وأنها سر القرآن .

روى عن أبى بكر رضى الله عنه أنه قال فى كل كتاب سر وسر الله فى القرآن أوائل السور .

وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجى .

وروى مثل ذلك عن الشعبى من التابعين ، والله أعلم .

النص

قال الله تعالى :

« تلك آيات الكتاب والذى أنزل اليك من ربك الحق ولكن أكثر النــاس لا يؤمنون » .

(أ) اللغة والمعنى المراد :

١ ــ **(تلك)** : اسم اشارة يشار به الى البعيد .

٢ ــ **(آيات)** : جمع آية ، وأصل الآية فى اللغة العلامة الظاهرة الدالة على شيء غير ظاهر ومنه قوله تعالى : **« أتبنون بكل ريع آية تعبثون ؟ »** (١) مستنكرا عليهم أن يبنوا فى كل مكان مرتفع مبانى عالية لا فائدة لهم فيها الا أن تكون علامات غرضهم منها التباهى والتفاخر . ثم عممت الآية على كل دليل حسى أو عقلى . وتطلق أيضا على المعجزة لأنها علامة يجريها الله على يد رسوله لتدل على صدق دعوته ، وأنه حقا يبلغ عن ربه .

والآية من القرآن تطلق فى الاصطلاح الشرعى على كل جملة منه دالة على معنى تام ، والفواصل بين كل آية وأخرى منه ثابتة بالنقل .

٣ ــ **(الكتاب)** : لغة مصدر كتب كالكتب ، وأصل الكتب ضم أديم الى أديم بالخياطة واستعمل عرفا فى ضم الحروف بعضها الى بعض .

---

(١) الشعراء الآية ١٢٨

والكتاب شرعا : كلام من كلام الله يوحى الله به الى رسول من رسله ليبلغه للناس ، ويطلق اسم الكتاب شرعا على ما يشمل الصحف والألواح وجميع أنواع الوحى اللفظى او الكتابى ، التى ينزلها الله على أى رسول من رسله ليبلغها للناس .

والمراد من الكتاب هنا السورة التى نحن بصددها أو القرآن كله ولام التعريف فيه للعهد أو للكمال ، أى الكتاب المعهود أو الكتاب العظيم الكامل .

٤ ـ **(الحق)** : ضد الباطل ، وأصل الحق المطابقة والموافقة للواقع أو لما ينبغى أن يكون من اعتقاد أو قول أو فعل ، فالاعتقاد الحق هو الاعتقاد المطابق للواقع ، والقول الحق هو القول الصادق الثابت الموافق للواقع ، والفعل الحق هو الفعل المطابق لما ينبغى أن يكون ، وذلك بحسب ما تقتضيه حكمة الحكيم المطابقة للكمال والابداع ، والحق يلازمه دائما معنى الثبوت والاستقرار .

٥ ـ **(لا يؤمنون)** : الايمان لغة مصدر آمن يؤمن ايمانا فهو مؤمن . جاء فى لسان العرب : اتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الايمان معناه التصديق .

والايمان شرعا : هو التصديق فى القلب لكل ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(ب) معنى الآية نصا واقتضاء :

(المر) : هذه الآيات التاليات من هذه السورة هى آيات عظيمة ذات شأن رفيع من الكتاب الكامل وهو القرآن أو ذات شأن رفيع يجعلها مستحقة لأن يطلق عليها أنها كتاب كامل منزل من عند الله تعالى ، وعلو شأنها وكمالها آتيان من كونها حقا فى مبانيها وفى معانيها ولكنها ليست وحدها هى الحق فهى جزء من كل ، وجميع ما أنزل اليك من ربك هو الحق اما ما يناقضه فهو باطل ، ومن الحق أن يؤمن به العقلاء المنصفون وقد أوتى الناس عقلا ولكن أكثرهم لا يؤمنون بهذا الحق الذى أنزل اليك ، كما يظهر من واقع حالهم ، فما السبب ؟ ..

اذا كان الباعث لهم على عدم الايمان هو جهالتهم فستأتيهم بالأدلة تلو الأدلة ليعرفوا الحق مقترنا بالدليل ، لأن واقعهم والحالة هذه يستدعى لفت نظرهم الى الحق بمختلف الأدلة التى تدفع الشبهات عن نفوسهم ، كما يستدعى تبصيرهم بصورة هذا الحق لكيلا يكون لهم عذر يعتذرون به .

النص

قال الله تعالى :

« الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر . كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » .

١ ـ اللغة والمعنى المراد :

١ ـ **(السماوات)** : جمع سماء والسماء فى اللغة مشتقة من السمو الذى هو العلو ، فكل ما علا على شىء وسما عليه فهو سماء ، وسماء كل شىء أعــلاه .

والسماوات السبع مخلوقات عظيمة لله تعالى كائنة فى جهة السمو والعلو عن الأرض هذه الأرض التى خلقها الله وجعلها مسكنا للجن والانس وما سخر لهما من دابة .

ولم يأتنا عن الشارع يقين قاطع يبين لنا حقيقة السماوات السبع المرادة فى النصوص التى نوهت بها ، فليس لنا أن نقطع بصورة ما عن تكوينها أو ابعادها ، الا أن يأتينا يقين علمى بذلك ، وفق أصول البحث العلمى السليم .

ولفظ السماء المقــابل للأرض مؤنث ، قال تعالى : **« اذا السمــاء انشقت »** (١) وقد يذكر ومنه قوله تعالى : **« السماء منفطر به »** (٢) .

٢ ـ **(عمد)** : بفتحتين اسم جمع مفرده عمود وعماد ، والجمع أعمدة وعمد بضمتين ، والعمود الخشبة القائمة فى وسط الخباء تعتمد عليها الخيمة، وكذلك كل شىء نحوها مما يعتمد عليه .

٣ ـ **(استوى)** : أصل الاستواء الاعتدال ، فاذا عدى بعلى تضمن معنى الاستعلاء ، واذا عدى بالى تضمن معنى الانتهاء الى الشىء الذى حصل الاستواء اليه .

٤ ـ **(سخر)** : التسخير السوق بالفطرة والطبع ، أو بالغلبة والقهر ، او بالتكليف والأمر ، الى الغرض الذى أراده المسخر .

---

(١) الانشقاق الآية ١

(٢) المزمل الآية ١٨

٥ – **(كل يجرى)** : أى كل من الشمس والقمر يسير فى فلكه بقدر الله وبقدرته ضمن ما رسم لهما من خطة سير .

٦ – **(لأجل مسمى)** : الأجل المدة المقدرة للشيء ، و **(مسمى)** أى معلوم مبين محدد فى علم الله تعالى .

٧ – **(يدبر الأمر)** : أى يصرفه بحكمته على أتم وجه وأكمله ، وأصل التدبير التفكير فى دبر الأمور ، والذى يفكر فى دبر الأمور قبل البدء بأوائلها وأثناء التصرف لا بد أن يحكم التصرف فيها احكاما تاما .

٨ – **(يفصل الآيات)** : أى يبين الآيات الدالة على كمال قدرته ، وأصل التفصيل ابانة الأشياء بعضها عن بعض حتى يمتاز كل منها عن الآخر .

٩ – **(لعلكم بلقاء ربكم توقنون)** :

(لعل) : أصل معنى لعل الترجى اى ترقب أمر محبوب ولكن لما كان الترقب الحقيقى لا يليق نسبته الى الخالق جل وعلا لأن الله عليم بكل شيء ما كان وما هو كائن وما سيكون كان لابد من حمل الرجاء فى معناه على ما يستلزمه الرجاء من محبة الأمر المرجو .

واليقين : مرتبة عالية من مراتب العلم فوق مرتبة المعرفة والدراية ، وهو يتضمن التحقق التام مع طمأنينة القلب .

المعنى المراد : فيكون المعنى المراد : يفصل الآيات وهو يحب لكم أن تؤمنوا بلقاء ربكم اذ يحييكم مرة ثانية ويبعثكم بعد الموت للحساب والجزاء .

(ب) معنى الآية (٢) نصا واقتضاء :

هذا عرض لطائفة من الأدلة الدالة على قدرة الله العظيمة ، وتدبيره الدائم لكل أمر وتفصيله الآيات الدالة على وجوده وقدرته وعدله ابتغاء أن تصلوا منها الى يقين لا يخامره شك ولا توهم بلقاء الله ليقيم فيكم عدله ويمنح مستحقيكم فضله .

توجهوا بأنظاركم شطر الآفاق العلوية ، هذه السماوات العظيمة ، هذه المرفوعات الكبيرة التى تكبر عن احاطة بصركم وتعظم عن احاطة تصوراتكم !

الله وحده هو الذى رفعها بغير عمد تعتمد عليه ، وفى هذا تنزل فى الخطاب الى مستوى تصوراتهم ، فاذا كان يسيرا عليهم أن يقبلوا رفعها بعمد فالله قد رفعها بغير عمد ، والا فرفعها بعمد أو بغير عمد سواء عند قدرة الخالق جل وعلا ، ولئن رفعت بعمد فالعمد على أى شيء تعتمد ؟ .

هذه السماوات العظيمة تستدعى أنظار المتأملين للتفكر فى بديع نظامها ومتقن حركات نجومها وكواكبها ، وجليل صنعها . وهذه أبصاركم تمتد الى شيء من آفاقها فأنتم ترونها ؛ وهناك فى البعيد السحيق عنكم حيث لا تمتد أبصاركم مخلوق أعظم من السماوات ، انه العرش ، لقد استوى عليه الله بعد أن رفع السماوات ، فأحكم نظامه ، وأعظم خلقه وأبدعه . ولئن كان خلق السماوات على عظمتها وسعة أبعادها وكثرة ما فيها من مخلوقات كبرى لم تستدع من الخالق أكثر من عملية رفع ، فأى شيء عظيم ذلك العرش الذى استحق أن يستوى عليه الرحمن ؟ !

عودوا الى الآفاق القريبـــة منكم الا ترون أن فى السماء ما هو مسخر لكم وأنتم فى الأرض ؟ هذان مخلوقان كبيران هما الشمس والقمر مسخران تسخيرا عجيبا ؛ وفى تسخيرهما منافع كبيرة لكم . فمن الذى سخرهما وربط وجودها وجريانهما بغاية ؛ وأقت لجرى كل منهما اجلا مسمى ؟ انه الله وحده الذى لا رب غيره ولا اله الا هو . فكل ما فى الكون من خلقه ، وما يتحرك من شيء فيه الا بتدبيره ، وما يسكن من شيء الا بتدبيره .

تأملوا تعلموا أن رفع السماوات وتنظيم مسيرة أجرامها باستمرار تنظيما دقيقا بالغ الروعة ؛ فهى لا تنحرف عن خطوط سيرها ومداراتها قيد شعرة ولو لبثت تسير ما لا حصر له من السنين ان ذلك لا يتم الا بتدبير .

الاستواء على العرش الذى هو أكبر وأعظم من السموات لا يتم الا بتدبير .

تسخير الشمس والقمر وجريهما لأجل مسمى وهما من السماوات لا يتم الا بتدبير .

فمن الذى يدبر الأمر فى كل ذلك باستمرار ؟ .

انه الله الذى يدبر الأمر كله صغر أم كبر جل أم حقر .

فالسماوات بوجه عام والعرش فى البعيد السحيق والشمس والقمر بوجه خاص لقربهما منكم وتسخيرها لكم ومخلوقات اخرى كثيرة صغيرة وكبيرة لا تستطيعون حصرها ، كل ذلك آيات مفصلات بينات ، كل آية منها متميزة عن أختها بوضوح وجلاء . فمن الذى يفصلها ؟ ولماذا هذا التفصيل فيها ؟ .
انه الله الذى يفصل الآيات رغبة أن تهتدوا فتؤمنوا بقدرته ، وعظيم عدله، وصدق وعيده فتوقنوا بلقائه لمحاسبتكم على أعمالكم ومجازاتكم عليها بالعدل أو بالفضل .

النص

قال الله تعالى :

« وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسى وانهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من اعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الاكل ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

أ) اللغة والمعنى المراد :

١ — **(مد الارض)** : أى جعلها ذات امتداد فى بعدين متقابلين منها كتمدد السقاء (١) ويقولون تمدد الرجل اذا تمطى وتطاول واصل المد فى اللغة الجذب .

أو مدها بالخيرات والمعادن ومواد الخصب اذ تقول لغة : مددت الأرض مدا اذا زدت فيها ترابا او سمادا من غيرها ليكون أعمر لها واكثر ريعا لزرعها ، ويقال للرمال والسماد : مداد الأرض .

٢ — **(جعل فيها رواسى)** : اى وخلق فى الارض جبالا ثوابت رواسخ .

جعل : تستعمل بمعنى وضع ، وبمعنى صنع ، وبمعنى صير ، وبمعنى خلق كما تستعمل فى غير ذلك من المعانى ، والمناسب منها هنا أن تكون بمعنى خلق والخلق يتضمن فى الحقيقة معانى الوضع والصنع والتصيير .

(الرواسى) : من الجبال الثوابت الرواسخ ، يقال فى اللغة رسا الجبل يرسو اذا ثبت أصله فى الأرض . ورواسى فى الاصل صفة لموصوف محذوف هى الجبال ولكثرة استعمالها صفة للجبال استغنى عن ذكر الموصوف ونزلت الصفة منزلته فى أصل الدلالة مع زيادة معنى الثبوت والرسوخ . وقد جاء التصريح فى غير هذه الآية بالفائدة من جعل الجبال فى الأرض ، وذلك فى قوله تعالى : **(رواسى أن تميد بكم)** أى لئلا تميد الأرض بكم وقد اثبتت العلوم الحديثة هذه الفائدة الكبرى من فوائد الجبال فى الارض ولما كانت فوائد الجبال لا تنحصر بهذه الفائدة ذكرت فى آية ولم تذكر فى آيات اخرى .

---

(١) السقاء : ظرف الماء المتخذ من الجلد وهو ما يسمى بالقربة وقيل السقاء القربة للماء واللبن .

٣ ـ **(وانهارا)** : جمع نهر وهو المجرى الواسع من مجـارى الماء واصـله الاتساع ومنه النهار لاتساع ضيائه اى وانهارا تجرى فيها المياه .

٤ ـ **(ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) :**

اى وجعل فى الأرض من جميع أصناف الثمرات زوجين اثنين ذكرا وانثى .

وقد اثبت العلم حديثا أن كل شجر وزرع لا يتولد ثمره وحبه الا من زوجين اثنين ذكر وانثى والزوج المذكر قد يكون مع الزوج المؤنث فى شجرة واحدة كأغلب الأشجار ، وقد يكون الزوج المذكر فى شجرة والزوج المؤنث فى شجرة أخـرى كالنخل ، وما كان الزوجـان منـه فى شجرة واحدة فاما ان يكونا معا فى زهرة واحدة كالقطن ، واما ان يكون كل واحد منهما فى زهرة كالقرع .

(الثمرات) : جمع ثمرة ، وهى ما تنتجه الأشجار .

(زوجين) : يقال لكل واحد من القرينين المتشابهين أو المتضادين زوج .

(اثنين) : تأكيد للزوجين ، والغرض منه مع العـلم به من تثنية الزوجين دفع توهم ان المراد بالزوجين ازدواج الأصناف عند بدء الخلق وانه خلق من كل صنف منها افرادا كثيرة ، منها الذكر ومنها الأنثى فبين بقوله : **(اثنين)** انه عند بدء الخلق خلق من كل صنف اثنين فقط احدهما ذكر والآخر انثى ثم تكاثر الزوجان من الثمرات كما تكاثر الانسان وسائر الحيوانات .

٥ ـ **(يغشى الليل النهار) :**

اغشى يغشى اذا غطى والبس اى يجعل الليل لباس النهار وبجعل النهار لباس الليل فنصب بيغشى مفعولين يصلح كل منهما أن يكون ساترا ومستورا .

والمعنى يلبس النهار ظلمة الليل فيصير الجو مظلما ، وكذلك يلبس الليل ضياء النهار فيصير الجو مضيئا .

وفى هذا الاستعمال مجاز مرسل والأصل يغشى الليل مكان النهار ويغشى النهار مكان الليل فحذف المكان ووضع الحال فيه محله لأنه لا يجتمع الظلام والنور فى شىء واحد حتى يغشى احدهما الآخر فمتى

حل النور اسمى الظلام ومنى ذهب النور حل الظلام .

ويحتطر لى أنه لا مانع من أن يكون يغشى الليل بمعنى يغطى الليل ويستره ويكون لفظ النهار معطوفا على الليل وحرف العطف محذوف وحسن حذف حرف العطف أن النهار والليل لا يجتمعان وكأنه قال يغشى الليل ويغشى النهار ، قياسا على ما ذكره ابن هشام فى مغنى اللبيب حكاية عن ابى زيد (**اكلت خبزا لحما تمرا**) قال : قد خرج على ذلك آيات احداها (**وجوه يومئذ ناعمة**) اى ووجوه عطف على (**وجوه يومئذ خاشعة**) (١).

٦ — (**يتفكرون**) : اى يعملون قوى الفهم فيهم فى البحث والتأمل والنظر فى الأمور للوصول الى الحقيقة .

٧ — (**قطع متجاورات**) : اى بقاع مختلفة فى الصفات والألوان والخصائص مع كونها متقاربات متلاصقات .

٨ — (**وجنات**) : جمع جنة وهى كل بستان ذى شجر يستتر باشجاره الأرض .

واصل الجن الستر ومنه جن الليل ، ومنه ايضا الجنان والمجن والجنين والجنون ...

٩ — (**ونخيل صنوان وغير صنوان**) :

(**صنوان**) : جمع مفرده صنو ، مثل قنو وقنوان ، والصنو هو الغصن الخارج عن أصل الشجرة ، ويثنى ويجمع على صنوان بكسر الصاد وضمها . وفى الحديث عم الرجل صنو أبيه ، قال أبو عبيد معناه أن أصلهما واحد .

١٠ — (**فى الأكل**) بضم الكاف وسكونها ما يؤكل ، واكل الشجرة جناها الذى يؤكل .

١١ — (**يعقلون**) : اى يستعملون عقولهم التى وهبهم الله اياها فيما خلقت له من التأمل والبحث عن حقائق الأمور ، ومن عقل النفس عن أهوائها وحبسها عن أن تنزلق الى ما فيه سوء عاقبتها .

(ب) معنى الآيتين (٣) ، (٤) نصا واقتضاء :

---

(١) الغاشية الآية ٢

والله وحده هو الذى مد الأرض بحكمته واتقانه ، فجعل لها امتدادا فى بعدين متقابلين من ابعادها ، ومدها بالماء والخيرات والمعادن ومواد الخصب .
وهو وحده الذى جعل فيها جبالا رواسى راسخات قد ارست اثقالها فى اغوار الأرض ، وهو وحده الذى جعل فيها انهارا جاريات .

وهو وحده الذى جعل فيها من كل الثمرات زوجين اثنين ذكرا وانثى لتتم بينهما اسباب الاخصاب والتكاثر طبق سنته التى ارادها لكل حى ولكل نبـات .

ثم أن هذه الأرض فيها نظام متعاقب عجيب يلفت النظر بكرة وعشـيا اذ يغشاها الليل فالنهار فالليل فالنهار على سبيل الاستمرار .

فمن الذى جعلها بهذا النظام المتعاقب العجيب ؟ ومن الذى جعل كلا من الليل والنهار يغشـاها على التعـاقب المستمر ؟ انه الله : **(يغشى الليل النهـار)** .

اذا عرفتم هذا أيها الناس افلا تتفكرون فى اتفاق صنع الله بهذه الأرض ففى هذا الميدان مجال واسع للباحثين العلميين فى جغرافية الأرض وعجيب تكوينها ، ومجال واسع أيضا للباحثين العلميين فى تتبع مختلف عناصرها وطاقاتها التى مدها الله بها والانتفاع منها فى خير الانسان ورفاهه وقوته ، والاعتبار بدلالاتها على متقنها ومبدع صنعها ومحكم نظامها . افلا تتفكرون فى هذه الجبال الشوامخ وفى الغاية منها بوصفها جزءا من هذه المخلوقة التى خلقها الله لسكناكم ، وخلق لكم فيها ما يحمل لكم طيب اقامة وهناء عيش اذا أحسنتم التصرف فيه فانتفعتم من كل شىء بحكمة وذلك بأن تضعوه فى موضعه الذى ينفع ، وتتجنبوا ان تضعوه فى غير موضعه حذر أن تؤذوا أنفسكم به أو تضروها .

ان فى التفكر فى هذه الجبال مجالا واسعا للباحثين العلميين .

قالوا : انها بمثابة الأثقال الموزعة على مراكز معينة لحفظ توازن الأرض، ولو أن هذه الجبال ازيلت أو تحولت عن أماكنها لمادت الأرض بمن عليها واختل توازنها الذى يحفظ لها هذا النظام المستمر .

وقالوا : انها بمثابة صمامات الأمان للأرض فهى تحمى قشرتها من التشقق عند أى ضغط بركانى .

وقالوا : غير ذلك ، وما يزال المجال مفتوحا لكل باحث متتبع يحب المعرفة،

فهذه الحقيقة بجمالها واغرائها تناديه من خلف الغلائل والستور لعله يحث خطاه اليها فيدركها . ويصيب بمعرفتها لذة الانتصار على المجهول .

أفلا يتفكرون فى هذه الأنهار الجاريات ، كيف تتجمع أصولها وكيف تتكون خزاناتها ، وكيف تتفجر ينابيعها ، وكيف تجرى فى المنحدرات مياهها تمنح الأرض حياة وخصبا وخيرا كثيرا . ان فى هذا لميدانا واسعا للباحثين العلميين الذين يدرسون تكون الأنهار ومسيرتها منذ مبدأ تجمعها حتى تفجر ينابيعها حتى بلوغها الى مصابها ، ويدرسون عناصر الماء ، وخصائصه ، وغزارته فى الأرض ومساربه ومسالكه وأحواضه المستورة ، وبحيراته المنشورة ومحيطاته الغامرة الى غير ذلك مما تقصر عنه المؤلفات .

أفلا يتفكرون فى كل ما فى الأرض من ثمر ويتأملون فى عجيب صنع الله فيها اذ خلق من كل صنف منها زوجين اثنين ذكرا وانثى وبدأ خلق كل صنف منها باثنين هما الأبوان الأولان لسائر سلالته .

أن مثمرات الأرض لتستحق تأمل المتأملين وبحث الباحثين ، ففيها مجال بحث لا ينتهى ، شأن كل ما أتقن الله من خلق وابدع من صنع .

واذا سألنا علماء النباتات أعطونا علوما جمة عنها ناطقة بعظمة مبدعها وعلمه وحكمته .

أفلا يتفكرون فى تعاقب الليل والنهار طبق نظام مستمر لم تختل ساعة التوقيت فيه طرفة عين طوال الألوف المؤلفة من السنين .

فأية قوة حاسبة نظمت ذلك وضبطته ؟ .

أفلا يتفكرون فى النور وخصائصه ومنافعه ومنابع انهاره المتدفقة وسر ارتباط الرؤية بالضوء الذى ينشره ؟

أفلا يتفكرون فى الليل وستره ، وعظيم منافعه لكل حى ونبات وغيرهما من سوائل وجامدات ، رغم سواده وظلمته ؟ . أن فى الليل والنهار ، فى الظلمة والضياء لمجالات واسعة للباحثين العلميين الذين يدرسون الفيزياء وتكون الضوء وخصائصه ، وللباحثين العلميين الذين يدرسون منافع النور والظلمة فى الأشياء تغذية وامدادا أو تحليلا وتركيبا أو غير ذلك مما تضيق عنه المجلدات الضخمة .

ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون فيما أودع الخالق فيها من أدلة عظيمة بينه دالة على عظيم قدرة الله ومحيط علمه وجليل حكمته وبديع صنعه ، ثم

على صفة بدله ، اذ خلق الانسان ليبلوه ، واسكنه فى هذه الأرض المزودة بكل شيء فيه خير ومنفعة ، ووضع بين يديه كل ما خلق فيها ليحسن التصرف فيه بارادته طبق اصول قوانين الله ، التى وضعها له وانزلها على أنبيائه ورسله فيستعمله فى وجوه المنفعة ويتجنب استعماله فى وجوه المضرة .

هذا : وفى المدى القريب من بصركم ، وفى المجال الذى تمارسون فيه سعيكم لاكتساب الرزق بالحرث والزرع تجدون فى الأرض آيات أخرى .

فى الأرض قطع منها مختلفات الصفات مع انها متجاورات متلاصقات وفيها جنات من اعناب ، وفيها زرع مختلف الأصناف والطعوم والخصائص .

وفيها نخيل صنوان وغير صنوان ، فبعض اصولها ينبت عدة نخلات ، وبعض اصولها ينبت نخلة واحدة فقط وكل ذلك يسقى بماء واحد ، ولكن بعضها افضل من بعض فى الأكل من جهة طعمه او من جهة فائدته وكمية غذائه .

افلا يتفكرون فى هذه المخلوقات التى بين ايدهم وفى مجال سعيهم يمارسون زرعها ويعالجون تربيتها ، ويأكلون من ثمرتها ويميزون بين خصائصها ؟

ان التأمل فيها لا يستدعى تفكرا عميقا فهى فى متناول كل معالج لوسائل العيش واسباب الرزق ، وكل من عنده عقل يستطيع أن يستخلص منها الآيات الدالة على الخالق ، وعظيم صفاته ومحكم عدله ..

ومن اجل ذلك ختم الله الآية بقوله :**(ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون)** .
اما فى الآية السابقة التى تتضمن امورا تحتاج الى تفكير عميق وتأمل دقيق ، لما فيها من البحث فى تكوين الأرض وتكوين الجبال والأنهار وتكوين الثمرات من ذكر وانثى ونظام الليل والنهار وخصائص النور والظلمة ، فقد ختمها الله بقوله : **(ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون)** .

النص

قال الله تعالى :

وان تعجب فعجب قولهم : أءذا كنا ترابا أءنا لفى خلق جديد . أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلال فى اعناقهم . وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات . وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم . وان ربك لشديد العقاب .

ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليه آية من ربه . انما انت منذر ولكل قوم هاد .

(ا) اللغة والمعنى المراد :

١ — **(وان تعجب فعجب قولهم)** : العجب من الشيء : استغرابه واستبعاده لعدم اعتياده ، أو لأن الشأن ينبغى أن يكون على خلافه وعند ذلك يتضمن العجب انكار المتعجب منه انكارا يستدعى الاستخفاف أو السخرية بمن صدر عنه ذلك الأمر المتعجب منه ، سواء أكان ذلك الأمر قولا أو فعلا أو فكرة .

فمعنى وان تعجب فعجب قولهم : وان يحصل لك يا محمد عجب من شيء فقولهم : **(أءذا كنا ترابا أءنا لفى خلق جديد)** عجب حقا .

أو وان تعجب يا محمد من قولهم **(أءذا كنا ترابا أءنا لفى خلق جديد)** فقولهم هذا عجيب حقيق بأن يتعجب منه ، وذلك انهم استبعدوا أمر قدرة الله على اعادتهم بعد فناء أجسادهم مع انهم يعتقدون بأنه هو الذى انشأهم اول مرة وبديهة العقل تقضى بأن الاعادة مثل الابتداء ، أو اهون منه فى مقاييس الناس .

وقد أورد الله هنا فى هذه السورة قولهم فى انكار البعث مورد الأمر الحقيق بأن يتعجب منه مقابلة لهم بالمثل ، وذلك انهم لما سمعوا من الرسول صلى الله عليه وسلم انذاره لهم بالحياة بعد الموت للجزاء بالثواب أو بالعقاب انكروا انذاره وتعجبوا من قوله ولم يكن لهم دليل فى مناقشة قضية البعث الا مجرد التعجب والاستبعاد وذلك ما صرحت به سورة (ق) قال تعالى :

(ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب أءذا متنا وكنا ترابا رجع بعيد) .

٢ — **(الأغلال)** : جمع غل بالضم وهو ما تطوق به عنق المقيد أو يده أو هو ما تجمع به يده الى عنقه امعانا فى الأسر والتقييد . والمراد من كون الأغلال فى اعناقهم : اما الأمور المعنوية التى قيدت نفوسهم وحناجرهم عن التسليم بالحق والاعتراف به وهى عوامل كفرهم فى الدنيا شبهت بالأغلال فاستعير لها لفظها ، واما قسم من العقاب الذى سيلاقونه جزاء كفرهم فى الآخرة او هما معا .

٣ ـ (**اصحاب النار**) : الصاحب المعاشر المرافق الملازم فأصحاب النار هم ملازموها ومخالطو الوان عذابها فى الآخرة كما انهم فى الدنيا ملازمو اسبابها ومخالطو الوان المعاصى التى تؤدى اليها .

٤ ـ (**هم فيها خالدون**) : أى هم فيها دائمو البقاء كما انهم صمموا على أن يظلوا ابدا جاحدين لله كافرين بصفاته منكرين لرسالاته .

٥ ـ (**ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة**) : كان مشركو مكة يقولون كما جاء فى سورة الانفال الآية (٣٢) :

(**اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم**) .

يقولون هذا أمام الرسول صلوات الله عليه على سبيل الاستهزاء بما انذرهم به والتكذيب برسالته . فجاء فى هذه الصورة قوله تعالى :

(**ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة**) .

اشارة الى هذا وأمثاله من اقوالهم . اى ويستعجلك المشركون بالنوازل والعقوبات السيئة اذ يطلبون التعجيل بها فى الدنيا قبل ان يستكملوا نصيبهم من النعم الحسنة التى قدر الله منحهم اياها لابتلائهم بها فى الدنيا . والحقيقة انهم لا يرغبون فى انزال العقوبات بهم ولكنهم يمعنون فى تكذيبهم بما انذرهم به الرسول صلوات الله عليه من عقوبات يوم القيامة وكذلك شأن المكذبين .

٦ ـ (**وقد خلت من قبلهم المثلات**) :

(**خلت**) : سلفت .

(**المثلات**) : جمع مثلة بفتح الميم وضم الثاء ، وهى العقوبة ، سميت بذلك لما بين صنوف العقاب والسيئات المعاقب عليها من المماثلة ، قال تعالى : (**وجزاء سيئة سيئة مثلها**) . اى ، ما لهم يستعجلون العقوبات والحال انهم يعلمون مما سلف فى الأمم الخالية من قبلهم ما انزل الله من العقوبات بكثير منهم بسبب تكذيبهم بالرسل ؟

٧ ـ (**لذو مغفرة للناس على ظلمهم**) :

(**المغفرة**) : الستر ، والمراد ستر ذنوبهم ، وتجاوزه عنها تجاوزا كليا، او الى أجل ، وهو ما يكون بالإمهال .

(**على ظلمهم**) : أى مع ظلمهم انفسهم بالذنوب والمعاصى .

٨ ـ (**لشديد العقاب**) : اى لشديد عقابه .

٩ ـ (**لولا انزل عليه آية من ربه**) : اى هلا انزل عليه معجزة من ربه تشبه معجزات موسى وعيسى .

١٠ ـ (**انما انت منذر**) اى ما انت بالنسبة الى المصرين على كفرهم الا منذر توجه لهم الانذار بعد أن قدمت اليهم الوان الهداية التى كلفت أن تبلغهم اياها وذلك ان الرسول صلوات الله عليه بالنسبة الى الذين استجابوا له وأطاعوه مبشر .

١١ ـ (**ولكل قوم هاد**) : أى ولكل قوم رسول يهديهم الى صراط ربهم ويرشدهم الى دينه ، اذا فوظيفتك يا محمد مثل وظيفة سائر الرسل وهى الهداية والارشاد ، ومن الهداية الانذار اذ هو خاتمة رسائلها .

(ب) معنى الآيات (٥ ، ٦ ، ٧) نصا واقتضاء :

فيما سبق من الآيات اشارات الى براهين وجود الله ، ومحيط علمه ، وعظيم تدبيره ، وجليل حكمته ، وكمال قدرته وعدله وفضله .

ومن كمال قدرته النافذة فى كل شىء ، قدرته على بعث الناس الى الحياة فى اليوم الآخر بعد موتهم وفناء أجسامهم فى الحياة الدنيا ، كما قدر على بدءخلقهم وخلق السماوات والأرض والعرش من فوقهن .

ومن كمال عدله وفضله ادخاره الجزاء الأمثل لليوم الآخر والدار الآخرة .

فالايمان باليوم الآخر والدار الآخرة والتسليم بقدرة الله على البعث من قضايا العقل الصحيح ، والفكر السديد ، والقلب السليم .

وبعد هذا العرض لطرق الادلة على قضية الايمان بالله واليوم الآخر ، فان تعجب يا محمد من شىء فجدير بك أن تعجب من مقالة هؤلاء الكافرين ، اذ قالوا : أءذا متنا وتفتتت ذرات أجسامنا وصرنا ترابا أءنا لعائدون الى الحياة مرة أخرى فى خلق جديد مماثل للخلق الأول ؟ .

روى أن جماعة من كفار قريش منهم ابى بن خلف الجمحى ، وابو جهل ، والعاص بن وائل ، والوليد بن المغيرة تكلموا فى شأن الاسلام فقال لهم أبى ابن خلف : الا ترون الى ما يقول محمد : ان الله يبعث الأموات ؟ ثم قال : واللات والعزى لأصيرن اليه ولأخصمنه ، واخذ عظما باليا ، فجعل يفتته بيده ، ويقول : يا محمد أترى الله يحيى هذا بعدما رم ؟ قال صلى الله عليه وسلم : نعم : ويبعثك يدخلك جهنم ، فانزل الله تعالى فى اقامة الحجة

على هؤلاء قوله فى سورة (يس) : ((**وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل : يحييها الذى انشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم**)) (١) .

وقد اورد الله فى السورة التى نحن فى صدد تفسيرها مقالتهم التى قالوها وساقوها مساق التعجب من قضية البعث والانكار له انكارا فيه نفثات الكبر الجاهلى : (**اءذا كنا ترابا اءنا لفى خلق جديد**) .

ومما لا شك فيه أن مقالتهم هذه هى الأمر العجب لأنها لا تستند فى نفوسهم الى اية حجة مقبولة فى العقول ، وحينما أوردوا قضية انكارهم البعث لم يأتوا بدليل عليه غير مجرد الاستبعاد والاستغراب ، وسوقه مساق الشيء الذى يتعجب منه ، مع انه ليس كل بعيد عن المألوف فى العادة بعيدا عن مسلمات العقول .

ولما اورد الله جل جلاله مقالة هؤلاء المنكرين لليوم الآخر حكم عليهم بأنهم كفروا بربهم ، مع ان منهم من لو سألته عن خلق السماوات والأرض ليقولن الله ، وذلك لأن انكار اى ركن من أركان الايمان الثابتة بيقين موجب للكفر .

ثم بين جل وعلا أن الاغلال النفسية الصارفة لهم عن الايمان قد طوقت اعناقهم فضيقت عليها ، فحجبتهم عن الاعتراف بالحق . أو أن الاغلال التى سيجازون بها يوم القيامة على كفرهم ستطوق اعناقهم لا محالة ، ونزل الشيء الذى لا بد من وقوعه منزلة الشيء الواقع فى الحال ، فقال تعالى : (**أولئك الأغلال فى اعناقهم**) . أو هذا ، وهذا ، فيكون ما سيلاقون فى الآخرة جزاء لما طوقوا به انفسهم فى الدنيا .

ثم أوضح الله سبحانه عقابهم الأكبر بأنهم أصحاب النار يوم القيامة ، واطلق عليهم انهم اصحابها ، لأنهم سيلازمونها ويخالطون الوان عذابها ، وختم ذلك بأنهم من اهل الخلود فيها ، فليس لهم منها خروج وذلك لكفرهم ، وهذا هو قانون الله لعباده : (**ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**) . واشار اليهم باشارة البعيد اشعارا بأنهم بعيدون مدبرون عن دينه وشريعته ، محجوبون عن الهواية بالأغلال التى غلوا انفسهم بها ، مطرودون عن رحمة الله خالدون فى العذاب . (**أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى اعناقهم وأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون**) .

---

(١) سورة يس الآية ١٩ .

ومن عجيب امر هؤلاء المشركين المنكرين لليوم الآخر انهم يمعنون فى الاصرار على الكفر والتكذيب بما انذرهم به الرسول من الوعيد ، فيدعون على أنفسهم بالهلاك : **(اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم)** (١) .

مع أن عذاب الآخرة آتيهم لا محالة ما داموا على كفرهم وعنادهم ، واية سيئة تنالهم ابلغ من عقوبات الله شديد العقاب ؟

فما بالهم يستعجلون لأنفسهم السيئة ويطلبون أن تحل بهم عقوبات الله؟ لقد غرهم امهال الله ، وافاضة النعم الكثيرة عليهم ليبتليهم بها ، فأغراهم ذلك بأن يتحدوا تحدى المستهزئين ، فطلبوا حلول العقوبات السيئة بهم قبل أن يستكمل الله ما قدر لهم من ابتلاء بالحسنات التى يفضيها عليهم فى الدنيا ليعودوا عن غيهم ويثوبوا الى رشدهم .

وفى هذا الأسلوب تحويل لدعائهم على انفسهم بما سبق عن الغرض الذى يقصدونه فيه من التكذيب والاستهزاء ، ورجوع به الى ما يدل عليه ظاهر لفظهم من الطلب الحقيقى للعقوبات السيئة ، اذ حمل اللفظ على ظاهره يدل على طلبهم العقوبات حقا ، فلو تمت تلبية طلبهم لعجلت لهم العقوبة ، فيكون الأمر بمثابة استعجالهم لأنفسهم العقوبة ، وهذا أسلوب بديع من أساليب نقاش المستهزئين المصرين المعاندين ، وهو أن يتجاهل المصلح كنايات الاستهزاء التى يقصدها المفسدون ، ويحمل أقوالهم على ظاهرها فيضيع عليهم ما أرادوه ويوقعهم بألفاظهم فى مكان السخرية والاستهزاء ، فهل يستعجل لنفسه السيئة الا كل حقيق بالاستهزاء والسخرية لضعف عقله وزيادة حمقه .

اما كان عليهم أن يعتبروا بالأمم السالفة الذين كذبوا رسل ربهم فأنزل الله بهم أصناف العقوبات فأهلكهم بها ؟ .

فما لهم يتحدون الرسول أن ينزل الله بهم العقوبات ، ولا يتعظون بمن مضى من الأمم **(وقد خلت من قبلهم المثلات)** ؟

لكن أمر الله غير مرتبط بنزواتهم ، ولا بمظاهر طيشهم ، فلله صفات كثيرة منها انه ذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وانه شديد العقاب ، ومن مغفرته أن يمهل الظالمين ، ويستر لهم ذنوبهم ، ليترك لهم فرصة التأمل ، رغبة بأن يثوبوا الى رشدهم ، فمن تاب منهم قبل حلول أجله واستغفر ربه واناب اليه

---

(١) الانفال : الآية : ٣٢ .

غفر الله له وعفا عنه ، ومن أصر على عناده وكفره عاقبه بعدله وهو شديد العقاب .

(ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة . وقد خلت من قبلهم المثلات وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم . وان ربك لشديد العقاب)

انها أقوال ثلاثة رددهامنكرو البعث .

الأول قولهم : أءذا كنا ترابا أءنا لفى خلق جديد .

والثانى : استعجالهم بالسيئة قبل الحسنة .

وقد بسطنا الكلام على هذين القولين .

أما الثالث فقولهم : لولا انزل عليه آية من ربه .

ويلاحظ فى هذا ان مشركى مكة لما انكروا اليوم الآخر الذى انذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما فيه من عذاب اليم ، ولما عجزوا عن أن يقيموا الدليل على صحة انكارهم له حاولوا الطعن برسالة محمد صلى الله عليه وسلم من وجهين :

الوجه الأول : استعجالهم العذاب على سبيل التحدى والاستهزاء .
الوجه الثانى : تجاهلهم معجزة القرآن ومعجزات الرسول الأخرى التى كانت فى واقع حالها براهين كافية لمن يريد الحق ، ويبتغيه ، ونلمظهم بطلب معجزات مادية تماثل معجزات صالح وموسى وعيسى عليهم السلام .

ولكن هؤلاء المنكرين للبعث قوم مردوا على الكفر والاصرار على العناد ، فلو أن الله أنزل عليهم المعجزات المادية التى طلبوها لما كان منهم الا الاصرار على الكفر ، ولوجدوا لأنفسهم مزعما يقولونه كما قالوا فى معجزة انشقاق القمر : **(سحر مستمر)** .

قال تعالى فى سورة القمر : **(وان يروا آية يعرضوا ويقولوا : سحر مستمر)** .

وامام طلبهم الآيات على سبيل التفكه أو التعنت فان الله تعالى لا يتخذ خرق سنته الدائمة العوبة فى أيدى المتفكهين أو المتعنتين ، وانما يخرقها بمقدار حاجة الناس الى اقامة الدليل الذى يدلهم على صدق رسالة الرسول .

ومن اجل ذلك خاطب الله رسوله بقوله : **(انما انت منذر)** . أى لا تنظر يا محمد الى مطالبهم التى يوردونها على سبيل التعنت أو التفكه بعد أن قامت

عليهم الحجة الكاملة بالدليل العقلى ، وبدلائل المعجزات المختلفة ، واهمها القرآن .

وما انت بالنسبة اليهم بعد أن وصلوا الى ما وصلوا اليه من تعنت وعناد الا منذر ، توجه اليهم الانذار وتتركهم الى ربهم ، ثم ان وظيفتك كوظيفة سائر الرسل من قبلك **(ولكل قوم هاد)** أى رسول يهديهم .

ومعلوم أن الهداية لها مراتب فهى تبدأ بالدعوة ، ثم باقامة الحجة العقلية، والجدال بالتى هى احسن ، ثم بايراد المعجزات ، فاذا لم تنفع فى القوم مختلف وسائل الهداية اللينة فانه لا يبقى الا وسيلة الانذار .

وكأن الله جل وعلا يقول لنبيه لقد قدمت لهؤلاء مختلف وسائل الهداية اللينة كما هى وظيفة سائر الرسل ، ثم انذرتهم بعذاب الله وعقابه يوم القيامة فاستكملت لهم بذلك مختلف وسائل الهداية ، فما عليك الا أن تتابع انذارهم ، وتتركهم وشأنهم ، وتنصرف الى مهماتك مع غيرهم .

النص

قال الله تعالى :

« الله يعلم ما تحمل كل انثى وما تغيض الأرحام وما تزداد . وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من اسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من امر الله . ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم . واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له . وما لهم من دونه من وال ».

اللغة والمعنى المراد :

١ ـ (وما تغيض الأرحام وما تزداد) :

غاض الماء يغيض : اى نقص أو غار ، وغاض الله الماء اذا جعله ينقص أو يغور ، فيستعمل لازما ومتعديا ، ويقال ايضا اغاض الله الماء . والمعنى فى : **(وما تغيض الأرحام وما تزداد)** اى ، الله يعلم كل ما يحصل فى أرحام الاناث من نقص وزيادة وما يتحدد من تطوراتها وتطورات ما فيها من اجنة ومرافقاتها باستمرار ، واى محيط اكبر من احاطة علم الله بهذه الدقائق ، التى

تحصل فى الأرحام كلها ، أرحام اناث الناس ، والدواب ، والحشرات ، والجراتيم ، وما لا نعلم من ذوات الأرحام صغيرها وكبيرها .

وقد فسر المراد من النقص والزيادة فى الأرحام بتفسيرات مختلفة نظرا الى حال بعض الأشياء التى يحصل فيها نقص وزيادة فى الرحم ، كنقص الدم وزيادته ونقص مدة الحمل وزيادتها . والأحسن فيما أرى أن يظل العموم على عمومه ليشمل كل نقص وزيادة تحصل فى الأرحام وما فيها . ولعلماء الطب والتشريح تفصيلات فى هذا الموضوع كثيرة جدا ، ووجوه النقص والزيادة فى نمو الأجنة وفى مرافقاتها وفى الأرحام التى تحتويها مختلفة جدا ، وكثيرة جدا ، والله يعلم كل ذلك ، لأنه لا يتم شىء فيه الا بخلقه جل وعلا وبمقتضى قضائه وقدره ومحاطا بواسع علمه وجليل حكمته واتقانه .

٢ ــ **(وكل شىء عنده بمقدار) :**

(مقدار الشىء) : الحدود التى تنتهى اليها اجزاؤه كما او كيفا ، ذاتا أو صفة ، بدءا أو انتهاء .

والمراد أن كل شىء تتعلق مشيئة الله بايجاده فهو عند الله مقدر بمقدار محدد بعلمه ، فهو يقدر ما ينبغى أن تكون عليه نسبة كل جزءفيه سواء أكان داخلا ذلك الجزء منه فى بناء ذاته ، أو كان داخلا فى بناء صفاته ، أو كان داخلا فى وقت وجوده بدءا واستمرارا وانتهاء ، الى غير ذلك من أمور يمكن أن تقدر بمقدار وتعرض لها عوارض الزيادة والنقص .

٣ ــ **(عالم الغيب والشهادة) :**

(الغيب) : ما غاب عن الحواس فلم تستطع اداركه فهو غيب بالنسبة اليها مع انه فى واقع حاله قد يكون موجودا ، أو ما هو غيب مطلقا لأنه فى طى العــدم .

(والشهادة) : ما كان حاضرا مشهودا فهو بالنسبة الى من شهده شهادة اما بالنسبة الى من غاب عنه فهو غيب ، وأصل الشهادة مصدر شهد ، وهى هنا بمعنى المشهود .

وجميع ما خلق الله من مخلوقات ذوات حواس مدركة تشهد بحواسها من الكائنات بعض الأشياء ، ويغيب عنها الشىء الكثير مما لا يحيط به الا علم الله .

فما شهدته منها فهو بالنسبة اليها شهادة ، وما غاب عنها أو عن بعضها فهو بالنسبة الى من غاب عنه غيب اما بالنسبة الى من شهده فهو له شهادة

فمثلا : تشهد الملائكة ما لا نشهد نحن البشر فهو بالنسبة الى الملائكة شهادة ، أما بالنسبة الينا فهو غيب . وعلى هذا القياس كل الأمور .
أما الله تعالى فلا غيب عنده لأن كل شيء بالنسبة اليه شهادة ، واذا كان الوجود ينقسم بالنسبة الى المخلوقات الى غيب وشهادة فان الله عالم الغيب والشهادة .

٤ - **(الكبير المتعال)** :

(الكبير) : من أسماء الله الحسنى مأخوذ من الكبر ، وهو ضدالصغر ، فالله هو الكبير الذى لا نهاية لكبره ، لأنه هو الكامل الواجب الوجود لذاته ، وما عداه موجود بايجاد الله له ، ولأنه سبحانه هو الغنى عن كل شيء ، وما عداه فى حضيض النقص والافتقار ، ولأنه سبحانه هو المحيط بكل شيء علما ، ولأن قوته سبحانه أكبر من كل قوة ، وهو الكبير لأنه أكبر من أن تشاهده الحواس، أو تدرك حقيقة ذاته العقول .

(المتعال) : أى المتعالى وحذفت الياء لأنه رأس آية ولولا ذلك لكان الجيد اثباتها ، والمتعالى من أسماء الله الحسنى مأخوذ من العلو وهو ضد السفل ، والمراد منه علو الشرف والجلالة والكبرياء والتنزه عن كل صفات النقصان ؛ ومعنى المتعالى انه يعلم حقيقة ذاته وصفاته وافعاله فهو يثبت لنفسه وصفه الحقيقى ، وهو أنه العلى .

٥ - **(سواء منكم من أسر القول ومن جهر به)** :

(سواء) : بمعنى مستو ، ويخبر بها عن الواحد فما فوق بصيغة الافراد ، لأنها فى الأصل مصدر .

(من اسر القول) : أى من كتمه واخفاه .

(ومن جهر به) : أى ومن اظهره واعلنه .

والمعنى : من كتم منكم قوله واخفاه ومن أظهر منكم قوله وأعلنه مستويان بالنسبة الى علم الله ، لأنه لا سر على الله ، اذ هو عالم الغيب والشهادة .

٦ - **(ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار)** :

(مستخف بالليل) : أى مستتر بأعماله بظلمات الليل وطالب الخفاء فيها .

(وسارب بالنهار) : السارب الذاهب فى سربة والسرب بفتح السين هو الطريق ، والمعنى ، وظاهر فى أعماله ذاهب فى طريقه بوضح النهار ، مستعلن لا يستخفى فيما يعمل .

فيكون المعنى المراد من هذه الفقرة : ومن يطلب الاختفاء باعماله فى ظلمات الليل ، ومن يعملها علانية مستويان بالنسبة الى علم الله ، لأنه لا شىء يخفى عليه ، فهو عالم الغيب والشهادة .

٧ ـ (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) :

(له معقبات) : الضمير فى (له) عائد الى من أسر ومن جهر ومن هو مستخف ومن هو سارب ، على اعتبار لفظ **(من)** لا على اعتبار معناها ، أو على الانسان المفهوم من الكلام السابق .

(والمعقبات) : هى جماعات من الملائكة يعقب بعضهم بعضا لتقوم فى الناس بما كلفها الله من وظائف ، ومفرد معقبات معقبة ، وهو صفة لجماعة من الملائكة .

وقد جاء فى الحديث الصحيح : يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار .

ووظيفة هذا الصنف من الملائكة : حفظ الناس بامر الله من شر كل ذى شر خفى او ظاهر ، ومن اذى كل ذى اذى فى خضم هذا الكون المشحون بالمخاطر ، فلا يصيب الانسان منها شىء الا اذا كان فيه قضاء وقدر من الله تعالى ، او حفظ اقوال الناس واعمالهم وتسجيلها ليشهدوا بها عليهم أو لهم بين يدى الله تعالى ، فمعنى يحفظونه على هذا : يحفظون اقواله واعماله .

ويكون المعنى المراد ان الله قد قيض لكل انسان صنفا من الملائكة سماهم المعقبات يرافقونه ويلازمونه ، من بين يديه ومن خلفه ، اذا انصرف جماعة منهم جاءت عقبها جماعة اخرى ، يحفظونه من المخاطر والمهالك ، وليس حفظهم له مبتدئا من امرهم وانما هومن أمر الله ، أو يحفظون اقوالهواعماله ويسجلونها عندهم ، ليقدموا بها الشهادة عند ربهم الحكيم العليم .

٨ ـ (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم) :

اى أن الله لا يغير ما بقوم من حال الى حال أخرى مناقضة للأولى حتى يغيروا ما بانفسهم من نية وتصميم وعقيدة وخلق .

فان غيروا بانفسهم من سىء الى حسن غير الله احوالهم من سىء الى حسن فان كانوا فى الذل اعزهم الله ، وان كانوا فى الجهل علمهم الله وهكذا ، وان غيروا ما فى انفسهم من حسن الى قبيح غير الله احوالهم الظاهرة كذلك .

٩ ــ **(فلا مرد له)** : اى فلا رد له وهو مصدر رد يرد ، تقول : رددت فلانا عن وجهه ردا ومردا وتردادا اذا صرفته عنه .

١٠ ــ **(من وال)** : اى من ناصر يلى امورهم وينصرهم ويدرأ عنهم عذاب الله .

(ب) معنى الآيات (٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١) نصا واقتضاء :

من الأوهام التى قامت فى نفوس منكرى البعث الذين قالوا : **(اءذا كنا ترابا اءنا لفى خلق جديد)** توهمهم أن من يموت من الناس يضل رفاته فى تراب الأرض الواسعة ، فتذهب صورته وصفاته ، فكيف يرجع الله هذه الذوات والصفات ، وكيف يجمع هذه الذرات المتفتتة من اجسامهم ، وعوامل هذا التوهم تبدو فى توهمهم أن علم الله غير محيط بكل صغيرة وكبيرة من ذوات الذين يموتون وصفاتهم وأوضاعهم واعمالهم ، ومتفرق ذراتهم بعد موتهم .

وقد جاء توهمهم هذا مصرحا به فى قوله فى سورة **(السجدة)** **(وقالوا : اءذا ضللنا فى الأرض اءنا لفى خلق جديد)** .

فاقتضى توهمهم هذا ان يعالج القرآن الكريم دفعه ورده باسلوبه الحكيم ، وذلك وفق طريقة القرآن العامة التى تناقش معظم الأمور بأسلوب لا يلامس الجدل المباشر .

ومن اجل ذلك نرى فى القرآن تركيزا بالغا على موضوع احاطة علم الله بكل شيء ، متى كان الحديث عن البعث واليوم الآخر واقوال الكافرين فيهما .

يقول الله تعالى : **(قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ) (١)** وذلك عقب حكايته سبحانه مقالة منكرى البعث : **(بل عجبوا ان جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب اءذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد) (٢)** ثم يؤكد ذلك خلال السورة بقوله : **((ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن اقرب اليه من حبل الوريد (٣)** .

وفى سورة سبأ يقول الله تعالى :

(وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل : بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ولا اصغر من ذلك ولا اكبر الا فى كتاب مبين (٤)) .

---

(١) سورة ق الآية ٤

(٢) سورة ق الآيات ٢ ، ٣

(٣) سورة ق الآية ١٦

(٤) سورة سبأ الآية ٣ .

ولما كان موضوع مناقشة الكفرة منكرى البعث من ابرز الموضوعات التى نعالجها السورة التى نحن فى صدد تدبر معانيها ، فقد أورد الله جل ثناؤه الكلام على احاطة علمه بكل شىء عقب ايراده الأقوال الثلاثة لمنكرى البعث وهى :

١ ـ قولهم : **أءذا كنا ترابا أءنا لفى خلق جديد)** •

٢ ـ وقولهم الذى يشير اليه : **(ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة)** •

٣ ـ وقولهم : **(لولا انزل عليه آية من ربه)** •

هذا ، وقد آن لنا أن نتأمل فى روعة النص الذى جاء فى هذه السورة الدال على علم الله المحيط بكل شىء ، المسوق بأسلوب تفصيلى بديع ، يأخذ بيد المتأمل فيه حتى يتبصر الأدلة التى تنطوى عليها ظواهر هذا الكون وبواطنه. الدالة على احالة علم الله بكل ظاهر وخفى ، لأن ما فى الكون من ابداع واحكام واتقان ودقة بالغة لا يتم فيه الخلق الا مسبوقا ومقترنا بعلم محيط بكل شىء ، نافذ الى دقائق عجيبة تقصر العقول عن ادراك أجزاء منها ، فضلا عن الاحاطة بها ، واحاطة العلم الربانى بهذه الدقائق أجل واخطر وأوسع من احصاء ذوات الناس وأوصافهم واحوالهم وأعمالهم وما بلى من اجسادهم .

اذا تأمل المتدبر ذلك فلا غرو أن ينتهى الى التسليم بحقيقة صفة العلم المحيط للبارى جل وعلا ، ايمانا بكلام الله ، واستدلالا من آيات الكون .

(الله يعلم ما تحمل كل أنثى) •

اذا كنتم تؤمنون بربوبية الله افليس من الأمر الذى يديره فى كونه خلق كل ذى حياة من اصغر جرثوم حتى الانسان المخلوق فى أحسن تقويم ؟ .

تابعوا البحث فى هذا الميدان • أفما يستدعى خلق كل ذى حياة باتقان واحكام أن يكون علم الخالق محيطا بكل شىء فيه ، كبيرا أو صغيرا عظيما أو دقيقا ؟ حتى يتم خلقه دون خلل أو فساد .

وادق شىء فى الخلق كما تلاحظون بدء تكوين الأجنة فى الأرحام ، ثم تزايد نموها طورا بعد طور ، وصناعة الخلق هذه مستمرة ما بقيت الحياة • فكيف يتم احكامها واتقان صنعها حتى تبلغ مرحلة النضج وتصلح لحياة مستقلة ، بدون علم محيط بكل دقائقها • متتبع لكل أطوارها ، داخل فى أغوار لطائفها ؟ .

ان بلوغ هذه الأحياء التى تبدأ من نقطة الصفر درجة كمالها البديع دال عند ذوى العقول على أن عناية الله وعلمه وقدرته مرافقة لكل لطيفة ودقيقة

فيها ، منذ بدء نشأتها ، ومستمرة معها ، ولولا ذلك لم يتم لهـا ان تبـلغ مرتبة كمالها وفق تقدير الله ، ولا صابها الخلل والفساد فى خضم هذه المراحل الدقيقية . كل هذا يهدى اليه قوله تعالى :

(الله يعلم ما تحمل كل انثى) .

كل انثى من البشر . كل انثى من دواب الأرض . كل انثى من الطير ، كل انثى فى البحر ، كل انثى فى البر ، كل انثى من الحشرات . كل انثى من الجراثيم . .

كل انثى : قضية كلية مستغرقة جميع الأفراد .

فكم لهذه الأفراد من اعداد ؟ وكم فى هذه الأفراد من لطائف ودقائق ؟ .

(وما تغيض الأرحام وما تزداد) .

الله يعلم أيضا جميع ما يحصل من نقص وزيادة فى الأرحام ، محتوى وما حوى وما رافق ذلك ، فهو يتابع بعلمه كل اطوارها ، لأنه هو الذى يتابع بخلقه كل اطوارها .

وكل شيء عنده بمقدار : قضية كلية اخرى مستغرقة جميع الأفراد .
فكل شيء يزداد فانما يزداد لحكمة اتقان الصنع ، وكل شيء ينقص فانما ينقص لحكمة اتقان الصنع ، وكل شيء يوضع بالمقدار الذى تقتضيه الحكمة .
فمن لعلم هذه الأجزاء الدقيقة ؟ ومن لحساب أعدادها ؟ وتوجيه كل فرد منها الى محله فى مركبه العجيب ، غير الله الذى قدر لكل شيء قدره وابدع بحكمته صنعه ؟ .

ان علماء الجراثيم قد وصلوا بالكشف المجهرى الى ان ملايين منهـا يمكن أن يجمع فى راس ابرة ، وكل واحد من هذه الجرائيم حيوان قائم بذاته مركب كامل التركيب ، فكم فى الكون من اعداد منها ؟ وعلم الله وقدرته يرافقان اتقان صنعها ويحوطانه ، وينفذان الى اغوار دقائقه . فأين أعداد الناس ومتفتت ذرات أجسامهم وعلم صفاتهم وأحوالهم الذى هو محل اشكال منكرى البعث بالنسبة الى ذلك ؟ انه يعلم كل ذلك ، ويجعل كل شيء بمقدار مطابق للحكمة وكمال الصنع ، لأنه :

(عالم الغيب والشهادة) .

عالم كل شيء : عالم كل حقيقة ، عالم كل ما هو قابل للعلم ، عالم الغيب الذى لا تصل اليه حواس مخلوقاته ولا عقولهم مما هو موجود ، وعالم الغيب

الذى لا تصل اليه عقول مخلوقاته مما هو معدوم ، كما هو عالم الشهادة ، فلا يعزب عن علمه شيء من الأمور التى يمكن أن تشهدها حواس مخلوقاته أو عقولهم .

(الكبير المتعال) :

فمهما كان الشيء كبيرا فالله أكبر منه ، وهو محيط به علما وقدرة ، وهو الذى يستحق أن يوصف بالكبر الحقيقى ، وما عداه بالنسبة اليه صغير ، ومهما كان الشيء دقيقا ولطيفا فالله اكبر منه علما وقدرة ، فهو محيط به وينفذ الى أغواره .

ومهما تعالى شيء عن الاحاطة والادراك فالله أعلى منه وأجل ، لذلك فهو محيط به علما ، وهو الذى له صفة التعالى حقيقة ، وما عداه فانه من دونه ، محاط بعلمه .

فما أعذب الثناء على الله بالكبير المتعال وما أحكمه بعد أن تبين أنه عالم الغيب والشهادة .

اذا عرفتم ذلك من صفات الله تعالى فالسر منكم والجهر ، والاستخفاء والاستعلان ، سواء بالنسبة الى علم الله ، لذلك فأقوالكم التى تسرونها فيما بينكم عن الرسول صلى الله عليه وسلم معلومة عند الله ، وهو يبلغها رسوله اذا شاء ، فليس شيء من أمركم خافيا .

(سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) .

فليسر قوله من أسر ، وليجهر به من جهر ، وليستخف فى أعماله بالظلمات المتوارى طالب الخفاء ، وليمش المستعلن فى أعماله ساريا فى وضح النهار ، فانهم جميعا محاطون بعلم الله ، ولا تخفى عليه منهم خافية .

وبالاضافة الى علم الله المحيط بكل شيء ، فقد قيض الله لكل منهم معقبات الملائكة يحفظونه ، يحفظون ذاته من الخطر بأمر الله ، ويحفظون أيضا أقواله وأعماله بقدرة الحفظ التى وهبهم الله اياها ، ليشهدوا بما له أو عليه عند ربهم الحكيم العليم ، ومن أمر الله يفعلون كل ذلك .

(له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) .

يتابعونه بالمراقبة والتسجيل ليحملوا الى ربهم ما احدث فى قلبه أو عمله . فان كان من أهل الايمان والطاعة واستمر على ما هو عليه فى نفسه — فى

قلبه أو عمله — من خير وطاعة مد الله له بالتوفيق والتسديد ، والهداية والتأييد . والنصر والنعمة ، وطمأنينة القلب وانشراح الصدر ، أما ان غير ما في نفسه من ايمان وطاعة فان سنة الله فى خلقه لا بد أن تصيبه ، فيكون ما أحدثه وبدله فى نفسه سببا فى أن يحجب الله عنه التوفيق والهداية وسائر وجوه النعمة التى يختص بها المؤمنين الطائعين فى الدنيا .

وان كان من اهل الكفر والعصيان واستمر على ما هو عليه فى نفسه من شر واثم ، مد له الرحمن فى الضلالة والامهال استكمالا لشروط الامتحان وظروفه فى هذه الحياة الدنيا ،وتركه يتعثر فى سبل المهانة والخذلان ، والقلق، وضيق الصدر ، أما ان غير ما فى نفسه من كفر وعصيان ، وتاب الى بارئه ، وطفق يخطو فى سبل الله ، ويباشر الوان طاعته ، فان سنة الله فى خلقه لا بد أن تناله فيكون ما أحدثه وبدله فى نفسه سببا فى أن يفتح الله له أبواب التوفيق والهداية وسائر وجوه النعمة التى يختص بها أهل كرامته وأن يصرف الله عنه الخذلان والمهانة والحرج والقلق وضيق الصدر وسائر وجوه النقمة التى يعاقب بها فى الدنيا ذوى الكفر والعصيان .

انها سنة الله الدائمة فى خلقه المعلنة بقانون :

(ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم) .

ولما كان سياق الآيات السابقة يتناول بالحديث منكرى البعث واليوم الآخر ، الذين يستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ، كان المقتضى البيانى يستدعى ابراز جانب احلال السوء بالمصرين على كفرهم ، المعاندين لرسول الله وانه مرتبط بارادة الله لحكمة هو أعلم بها ، فاذا أراد بقوم سوءا أحله بهم ، فلم يقدر أحد على رده أو دفعه ، ولم يكون للقوم من دون الله أى وال يتولاهم وينصرهم من عقابه ، لذلك جاء عقب القانون السابق قوله تعالى :

« واذا اراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال » .

خاتمة للمجموعة الأولى من السورة :

خلاصة تسلسل ما جاء فى الآيات من (١) الى (١١) وترابط معانيها .

١ — بدأ الكلام بالتنويه بالمكانة العظيمة للسورة الآتية آياتها ، وبالمكانة العظيمة لجميع ما أنزل الله على محمد صلوات الله عليه ، توطئة لاعلان أنه هو الحق ، واشعارا بسبب كونه حقا قد اكتسب مرتبة المجد العظيم .

ومن المعلوم أن أعظم قضية من قضايا الحق التى جاء بها القرآن قضية الايمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر .

٢ ــ الحق ينبغى أن يؤمن به العقلاء لأنه قضية العقل ، ولكن واقع الناس بخلاف ذلك ، فأكثر الناس لا يؤمنون . وكونهم لا يؤمنون به يستدعى اقامة الأدلة الزاما لهم بالحجة حتى لا يكون لهم عذر ، ، وتوضيحا للجاهلين طريق الهدى .

٣ ــ عرضت الآيات أدلة قدرة الله فى آفاق السماوات وأدلة علمه وحكمته ، واشارت الى مختلف الآيات المفصلات فى الكون ، وذيلت ذلك ببيان أن الغرض منه وصول الناس الى اليقين بعدل الله ، وانهم لا بد ملاقوه فى الآخرة لاقامة عدله فيهم ، ومنح فضله مستحقيهم . وذلك ابرازا لركن الايمان باليوم الآخر ، الذى هو محل انكار مشركى قريش .

٤ ــ ثم عرضت الآيات قدرة الله وعلمه وحكمته فى مجال الأرض الحاحا على نفس الغرض الذى سيقت له الأدلة فى آفاق السماوات .

٥ ــ ثم عرضت الآيات أقوال منكرى ركن الايمان بالبعث واليوم الآخر وناقشتها .

فقد : تعجبوا من البعث ، وتحدوا باستعجال العذاب ، والحوا فى طلب ما يشتهون من معجزات .

وادمجت فى ذلك الحكم عليهم بالكفر . وبيان عقابهم فى الآخرة . وفتحت لهم الأمل بالمغفرة ، وبينت للرسول وظيفته بالنسبة اليهم .

٦ ــ ولما كانت دلائل قدرة الله كافية فى بيان قدرته على البعث ، وهو ما جاء فى الآيات السابقة ، فقد جاءت الآيات بعد ذلك تثبت احاطة علم الله بكل شىء دفعا لتوهم أن الله لا يطلع على كل جزئية من اعمالهم ، أو كل جزئية مما يتفتت من اجسامهم بعد موتهم .

المجموعة الثانية

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ
بِحَمْدِهِۦ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ الصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ
يُجَٰدِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣) لَهُۥ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ
لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا
دُعَآءُ الْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ (١٤) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ
طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (١٥) ۩ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ قُلِ
اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ
هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَٰتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ
شُرَكَآءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَٰحِدُ
الْقَهَّٰرُ (١٦) أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا
وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ
وَالْبَٰطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ
كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ
يَسْتَجِيبُوا لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَافْتَدَوْا بِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ
لَهُمْ سُوٓءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) * أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ
مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَٰبِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ
بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَٰقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ
وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا
الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ
عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ

وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ
﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن
يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ
الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ
إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ
مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ
أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ
وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾

التفسير

قال الله تعالى :

« **هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشىء السحاب الثقال ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال** » .

(أ) اللغة والمعنى المراد :

(هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا) :

(البرق) : ظاهرة اضاءة كونية تتلامع فى السحاب . ومهما يقل العلماء الكونيون فى تعليل حدوثها وفق ناموس الكون ، فانهـا على كل الأحوال من الأحداث الكونية التى تحدث ضمن الأنظمة التى فطر الله كونه عليها .

(الخوف) : انفعال نفسى قلق يرافقه الشعور بالنفور ، ينشأ عن توقع حدوث ما هو مكروه للنفس غير ملائم لطبعها .

(الطمع) : انفعال نفسى قلق يرافقه الشعور بالرغبة ، ينشأ عند الأمل بحدوث ما هو محبوب للنفس ملائم لطبعها .

والمعنى : الله وحده هو الذى يريكم البرق أيها الناس ، اذ خلق فيكم اداة الرؤية وهى البصر . وخلق لكم هـذه الظاهرة الكونية تتلامع فى السحاب على مستوى من الاضاءة يمكن أن تروه بأبصاركم ، وجعل هذه الظاهرة الكاشفة للظلمات والخاطفة للأبصار مقارنة فى الغالب لهطول أمطار قد تكون غيثا مريعا ، وقد تكون مطر سوء ، ومقارنة أحيانا لنزول صواعق محرقة ، أو صواعق مفجرة لبعض الينابيع فى الأرض بقوة هبوطها .

انها ظاهرة عجيبة ، مبهمة الدلالة ، ذات وجهين ، فهى مضيئة كاشفة للظلمات تهدى السبيل ، وهى عنيفة متلامعة تكاد تخطف بالأبصار ، وقد تكون انذارا بشر ، وقد تكون بشارة بخير .

وبين يدى هذا الابهام لا بد أن تنفعل النفس بالخوف حذر ما يمكن أن يعقبه من مكروه ، وأن تنفعل أيضا بالطمع استشرافا لما يمكن أن يعقبه من مرغوب .

وفى هـذا التردد بين انفعالين متضادين صـورة لأعقد الانفعالات العاطفية التى تقلق الانسان ، انها ظاهرة كونية فى أجواء الأرض بديعة الصنع ، تلامس أجواء أخرى داخل نفوس الناس ، فتثير فيها عجبا من الانفعالات المتذبذبة المتضادة ؛ وهذه الظاهرة واحدة من أنظمة الكون الكثيرة الدالة على قدرة الله العظمى ؛ وحكمته الكبرى . وعلمه المحيط .

٢ ـ (وينشىء السحاب الثقال) :

(ينشىء) : الانشاء هو الايجاد على سبيل التربية والتدرج فى مراحل متتابعة ؛ وكلمة **(ينشىء)** فى مجال الحديث عن السحب من أبلغ الكلم ، لأن السحب انما تتكون بقدرة الله من ذرات الأبخرة المتصاعدة فى الجو ، والمتجمعة شيئا بعد شيء .

(السحاب) : اسم جنس واحده سحابة . واصل اشتقاق الكلمة من **(السحب)** وهو الجر ، تقول مشى الرجل يسحب ذيله ، أى يجره ، والسحاب ينجر فى الجو ضمن نظامه الذى وضعه الله له .

(الثقال) : جمع مفرده ثقيلة ، تقول سحابة ثقيلة ، وسحاب ثقال . أى كثيفة ذات وزن ثقيل ، لأنها محملة بالماء الكثير ، فهى مهيأة لافراغ ما فيها من ماء حسب مشيئة الله .

والمعنى : والله وحده هو الذى يجدد باستمرار انشاء السحب ويربيها شيئا بعد شيء ، حتى تكون سحبا ثقالا بما فيها من ماء .

وهذه الظاهرة الكونية الثانية واحدة من أنظمة الكون الكثيرة الدالة على قدرة الله العظمى ؛ وحكمته الكبرى ، وعلمه المحيط .

٣ ـ (ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته) :

(يسبح) : التسبيح شرعا هو تنزيه الله عما لا يليق بجلاله ؛ واثبات بعده تبارك وتعالى عن أن يكون له مثل أو شريك ، أو ضد أو ند ، أو أصل أو فرع ، ونحو ذلك ؛ وكذلك تمجيده وعبادته بذكر : **(سبحان الله)** .

(بحمده) : الحمد لله هو الثناء على الله بجليل صفاته وعظيم احسانه ، وفى التنزيه العام للخالق جل وعلا والثناء العام عليه جمع لصفات الخالق السلبية والايجابية .

(الرعد) : هو الصوت العظيم الذى نسمعه متفجرا فى السحاب ، ويعلل العلماء الكونيون حدوثه بأنه ينشأ من تصادم دقائق الهواء الذى تطرده كهربائية البرق أمامها .

والمعنى : والله وحده هو الذى يسبح الرعـــد له تسبيحا مقترنا بحمده والثناء عليه بصفاته العظمى واسمائه الحسنى ، وهو الذى تسبح له الملائكة من خوف عذابه .

وهنا نتساءل فنقول : ما المراد من تسبيح الرعد وحمده ، مع أنه بحسب الظاهر مخلوق لا حياة له ، ولا علم عنده حتى يسبح ؟ .

ويمكن أن نجيب بأحد جوابين :

الجواب الأول : ان يكون ما فى هذه الظاهرة الطبيعية فى الكون من ادلة على تنزيه الله عن كل ما لا يليق بذاته وصفاته جل وعلا ، ومن أدلة اخرى على ما لله من صفات كمال ، هى بمثابة اللسان الناطق بتسبيح الله وحمده ، يدرك ذلك المتفكرون فى آلاء الله ، فيسبحون الله ويحمدونه .

الجواب الثانى : ان يكون ما نســمعه من صــوت الرعد هو فى الحقيقة تسبيح وحمد لله ، ولكنه صوت لا نتبين حروفه ، ولا نفقه لغته ، وقد اخبرنا الله بحقيقــة دلالات هــذا الصوت ، ومثل ذلك قوله تعــالى : **(وان من شىء الا يسبح بحمــده ولكن لا تفقهون تسبيحهم)** (١) . ويقرب هــذا الى الفهم ما نلاحظه فى آلات تسجيل الصوت . تأمل فيهــا انك اذا سرعت مرور شريط التسجيل فى الجهة التى تنقل اليك الصوت سمعت حروفا متتابعــة لا تتبين دلالتها ، واذا زدت فى السرعة اختفت عنك الحروف نهائيــا ، وسمعت صوتا متلاحقا غير مفهوم ، فاذا ســمعه الجاهل قال : هذا مثل الصرير أو الصفير لا معنى له ، واذا سمعه الخبير قال : هذا الكلام له معنى ، ولكنــه أسرع من قدرة سمعى على الاستيعاب والمتابعة ، ومثل ذلك لو انك بطأت حركة شريط التسجيل فانك تسمع صوتا يشبه صوت الجمل حتى لا تتبين منه اى حرف ، وما ذلك لأنه فى حقيقته ليس كلاما ذا معنى ودلالة ، ولكن لأن سمعك لم يتلاءم معه فعجز عن أن يتبين حروفه ، ولو جئت بجهاز آخر قادر على التقــاط الصوت وجعلت بينهما توافقا فى الحركة لأمكن لهذا الجهاز أن يتبين كل حرف وكل همسة ، ويسجلها لك ثم يسمعك اياها نسخة كالأصل صحيحة لم تنقص حرفا ولم تضع رنة ولا همسة .

أما تسبيح الملائكة فشىء أخبرنا الله عنه نؤمن به كما أخبرنا ، ويبــدو أن للملائكة وظائف خاصة موكولة اليها تقوم بهـــا عند هذه الظواهر الكونيــة الطبيعية ــ البرق والسحب والرعد والصواعق ــ ومن أجل ذلك ابرز القرآن

---

(١) الاسراء الآية ٤٤ .

من خلف أستار المشهد الطبيعى صورة الملائكة ، المرافقة المسبحة بحمد الله ، الخائفة من شهود آثار قدرة الله وقهره ، القائمة بوظائفها حسب أمره .

٤ ـ (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء) :

(الصواعق) : جمع مفرده صاعقة ، والصاعقة كتلة ملتهبة يرافقها صوت انفجار عنيف تهبط من السحاب على الأرض .

ويعلل العلماء الكونيون حدوثها بأن السحب قد تمتلىء بشحنات كهربائية والأرض بشحنات كهربائية أخرى والهواء يفصل بينهما ، فاذا قاربت السحب وجه الأرض تولد من الشحنتين شرارة تتفاوت مقاديرها بحسب الشحنات الكهربائية ، ونسبة التلاقى الذى يحدث بين الشحنتين ، فينشأ من ذلك كتلة متوهجة نارا فتهبط بسرعة فائقة الى الأرض طبق قانون الجاذبية . ومهما يكن من أمر فان الله هو الذى وضع انظمة الكون على أحكم أمر وأبدعه ، وتبارك الله أحسن الخالقين .

والمعنى : وهو وحده الذى يرسل من السحاب الصواعق المهلكة فيصيب بها من يشاء هلكته .

روى ان عامر بن الطفيل واربد بن ربيعة وفدا الى الرسول صلى الله عليه وسلم قاصدين قتله ، فجعل عامر بن الطفيل يجادل النبى صلوات الله عليه ودار اربد بن ربيعة من خلفه بغية أن يغتاله ضربا بالسيف ، فتنبه له رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اللهم اكفنيهما بما شئت ، فأرسل الله تعالى على أربد صاعقة فقتلته وأرسل الطاعون على عامر بن الطفيل فخرجت فيه غدة كغدة البكر ، فآوى الى بيت امراة سلولية ، وجعل يقول وهو فى ساعاته الأخيرة : **(غدة كغدة البكر وموت فى بيت سلولية)** حتى مات .

فنزل قوله تعالى : **(ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء) .**

٥ ـ (وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال) :

(يجادلون فى الله) : الجدال والجدل شدة الخصومة ، وأصله مأخوذ من جدل الحبل وهو احكام فتله ، فكأن المجادل يحاور بما يفعل ان يجلب نده الى رأيه ويفتله معه .

ومعنى (يجادلون فى الله) : يجادلون فى وجوده ووحدانيته وفى عظيم صفاته ، ومنها قدرته على البعث ، واحاطة علمه بكل شىء ، وهذا هو محل مجادلة كفار قريش التى يحاورون ويداورون فيها ، والنقطة الرئيسية فى موضوع البحث الذى تدور عليه السورة .

(**المحال**) : المماحلة وهى قــوة المكر والكيـــد .

والمراد من أن الله شديد المحال ــ والله أعلم ــ انه شديد الانتقام من ذوى الكيد والمكر الذين يماكرون الله والذين آمنوا ، ويبيتون للاســـلام والمسلمين ما يستطيعون من كيد وحيلة ، فيمد الله لهم ثم يوقعهم بشر مكرهم وكيدهم .

(ب) معنى الآيتين (١٢ و ١٣) نصا واقتضاء :

وفى هاتين الآيتين عود الى عرض دلائل قدرة الله المنبثـــــة فى هذا الكون الكبير واختير هنا من الظواهر ما يكون فى العلو القريب بين السماء والأرض ، وهذا ما تمليه براعة الترتيب ، اذ عرضت السورة أولا ظواهر قدرة الله فى العلو البعيد ، وذلك فى سلسلة السماوات السبع وما فيها ثم العرش ، بدءا بالعظيم المحيط الشامل ، وحثا لذوى العقول على التأمل البعيد ، ثم عرضت ثانيـــا ظواهر قدرة الله فى القريب القريب . وهى الارض وما فيها ، فالمدهش البعيد الذى يثير تأمل المتأملين وبحث الباحثين يناظره ويماثله مدهش آخر ، ولكنه قريب قريب ، يغفل عنه الناس لقربه ومداومة النظر اليـــه ، والعيش ضمن أنظمته المستمرة وقوانينه الثابتة .

وهذه ظواهر أخرى ــ برق وسحاب ورعد وصواعق ومن ورائهــا ملائكة تسبح بحمد الله ، وتقوم بوظائفها مع هـــذه الظواهر طبق أوامره ــ ان هـــذه الظواهر واقعة بالنسبة الى الناس بين القريب والبعيد ، وهى تؤدى وظائفها فى القريب ، وتستوحى أوامرها من البعيد المستتر فى سجوف الغيب .

وبعرض هذه الظواهر والاشارة الى ما وراءها استكملت الصورة الفنية البيانية ترتيبها الرائع من جهة التتابع . يضاف الى ذلك ما فى هذه الظواهر من التمهيد للالماح بالوعيد الذى يلوح الله به للمصرين على الكفر ، والمعاندين للرسول ، المكابرين رغم وضوح الادلة وجـــلاء البراهين ، وهو ما فى قوله تعالى : **(ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء)** .

ان فى ظاهرة البرق الذى يثير فى الأنفس الخوف والطمـــع ، وفى ظاهرة انشاء السحب الثقال المخيفة المطمعة . وفى ظاهرة الرعـــــد المقعقع المخيف المطمع ، وفى ظاهرة الصواعق المترقبة بحـــــذر وخوف ، لمجالات واســـعة للمتأملين الباحثين فى دلائل قدرة الله ومحيط علمه وعظيم حكمته وعدله .

ومن البديع الرائع أنه أدمج الحديث عن الملائكة المسبحة من خيفة الله مع صوت الرعد المسبيح بحمد الله استكمالا لعرض الصورة المتحركة ، ما يظهر منها لأعين الناس . وما يخفى عنها مما يشاهده غيرهم .

ولما استكملت الصورة كامل هيئتها ، وأعطت كل دلالتهـا على قدرة الله القادر على الانعام والقادر على الانتقـام ، حسن التعريض بالصواعق التى ترافق تلك الظواهـر فى بعض الأحيان ، فتنزل بالهـلاك على من يشـاء الله هلاكه ، كما حسن ختم هـذه الصورة الرائعة بما يتصل بالأمر الذى سيقت من أجله وهو اقامة الدليل على قدرة الله ، فقال تعالى : **(وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال)** ، أى فعلى الرغم من كل هذه الأدلة المنبثة فى الكون يجد الكافرون لأنفسهم مجـالا للمجادلة فى ذات الله وفى صفاته ، وفى قدرته على بعثهم وحسابهم ، وحينمـا تضيق بهم الحجـة يبيتون الوان الكيد والمكر للرسول ولدعوته وللمسلمين ، وقد كان الأجـدر بهم أن تكفيهم بعض هذه الأدلة ، فلا يطمعنهم امهال الله لهم ليترك لهم أمدا يمسون من بعـده لا عذر لهم يعتذرون به ، اذا لم يرتدعوا فيه عن غيهم ، فان الله شديد المحال شديد المكر والانتقـام .

النص

قال الله تعـالى :

« له دعـوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهـم بشىء الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين الا فى ضـلال ولله يسجد من فى السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال » .

(أ) اللغـة والمعنى المراد :

١ ــ (له دعـوة الحـق) :

أى لله تتجـه دعوة من يدعو بدعوة الحق ، ودعوة الحق هى دعوة المؤمن بالله الذى لا يشرك به أحـدا ، لأنه لا يدعو أحدا غير الله ، ولا يسـأل أحدا الا الله ، ولا يتوكل على أحد الا على الله .

الدعوة والدعاء شرعا : طلب العبـد من ربه على سبيل التذلل والخضوع وهو نوع من العبادة ، وقد جاء فى الحديث أنه مخ العبادة .

والدعاء لغة : النـداء والاستغاثة ، تقول : دعوت الرجل دعوا ودعاء اذا ناديته ، والاسم منه الدعوة ، والدعوة أيضا المرة الواحدة من الدعاء .

الحق : ضد الباطل وقد سبق بيانه في أول السورة ، ولنفهم الاضافة في : (**دعوة الحق**) ومثلها : كلمة الحق ــ دعوة الباطل ــ كلمة الباطل ــ وأمثال ذلك من الاضافات ، نقول حول الجملتين الأوليين : ان كلا من الحق والباطل يشتمل على أشياء كثيرة ، من أقوال وأفعال ومفاهيم وعقائد ، ومن الأقوال دعوة وكلمة ، فالدعوة التي تنسب الى الحق من الأشياء الكثيرة التي يشتمل عليها هي : (**دعوة الحق**) والكلمة التي تنسب الى الحق هي (**كلمة الحق**) أي الدعوة المنسوبة الى الحق والمختصة به ، والكلمة المنسوبة الى الحق والمختصة به .

وبالمقابل يقال مثل ذلك في الدعوة أو الكلمة التي تنسب الى الباطل من الأشياء الكثيرة التي يشتمل عليها ، وعلى هذا المنوال تفهم أمثال هذه الاضافة .

فيكون المعنى أن الله جل وعلا اختص بأن تتجه اليه الدعوة المنتسبة الى الحق ، من جميع انواع الدعاء الذي يدعو به الداعون ، فهو يرعاها بعلمه ، ويمد للداعي بها أيادي رحمته على مقتضى حكمته .

واما دعوة الباطل فهو لا يستجيب لها ، لأنها ليست له ، اذ ليس له من الدعوات الا دعوة الحق .

٢ ــ (والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين الا في ضلال) :

(من دونه) : أي من غير الله .

(يستجيبون) : يقال استجاب له دعاءه ، واستجاب دعاءه .

(في ضلال) ، في ضياع وسير على غير هدى .

ولقد ضرب الله في هذا مثلا لواقع الخيبة التي يصاب بها الذين يدعون من دونه ، أي والذين يدعون من دون الله لا يستجيب لهم شركاؤهم بشيء الا استجابة كاستجابة الماء الذي لا يعقل ولا يحس انسانا شديد الظمأ متلهفا باسطا كفيه اليه من بعد يدعوه ويرجوه أن يبلغ فاه ليشرب منه دون أن يتخذ الوسائل التي يمكن أن تنفعه ، فلا هو عائد الى رشده ، ولا الماء بالغ الى فيه ، أو حالهم كحال باسط كفيه الى الماء دون أن يحمل الى فيه من الماء شيئا بكفه أو بآنية وسيلة تحمل الماء .

ما أروع مشهد هذا المثل في الدلالة على مبلغ جهالة الذين يدعون من دون الله وخيبة أعمالهم ومساعيهم ، وفي ايراده مورد الاستثناء الذي يوهم

اثبات شيء من الاستجابة ثم ينتهي بالتمثيل الى تأكيد معنى النفى الذى سبق الاستثناء لون بديع من التهكم .

وما دعاء الكافرين الا فى ضلال ، فكل دعاء لهم ضائع يسير على غير هدى ، ولا يجد له مستجيبا ، فهو تائه يسير الى مجهول ، وذلك لأنهم وجهوه الى شركائهم الذين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، ولا يسمعون لهم ولا يبصرون ، ولم يوجهوه الى الله الذى بيده كل شيء وهو السميع البصير ، ولئن وجهوه الى الله مع شركهم فان الله لا يستجيب لهم عقوبة لهم على ما اكتسبوا من اثم كيف يلبيهم وقد جعلوا معه شركاء مما خلق يعبدونهم كعبادة الله ؟

وقد جيء بهذا التعميم فى قضية كلية كتفريع على التمثيل ، اى فاذا كان مثلهم ما سبق فكل دعاء يدعو به الكافرون فى ضلال .

٣ ـ (ولله يسجد من فى السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال) :

(يسجد) : السجود فى الأصل وضع الجبهة على الأرض على سبيل الاحترام والتعظيم ، وفيه تعبير مادى عملى عن نهاية الخضوع القلبى والنفسى . والمراد بالسجود فى الآية ما يشمل نهاية الخضوع المادى والمعنوى سواء أكان بالارادة أو بدونها ، وسواء أكان مع الرغبة أو مع الكره .

(من فى السماوات والأرض) : اى جميع المخلوقات العقلاء فى السماوات والأرض ، وقد استفيد العموم من اسم الموصول .

(طوعا) : الطوع هو كمال الانقياد والاستسلام مع عدم الرغبة بالمعارضة ، فالمطيع من المكلفين لأمر التكليف هو المنقاد بالارادة ، الذى لا يجد فى نفسه من ذلك حرجا ، والمطيع لأمر التكوين هو المستسلم بلا معارضة لنفوذ المشيئة فيه .

(كرها) : الكره والكره بفتح الكاف وضمها هو ضد الرغبة بالشيء ، وقد يصاحبه انقياد واستسلام لعدم القدرة على المعارضة ، ودفع الأمر المكروه .

واذا نظرنا الى كل شيء فى الكون نظر الباحث المتأمل وجدناه ساجدا لله سجودا معنويا ؛ اى هو فى نهاية الخضوع والاستسلام لمشيئة الله فيه ، وذلك لأن مشيئة الله نافذة فى كل شيء ، فهو يحيى من يشاء ويميت من يشاء ، ويصرف كل شيء على ما يريد فى السماوات والأرض ، دون أن يستطيع شيء

منها معارضة ارادة الله فيه . اليس هذا هو نهاية الخضوع والاستسلام الذى يعتبر السجود العملى المادى — وهو وضع الجبهة على الأرض على سبيل التعظيم من ذوى الارادة — صورة معبرة عنه ؟

ولدى التأمل فى هذا السجود المعنوى الذى هو الانقياد التام لنفوذ المشيئة الربانية نلاحظ أن منه ما يرافقه الرغبة بهذا الاستسلام والانقياد . وهو ما يحصل فى قلوب المؤمنين من المحبة لما تتعلق به مشيئة الله ، والرضا التام عن قضائه وقدره ، ومنه ما لا يرافقه رغبة ولا كراهية . وذلك كنفوذ مشيئة الله فيما لا حس عنده ، كالأحداث التى تجرى بخلق الله فى السماوات والأرض ، وهذان الأمران مشمولان بمعنى السجود الطوعى ، ولكن الأول مستسلم مع الرغبة ، والثانى مستسلم مع عدم الكراهية لأنه لا رغبة ولا كراهية عنده ، وكلاهما فى حقيقة حاله طائع .

ويزيد المؤمن انه بجانب ما هو فيه من سجود معنوى نافذ فيه دون ارادته فانه يسجد لله سجودا ماديا وسجودا قلبيا اراديا معبرا بذلك عن عبادته لربه ، ونهاية خضوعه له ، ورضاه عما يجرى به قضاؤه وقدره .

وهناك قسم ثالث وهم الذين تنفذ فيهم مشيئة الله وهم لذلك كارهون ، كالكافر مثلا غير قادر على معارضة مشيئة الله فيه ودفع قضائه وقدره عنه ، وهو لكثير مما يحدث له منها كاره ، ولو استطاع المعارضة لفعل . وكل هذه المعانى مع حواش لها كثيرة يمكن أن يفهمها المتدبر فى قوله تعالى : **(ولله يسجد من فى السماوات والأرض طوعا وكرها)** .

أما قوله تعالى : **(وظلالهم بالغدو والآصال)** فهذا البيان حوله :

(الظلال) : جمع مفرده ظل وهو الخيال الذى يظهر للأشياء التى لها جسم .

(الغدو) : جمع مفرده غداة وهى أول النهار .

(الآصال) : جمع مفرده أصيل وهو ما بين العصر الى غروب الشمس .

أى : وظلال من فى السموات والأرض تسجد لله بالغدو والآصال .

أما المراد من سجود ظلال من فى السماوات والأرض ، فهو نفوذ مشيئة الله فيها التابع لنفوذ مشيئة الله فى الأجسام التى هى ظلال عنها ، وكون السجود حاصلا بالغدو والآصال هو كناية عن الدوام والاستمرار .

وهذا النص يفتح أمامنا مجال بحوث علمية واسعة فى الأجسام ومقادير كثافاتها استدلالا من ظلالها التى تحدث نتيجة تسليط منبع ضوئى عليها .

ويدلنا هذا النص أيضا على أن الملائكة والجن أجسام لأن الله قد أثبت لها ظلالا ، وان كنا فى مستوى ما وهبنا الله من قدرة بصرية لا نستطيع بحسب العادة رؤية أجسامها ولا ظلالها ، والله أعلم .

(ب) معنى الآيتين (١٤ ، ١٥) نصا واقتضاء :

وفى معترك الخوف والطمع فى النفس الذى أثاره جو البرق والسحاب الثقال والرعد والصواعق لا حيلة للعباد العاجزين عن أن يتصرفوا فى أحداث الكون على ما يريدون الا أن يلتجئوا بالدعاء الى القوة القاهرة من وراء الظواهر .

ان المهيمن على الخلائق من وراء الحجب المادية ليشهد صنفين من الأدعية تقذف بها حناجر الداعين .

اما دعوة الحق فصاعدة الى الله واصلة اليه ، يعلمها ويستجيب لمن دعا بها بحق على مقتضى حكمته .

واما دعوة الباطل فضائعة ضالة تمزقها الحيرة ، ولا تستطيع أن تصل الى الله لأنها ليست له ، ولا تجد من دون الله من يسعفها ويتلقفها لأن الذين من دونه عاجزون عن أن يجلبوا النفع لأنفسهم أو يدفعوا الضر عنها ، فضلا عن أن يسعفوا غيرهم ممن يستجير بهم ، وهل من دون الله مجير ؟

فما أخيب دعاء من يدعون من دون الله ، انهم لا يأتون البيوت من أبوابها ، ولا يسلكون السبيل التى توصلهم الى النتيجة التى يرجونها ، فمثلهم كمثل الظامىء الملتهب عطشا يبسط كفيه الى الماء من بعد ظانا أن هذه الوسيلة كافية لبلغ الماء فاه ، فهل يستجيب الماء له فيسعفه ؟ انه لن يستجيب له وان دعاه وان رجاه وانه ليس ببالغه .

وكذلك دعاء الكافرين ، سواء أكانوا منكرين الله أو مشركين به انه دعاء ضائع لا يحقق شيئا مما يرجون ، يرجون النجاة ولا يسلكون مسالكها .

ولماذا لا يدعون الله وحده مؤمنين به لا يشركون بعبادته احدا ؟ وهو الذى يجيب دعوة من دعاه بحق وهو أقرب اليهم من حبل الوريد ، وهو القادر على كل شىء السميع البصير .

افيستكبرون عن عبادته والالتجاء اليـــه ؟ وله يسجد من فى السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم على سبيل الاستمرار ، اذ كل من فى السماوات والأرض فى نهاية الخضوع والاستسلام اليه ؛ نافذة فيهم مشيئته طائعين أو كارهين ، فهو المتصرف فيهم ، وكذلك ظلالهم نافذة فيهـــا مشيئة الله تبعـــا لنفوذ مشيئته فيهم وفى الكون من حولهم ، كما أن كل شىء فى الكون ساجد لله بهذا المعنى نافذة فيه مشيئة الله ولذلك لما قال الله للسماوات والأرض ائتيـــا طوعا أو كرها ، قالتا : أتينا طائعين .

واذ كان واقع النـــاس وواقع الكون كله كذلك فما الذى يجعل الكافرين يتركون عبادة الله أو يشركون به ، ويتجهون الى غيره يرجـون من أمره وهو وحده الذى بيده كل أمر ؟ .

لم لا يكملون واقعهم غير الارادى النافذ فيهم بأعمـــال ارادية أمرهم الله بها من سجود له ، وخضوع لأوامره ونواهيه ، والتجاء اليه وحده بالدعاء ؟ ان هذا هو سبيل العقلاء لو كانوا يعقلون .

النص

قال الله تعـــالى :

(قل من رب السماوات والأرض ؟ قل : الله . قل : أفاتخذتم من دونه أولياء لايملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا . قل : هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوى الظلمـــات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل : الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار (١٦)) .

(أ) اللغة والمعنى المراد :

١ ــ (قل من رب السماوات والأرض ؟ قل : الله) .

الرب لغة : هو المالك ، والسيد المطاع ، والصاحب ، والمربى . فرب الدار أى مالكهـــا .

وقول صفوان بن أميـــة لأبى سفيان يوم حنين : (لأن يربنى رجل من من قريش أحب الى من أن يربنى رجل من هوازن) أى لأن يسودنى . ويقال عن النســاء هن ربات الحجال أى صاحبات الحجال .

والرب فى الأصل مصدر كالتربية ، والتربية انشاء الشىء حالا فحالا الى حد التمام ، يقال : ربه يربه ربا ورباه يربيه تربية وربيه يربيه تربيبا ، ثم استعيرت كلمة (رب) من المصدرية الى اسم الفاعل ، ولما كانت التربية الحقيقية لله تعالى

لأنه هو الذى يخلق الأشياء وينشئها طورا فطورا كان الأحق بأن يطلق عليه انه **(الرب)** أى الخالق المنشىء .

ومن حق الخالق المنشىء المربى أن يكون هو المالك والسيد المطاع والاله المستحق للعبادة ، لذلك فاذا أطلقت كلمة الرب لم يجز أن يراد بها غير الله تعالى .

وللاحظة معنى الخلق والانشاء فى كلمة الرب جاء معنى الملك والالهية بحكم المرتبين على مضمون معناها فى سورة الناس : اذ يقول تعالى : **(قل أعوذ برب الناس ملك الناس اله الناس)** اى فمن كان ربا لابد أن يكون مالكا ومليكا ولابد أن يكون الها مستحقا للعبادة ومثل ذلك فى سورة الفاتحة : **(الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين)** .

والمعنى : اسألهم يا محمد : من خالق السماوات والأرض ومنشىء كل شىء فيهما وممده بالتربية والنماء حتى يبلغ مرتبة كماله .

وذلك ليحدد موقفهم من توحيد الربوبية لله تعالى ، فان اقروا بأن الله هو الرب وحده فانتقل بهم الى نقطة الخلاف وهى نقطة توحيد الألوهية .

وبما أن معظم مشركى العرب يعتقدون بتوحيد الربوبية وانما ينكرون توحيد الألوهية قال الله لنبيه : **(قل : الله)** أى أعلن الاتفاق معهم على هذه النقطة الأساسية من نقاط مجادلتك اياهم لاقامة الحجة عليهم والزامهم بالحق الذى تدعوهم اليه .

٢ ـ (قل : أفأتخذتم من دونه أولياء لايملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؟):

(أفاتخذتم من دونه أولياء ؟) : اى افاتخذتم غير الله الذى سلمتم بربوبيته أولياء ؟

(أولياء) : جمع ولى ، والولى والمولى فى كلام العرب واحد . ومن معانيه فى كلامهم الناصر والرب والمالك والسيد والمنعم والمحب والتابع وكل من ولى امرا أو قام به فهو مولاه ووليه ، والمشركون قد اتخذوا من دون الله أولياء ، أى جعلوا الشركاء اربابا وسادة ومالكين ومنعمين وناصرين ولذلك عبدوهم ، وكلما حزبهم امر التجأوا اليهم وطلبوا منهم على سبيل الدعاء .

(لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا) : اى لايملك هؤلاء المعبودون من دون الله لأنفسهم أن يجلبوا لها نفعا أو يدفعوا عنها ضرا ، وكذلك لا يملكون ان يجلبوا لها ضرا على فرض أنهم أرادوا لها ذلك .

والمعنى : قل : كيف تتخذون لكم سادة ونصراء وأربابا تعبدونهم من دون الله وترجون نفعهم وتخشون ضرهم بعد أن أقررتم بتوحيد الربوبية لله تعالى : وتوحيد الالوهية لازم عقلا لتوحيد الربوبية ، فكيف تقرون بالملزوم ثم تخالفون فى لازمه العقلى .

٣ – (قل : هل يستوى الأعمى والبصير ؟) :

(الأعمى) : صفة مشبهة من عمى ، وهو فى العيوب الظاهرة فاقد البصر ولكنه فى العيوب الباطنة فاقد البصيرة وهو محل الذم .

(البصير) : صفة مشبهة من بصر والمراد صاحب البصيرة العارفة التى تبصر الحقائق .

والأعمى والبصير لفظان استعيرا للجاهل والعالم ، والمراد منهما هنا الكافر الموغل فى الجهالة فهو الأعمى ، والمؤمن العارف بربه فهو البصير ، وهو خطاب يتضمن فى معاريضه تبكيتا لهم اذ اختاروا لأنفسهم العمى على البصر ، وثناء للمؤمنين لذ اختاروا لأنفسهم البصر ، كما ان فيه دفعا للمشركين أن يتركوا ماهم عليه تخلصا من العمى .

٤ – (أم هل تستوى الظلمات والنور ؟) :

أى وقل لهم : هل تستوى الظلمات والنور ، وقد استعيرت لفظة الظلمات للدلالة على انواع الجهالات ، والمراد منها جهالات الكفر ، كما استعيرت لفظة النور للدلالة على العلم والمعرفة ، والمراد منه هنا الايمان بالحق الذى جاء من عند الله لأنه هو العلم الذى لا يداخله جهل ولا شك فى حقيقته ، رغم أن كثيرا من الناس لا يؤمنون به .

وفى هذا خطاب على طريقة الاستفهام كما فى سابقه ، الا ان الأول تعريض بالأشخاص وفى هذا تعريض بالمعتقدات . ويلاحظ انه قد جمعت الظلمات وافرد النور والحكمة فى ذلك أن سبل الضلالة متعددة شتى واما صراط الحق فواحد .

٥ – (أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟) :

(شركاء) : أى اربابا اشتركوا مع الله فى صفة الخلق والانشاء والابداع والايجاد من العدم .

(خلقوا كخلقه) : الخلق : اصله التقدير المستقيم ، ويستعمل فى ابداع الشىء على غير مثال سبق ، وفى ايجاده من العدم ، ويستعمل ايضا فى ايجاد الشىء من الشىء وفى تحويل الشىء من صورة الى صورة ، ويستعمل ايضا بمعنى الكذب والافتراء .

والخلق بمعنى الايجاد والتكوين والابداع لا يستعمل مضافا الى غير الله ، وقوله تعالى لعيسى عليه السلام : ﴿ **واذ تخلق من الطين كهيئة الطير** ﴾ (١) هو بمعنى التحويل من صورة الى صورة لا بمعنى الايجاد . والمراد فى الآية هنا المعنى الخاص بالله وهو الايجاد والابداع .

﴿ **فتشابه الخلق عليهم** ﴾ : أى فتماثل فى نظرهم خلق الله وخلق شركائهم .

والمعنى : أم هم يعتقدون ان الذين يعبدونهم من دون الله هم شركاء حقيقيون لله فى ربوبيته ، خلقوا مثل خلق الله ، فأوجدوا مخلوقات مثل ما أوجد ، وابدعوا مثل ما أبدع ، فتشابه عندهم خلق الله وخلق هؤلاء الشركاء ومن اجل ذلك عبدوهم واتجهوا اليهم فى دعائهم .

فان كانوا كذلك فأقم لهم الحجة على النقطة الأولى وهى توحيد الربوبية ، وبناء على هذه النقطة من نقاط مجادلة المشركين قال الله لرسوله :

٦ ـ ﴿ قل : الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ﴾ :

﴿ **الله خالق كل شيء** ﴾ : قضية كلية تفيد أن كل شيء فى الوجود الحادث مخلوق لله تعالى بلا استثناء فلا مجال لأن يكون لأحد غير الله خلق فيه .

﴿ **وهو الواحد القهار** ﴾ : هما اسمان من أسماء الله الحسنى .

﴿ **فالواحد** ﴾ : أى الواحد فى ذاته المنفرد بالخلق والربوبية .

﴿ **القهار** ﴾ : صيغة مبالغة للقاهر ، والقهر الغلبة والسلطان ، فالله هو الذى له القدرة الغالبة على كل شيء ، ومن له صفة القهر فهو الرب حقا . فيكون فى قوله تعالى : ﴿ **قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار** ﴾ اشارة الى ثلاث نقاط للاستدلال على توحيد ربوبية الله تعالى :

الأولى : كون كل شيء فى الوجود مخلوقا لله تعالى .

الثانية : كون الله واحدا فى ذاته منفردا فى ربوبيته .

الثالثة : كون الله قهارا غالبا ، ومن له القهر على كل شيء فهو الرب حقا .

وتفصيل ادلة هذه النقاط الثلاث جاء موزعا فى القرآن الكريم ، وقد ترك للرسول بيان ذلك للمشركين فى اقامة الحجج لهم على توحيد الربوبية لله تعالى .

---

(١) المائدة الآية ١١٠ .

(ب) معنى الآية (١٦) نصا واقتضاء :

لقد تضمنت الآيتان السابقتان لهذه الآية معالجة المشركين بوسائل الاقناع التى تكشف لهم عدم جدوى ما هم به مستمسكون ليسهل عليهم ترك ماهم عليه من باطل ، ومتابعة الحق . وهى أول مرحلة من مراحل الهجوم على عقائدهم ، بعد أن كان الموقف فى أول السورة موقف الدعوة الهادئة ، فالدفاع عن مبادئها أمام هجمات المشركين بأقوالهم التى سبق بيانها ، مع وجوه الرد عليها .

أما فى هذه الآية فان مرحلة الهجوم على باطلهم تشتد اذ تتخذ اسلوب المجادلة بالحق أولا ثم تنتقل الى شىء من العنف فى معاريض القول ، ففيها يعلم الله نبيه كيف يجادل المشركين ليردهم بالبرهان القاطع الى توحيد الألوهية ، وذلك بنقلهم من الحقائق المسلم بها الى حقائق اخرى لازمة لها لزوما عقليا ومرتكزة عليها بحكم البداهة . وذلك بأن يضع المشركين أمام احتمالين لا ثالث لهما بالنسبة الى ما هم عليه من الشرك :

الاحتمال الأول : ان يكونوا ممن يعتقدون أن الله رب السماوات والأرض ، اى خالقهما وممدهما بأيادى نعمته وتربيته على الدوام وهؤلاء معظم كفار العرب ، ولذلك قال الله لرسوله فى غير هذه السورة : **(ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله)** (١) .

وهذا الاحتمال هو ما اشار اليه صدر الآية بقوله تعالى : **(قل : من رب السماوات والأرض ؟ قل : الله)** .

الاحتمال الثانى : أن يكونوا ممن يعتقدون تعدد الخالقين ، وان لشركائهم خلقا مثل خلق الله ، وان ما خلقوه مختلط مع آثار خلق الله من غير تمييز ، وهذا الاحتمال هو ما أشار اليه اخر الآية بقوله تعالى : **(أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم . قل : الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار)** .

أما على الاحتمال الأول فيقول الله لرسوله فيه : قل لهم على سبيل الاستفهام لتنتزع منهم الاقرار : من رب السماوات والأرض ؟ وبما أنهم ممن يعتقدون توحيد الربوبية وانما ينكرون توحيد الألوهية فلا بد أن يقولوا فى جواب السؤال **(الله)** وهذه نقطة اتفاق بينك وبينهم مسلم بها ، فأعلنها كما يعلنونها ، وأثبتها كما يثبتونها : **(قل : الله)** اى هو الله .

---

(١) الزمر الآية ٣٨

ثم انتقل بهم من هذه النقطة المسلم بها الى النقطة الأخرى التى هى محل خلافهم وهى توحيد الألوهية ، وعند هذه النقطة لايجد الموحد كبير عناء فى اقامة الحجة على وجوب توحيد الألوهية عقلا بعد التسليم بتوحيد الربوبية ، لأن من تفرد بأنه هو الرب أى الخالق المنعم القادر على كل شىء ، والذى بيده النفع والضر والحياة والموت وكل من عداه مخلوقون له فلابد ان يكون هو وحده المستحق للعبادة وهو وحده الذى اذا دعى أجاب .

ومتى ازمتهم الحجة البينة حق لك ان توجه اليهم النقد اللاذع اذا اصروا على شركهم ، فقل لهم : **(أفاتخذتم من دونه أولياء لايملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؟)** وهو استفهام انكارى يتضمن الانكار الشديد عليهم فى اتخاذهم من دون الله أربابا ونصراء يعبدونهم كعبادة الله ، مع انهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، فضلا عن ان يملكوا شيئا من ذلك لكم ، واذ وضحت الحجة ، ودمغهم البرهان ، وما زالوا يصرون على الباطل ، فاكشف لهم أن طريقة الموحدين هى طريقة العقل السديد ، والمنطق الرشيد ، والبصر النافذ الى حقائق الأمور ، وهجر الظلمات والسير فى النور . أما طريقة المشركين فهى طريقة الجهل والضلالة ، والعمى الفكرى عن الحقائق وترك النور والسير فى الظلمات . وهيهات هيهات أن تستوى طريقة هؤلاء وطريقة أولئك ، ومن ثم فان يستوى هؤلاء وأولئك ، والفرق بينهما كالفرق بين الأعمى والبصير ، والفرق بين طريقتيهما كالفرق بين الظلمات والنور .

واذ كان الأمر كذلك فاضرب لهم مثلين :

احدهما : يوضح الفرق بين الموحد العالم بأصول عقيدته وبراهينها ، وبين المشرك الذى يخبط فى أخلاطه الاعتقادية على جهل .

وثانيهما : يوضح الفرق بين الحقائق الجلية التى يؤمن بها الموحدون وبين الجهالات التى تمسك بها المشركون ، فقل لهم :

(هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوى الظلمات والنور ؟) .

واما الاحتمال الثانى : وهو الذى اشارت اليه الآية بقوله تعالى : **(أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟)** أى أم هم ممن جعلوا لله شركاء فى ربوبيته ، وزعموا بأن هؤلاء الشركاء قد خلقوا مثل خلق الله فاختلطت عليهم مخلوقات الله بمخلوقات الشركاء فاشتبه عليهم الأمر ، فحيرهم ، فأوقع فى انفسهم انهم قد يكونون مخلوقين من قبل هؤلاء الشركاء ، أو أن بيدهم رزقهم أو حياتهم أو أى شىء يتصل بهم مما ينفعهم او يضرهم ومن اجل ذلك عبدوهم والتجأوا اليهم بالدعاء .

فان كانوا كذلك فابدأ بهم من نقطة التوحيد الأولى ، وهى توحيد الربوبية ، فأثبت لهم أن الله خالق كل شيء ، وانه هو الواحد القهار ، الذى تنفذ مشيئته فى كل شيء بسلطان القوة والقهر ، وليس لأحد مشاركة الله فيما يقضى به او يأمر أو يخلق ، فقال تعالى :

(قل : الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار) .

وقد اجمل الله لرسوله فى هذا النص نقاطا ثلاثا من الاستدلال على توحيد الربوبية فصلها وبسطها فى متفرقات من القرآن العظيم .

ولما كان الكلام هنا فى معرض الحديث عن الذين ينكرون توحيد الألوهية ويثبتون توحيد الربوبية حسن الاقتصار على الاشارة العابرة الى ادلة توحيد الربوبية الذى جاء التعرض اليه ضمن الاحتمال الثانى ، وقد جيء بالاحتمال الثانى اصلا استكمالا لأصول البحث والمناظرة .

النص

قال الله تعالى :

« أنزل من السماء ماء فسالت به أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال » . (١٧)

(أ) اللغة والمعنى المراد :

١ — (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها) :

(من السماء) : اى من جهة العلو بالنسبة الى الأرض ، والمراد السحاب .

(ماء) : اى مطرا .

(أودية) : جمع واد ، وأصل الوادى الموضع الذى يسيل فيه الماء ، ومنه سمى ما بين الجبلين واديا .

(بقدرها) : بمقدار سعتها لاستيعاب الماء ، كل بحسبه ، فالكبير بمقدار كبره والصغير بمقدار صغره . وقد أسند فعل **(سال)** الى الأودية والمراد مياه السيول فيها اشعارا بانغمار الأودية بالمياه وبشدة تدفق السيول حتى ليخيل للناظر ان الوديان — اى الأمكنة — تسيل من قوة تدفق الماء .

والمعنى : ان الواحد القهار انزل من السماء ماء غزيرا كثيرا فسالت سيول عارمة مالئة أوديتها ، كل واد منها بمقدار سعته .

٢ ـ ﴿ فاحتمل السيل زبدا رابيا ﴾ :

﴿ **احتمل** ﴾ : أى تكلف الحمل أخذا من صيغة (**افتعل**) وفى هذا اشعار بمغالبة الماء للزبد الذى يختلط فيه ، أو يقتلعه من مجراه فيحتمله ليقذفه على شاطئيه .

(**زبدا**) : الزبد هو ما ينفيه الماء عن جوهره بالحركة ويحتمله على سطحه من شوائب تنتفخ بالهواء ، فيربو مظهرها ، وتبرق الوانها ثم تنطفىء وتظهر حقيقتها التافهة حينما يقذف بها الماء على شاطئيه .

(**رابيا**) : أى ناميا زائدا ، وفى هذا تصوير لما يحدث فى الزبد من انتفاخ مظهره بسبب حركة الأمواج التى تقذف به لتنفيه عن الماء .

٣ ـ ﴿ ومما يوقدون عليه فى النار ﴾ :

(من) فى (مما) لابتداء الغاية أو للتبعيض أى وبعض ما يوقد الناس عليه فى النار ، وهى المعادن واشباهها ، ويقوى معنى التبعيض أن الناس يوقدون على أشياء لا زبد لها كالطين ليصير فخارا .

وفى قوله تعالى : ﴿ **فى النار** ﴾ مع العلم بذلك من قوله (**يوقدون**) تصوير للحاجة الى الوقود الزائد على المعادن حتى تنصهر .

٤ ـ ﴿ ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ﴾ :

(**الحلية**) : اسم لكل مايتزين به من مصاغ الذهب والفضة ونحوهما ، وجمعها حلى وحلى ، بكسر الحاء وضمها مع فتح اللام .

(**المتاع**) : كل ما ينتفع به على أى وجه من وجوه الانتفاع ، ويقال لما ينتفع به فى البيت من آنية وأوعية متاع .

والناس فى صناعاتهم يوقدون على المعادن واشباهها ، لصهرها ابتغاء صنع ما يتزينون به أو يتمتعون به فى حاجاتهم للسلم أو للحرب ، وما يصهر منها يربو عليه زبد خبيث شبيه بزبد الماء .

٥ ـ ﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل ﴾ :

اى مثل ذلك الذى أورده الله فى المثلين السابقين يضرب الله الأمثال للحق والباطل .

٦ ـ ﴿ فاما الزبد فيذهب جفاء ﴾ :

﴿ **جفاء** ﴾ : قال ابو حيان : مضمحلا أى متلاشيا لا منفعة فيه ولا بقاء له . وقال ابن الأنبارى : متفرقا ، وقال الزمخشرى : يجفؤه السيل أى

يرمى به ، وجفأت القدر بزبدها ، واجفأ السيل . وقال ابن سيده فى معرض بيانه لكلمة جفاء : وعندى انه من النبو والتباعد .

٧ — (واما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض) .

اى واما ما ينفع الناس من الماء الصافى والجواهر النقية فيثبت ويبقى لينتفعوا به .

٨ — (كذلك يضرب الله الأمثال) :

اى مثل ذلك الذى أورده الله فى المثلين السابقين يضرب الله الأمثال لأنصار الحق وانصار الباطل .

(ب) معنى الآية (١٧) نصا واقتضاء :

وبعد ان يصل الرسول صلوات الله عليه الى نهاية مرحلة الهجوم الكلامى المهذب على باطل المشركين فان من المفروض حتما أن يجد نفسه فى مرحلة جديدة من الصراع مع المكابرين ، انها مرحلة الصراع بين حق يغالب ليظهر ويبسط فى الأرض عدله ونوره ، وباطل يدافع عن وجوده غير المشروع ، ومبطلين يصارعون الحق المبين ليحافظوا على مكاسب ظالمة ما كانوا ليصلوا اليها لولا ظلمات الباطل الذى يدعمونه ، ويعلنون أحقيته كذبا وبهتانا .

لكن هذا الصراع مهما طالت مدته فلابد أن يظهر فيه الحق على الباطل ، ويكون له الاستقرار والاستمرار فى الأرض ، وان بدا للباطل ظهور فارغ فى أول الأمر ، وانتفاخ طاف على السطح ، حتى يغتر به الجاهلون ، وينخدع بزيفه المغفلون ، الا انه لا يلبث انيقذف به الى جوانب الحياة مهملا مستقذرا لا قيمة له .

وما مثله الا كمثل الزبد التافه يصارع المادة النافعة فى عنفوان حركتها ، فيطفو عليها مدة يسيرة ثم لا يلبث أن يذهب جفاء ، واما المادة النافعة فانها تمكث وتستقر بثقلها ورجاحتها لينتفع بها الناس .

هذا ما صورته هذه الآية باسلوبها البديع المفاجىء ، فبعد جو المجادلة الذى صورته الآية السابقة تأتى المفاجأة فى هذه الآية بقوله تعالى : **(أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا)** كأن السورة قد انتقلت الى موضوع آخر جديد لا صلة له البتة بما قبله ، لكنه لا يلبث هذا الانتقال فى الأسلوب المفاجىء حتى يعود الى الربط بصلب الموضوع ، ويستكمل مراحل مواجهة التحدى بين الحق والباطل ، وبين انصار الحق وجنود الباطل ، اذ يقول تعالى : **(كذلك يضرب الله الحق والباطل)** ثم يقول : **(كذلك يضرب الله الأمثال) ..**

أما موقف الصراع العنيف بين الحق والباطل والمحقين والمبطلين مع بيان نتيجته فقد أورده الله فى هذه الآية على صورة مثلين ماديين مشاهدين جمعا فى صـــورة مثل واحد لتشابههما فى الشكل وفى النتيجة ، وبيانهما فيما يلى :

المثل الأول : هو مشهد من المشاهد الكونية يلاحظه الذين يعيشون فى متقلب الأحوال الجوية فى البوادى بين الســـهول والجبال والوديان ، انه مشـــهد ميـــاه غزيرة تنزل من الســـماء بقضـــاء الله فتعم السهل والوعر والجبل ، فتجتمع منحصرة بين الجبال ، هابطة من كل مرتفع حتى تملأ الأودية وتسيل فيها سيلا عنيفا مخيفا ، يخيل للناظر اليه أن الأودية تسيل أيضا مع تدفق الماء ، ويصطرع الماء فى مجراه مع اشـــواك وأعواد يابســـة وأكوام قمامات كان لها بروز وظهور فى الوديان وعلى السطوح وفى المرتفعات فيقتلعها ويحتملها ، فيكون لها بروز آخر على سطوح المياه لخفتها وطيشها، وترغى وتزبد فيغتر بهـــا الجاهلون ثم تســـفر المعركة عن قذف هذا الزبد الطافى ، وطرحه الى الشاطئين تافها مستقذرا ينتظر البلى ، وأما الماء الطهور الذى ينفع الناس فيمكث فى مجاريه ومساربه من الأرض .

المثل الثانى : هو مشهد آخر من المشاهد التى يلاحظها أرباب الصناعات داخل مصانعهم مهما كانوا بعيدين عن أجواء البوادى وتقلباتها الكونية ، انه مشهد المعادن واشباهها التى يصهرونها بواسطة النار التى يوقدونها عليها ، انهم يلاحظون زبدا آخـــر يطفو على سطوح منصهراتهم بعد أن يشتد صراع الغليان بين الجوهر النافع وبين الشوائب المفسدة ، اما الجاهل فربما يظن ان الزبد هو الشيء الثمين لبروزه أو لتلامع الوانه ، لكن الخبير العارف يسرع اليه فيقذف به خارجا لينقى معدنه من اخلاطه ، ويصفى جوهره من خبثه ، وأما ما يمكث من دون السطح فيحتفظ به ، لأنه هو الجوهر النافع الثمين .

وكذلك مثـــل الصراع بين الحق والباطل **(كذلك يضرب الله الحق والبـــاطل)** . وكذلك مثل الصراع بين المحقين والمبطلين **(كذلك يضرب الله الأمثال)** فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض .

النص

قال الله تعالى :

((للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد)) . (١٨)

أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟

انما يتذكر اولو الألباب (١٩) .

الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق (٢٠)

والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . (٢١)

والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار . (٢٢)

جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . (٢٣)

سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار . (٢٤)

والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار » . (٢٥)

(أ) اللغة والمعنى المراد :

١ – (للذين استجابوا لربهم الحسنى) :

(استجابوا لربهم) أى اجابوا دعوته فيما دعاهم اليه من عقيدة وشريعة ، والاجابة تكون بحسب الطلب فاجابة طلب القول تكون بالقول واجابه طلب الفعل تكون بالفعل وهكذا .

تقول لغة : استجاب له واستجابه بمعنى اجابه فيما طلب منه والغالب فى صيغة (استفعل) أن تكون للطلب والسؤال كاستغفر الله اى طلب من الله المغفرة ، وقد تخرج عن معنى الطلب كما فى استحجر الطين اى صار حجرا ، وكما فى فعل استجاب بمعنى اجاب ، ويحتمل ان يقال ان الأصل فى معنى استجاب طلب الاجابة من نفسه ، اى رغب بها واتجه اليها فهو يطالب نفسه دائما بالقيام بالأعمال التى تجعله مجيبا دعوة ربه حقا ففيه على هذا معنى مجاهدة النفس باستمرار لتلبية دعوة الله الى الايمان والعمل الصالح

(الحسنى) : مؤنث أحسن (افعل تفضيل) وهى صفة لموصوف محذوف للايجاز وليذهب الذهن فى تقديره كل مذهب كريم ، والحسنى هى المثوبة الحسنى التى هى أحسن ما يوصف بالحسن ، وتكون مثوبة المستجيبين لربهم معجلة فى الدنيا ومؤجلة الى ما بعد الموت ، والمؤجل منها قسم منه يكون فى البرزخ ، وقسم آخر منه يكون فى موقف العرض

والحساب والقسم الأخير الأكمل يكون فى الجنة ، واقسام المثوبة كلها تدخل فى عموم قوله تعالى : **(للذين استجابوا لربهم الحسنى)** .

والمعنى ان الله اعد المثوبة الحسنى للذين استجابوا لربهم فيما دعاهم اليه من عقيدة وشريعة .

٢ ـ (والذين لم يستجيبوا له لو ان لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به . أولئك لهم سوء الحساب وماواهم جهنم وبئس المهاد) .

(والذين لم يستجيبوا له) : هم الكافرون الذين استنكفوا عن أن يجيبوا دعوة ربهم الى الايمان وصالح العمل .

(لو ان لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به) : أى لو كانوا يملكون جميع ما فى الأرض ومثله معه لبذلوه فداء أنفسهم مما تستحق من عذاب الله وذلك حينما تنكشف عنهم حجب الحياة الدنيا ويشهدون ما أعد الله لهم من جزاء على كفرهم .

يقال لغة : فديته وفاديته وافتديته بكذا أى بذلت هذا الشىء لتدفع أو لترفع عنه نائبة ملمة ولتحميه منها بما بذلت من نفس أو مال أو أى شىء آخر .

وما قيمة امتلاك الدنيا وامثالها معها اذا خسر الانسان نفسه فمسه العذاب ، انه لو كان يملك ذلك لبذله فداء نفسه من عذاب الله فى جزائه العادل ، لكنه لا يملك شيئا ، ولو كان يملك لم ينفعه البذل يومئذ ، فقد انتهى دور الابتلاء وجاء دور الجزاء ، ويظهر ان هذه الحالة وما يرافقها من حسرة وندامة تبدأ منذ اللحظات الأولى لموته وانتقاله من الحياة الدنيا الى البرزخ ، اذ يمسه عذاب البرزخ ، وينكشف له مستقره فى النار ، ويكون هذا فى المرحلة الأولى من مراحل العذاب .

(أولئك لهم سوء الحساب) : أى سوء من الحساب باعتبار الاضافة على تقدير **(من)** أو الحساب السيىء على اضافة الصفة الى الموصوف ، والاصل الحساب السوء أى السيىء . والحساب السيىء يكون بالمناقشة والتدقيق على كل صغيرة وكبيرة ، لأنهم بكفرهم لا يستحقون الغفران والتجاوز عن السيئات ويكون هذا فى المرحلة الثانية من مراحل العذاب .

(وماواهم جهنم وبئس المهاد) : وهذا فى المرحلة الأخيرة من مراحل العذاب .

(ماواهم) : اى المكان الذى يأوون اليه يوم القيامة فهو اسم مكان من اوى ، تقول : اوى الى كذا يأوى أويا ومأوى . أى انضم اليه .

(**جهنم**) : اسم علم من أسماء النار التى اعدها الله ليعـذب بها الكافرين والعصاة ، وهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث . ويقال للقعر البعيـد جهنم وجهنام وبئر جهنم وجهنام بكسر الجيم والهاء وتشديد النون أى بعيدة القعـر .

وبعض اللغويين يرون لفظ جهنم اعجميا . فقيل : فارسى معرب ، وقيل : عبرى وأصله بالعبرانية كهنام ، وعلى هـذا فالمانع له من الصرف العلميـة والعجمـة .

(**بئس**) : فعل جامد لانشاء الذم وهو منقول للدلالة على معنى الذم من بئس بفتح الباء وكسر الهمزة اذا أصاب بؤسا .

(**المهـاد**) : المكان الممهد الموطأ . واطلق على مكانهم فى جهنم مهاد على سبيل التهكم ، لأن الشيء الممهد المفروش لهم فى النـار انما هو العـذاب الشديد ، وليس هذا من التمهيد ولا التوطئة ، ولكنه عكس ذلك .

(**المهـاد**) : المكان .

والمعنى : والذين كفروا اذ لم يستجيبوا لربهم سيشهدون عـذابا حالهم فيـه كما يلى :

أولا : لو كانوا يملكون ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتـدوا به . أى : لقدموه فداء انفسهم مما استحقت من عقاب . ويبدأ هـذا منـذ بدء فترة البرزخ بين الموت والبعث . اذ يشهدون فيهـا مصيرهم ، وينالون فيها من العذاب ما الله به عليم .

ثانيا : أولئك لهم سوء الحساب . اذ يحاسبون يوم القيامة حسابا سيئا شديدا عسيرا .

ثالثا : ومأواهم جهنم وبئس المهاد . اذ يكون فيهـا مستقرهم الأخير . فيأوون اليها قهرا وقسرا . ويستقرون منهـا فى مكان قد هيىء لعذابهم ، وبئس المهاد الذى اعد لهم ليأووا اليه مهادهم فى دار العذاب .

٣ ــ (أفمن يعلم انما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو اعمى ؟) :

أى : (**أفمن يعـلم أنما أنزل اليك من ربك الحق**) وهو المؤمن المستجيب لدعوة ربه الذى عمل بمقتضى علمه فآمن بالله وبالرسول وبأن ما أنزل اليه من ربه هو الحق الذى لا ريب فيه (**كمن هو أعمى**) وهو الكافر غير المستجيب لربه ، فهو منطمس البصيرة لا لب له كالأعمى . لأنه باستنكافه عن التأمل فى

دلائل الحق قد عطل اداة البصيرة فيه ، وهو عقله ، فكان هو وفاقدها سواء ، او باستنكافه عن الاستجابة لدعوة الحق بعد معرفته قد اخل بمقتضى علمه فكان هو والجاهل سواء ، ثم هو فى هذه الحالة وفاقد البصيرة سواء ، وعلى كل حال فأقل ما يمكن أن يشبه به انه كالأعمى ، بل هو الأحق بهذا الوصف لانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

٤ ــ **(انما يتذكر اولوا الألباب) :**

(يتذكر) : التذكر هو استحضار المعلومات السابقة فى القوة الذاكرة الانسان .

(الألباب) : جمع مفرد لب ، ولب الانسان عقله ، ولب كل شيء خالصه وخياره المتغلغل فى داخله ، ومنه سميت القوة العاقلة المتبصرة بالأمور والباحثة عن الحقائق والمتذكرة للمعارف لبا .

ويظهر لى ان ايراد معنى التذكر هنا دون مطلق العلم والمعرفة ــ فى صدد الكلام على نفى التسوية بين من يعلم أن ما انزل الى الرسول من ربه الحق ومن لا يعلم ذلك فهو بسبب جهله أو عدم استجابته كالأعمى ــ لا بد أن يكون للدلالة على أمر زائد على مجرد العلم المؤدى الى الاستجابة والتطبيق ، فما هو هذا الأمر الزائد ؟ هناك احتمالان :

الاحتمال الأول : ان نقول : ان ما اودع الله فى العقول من أصول ثابتة توزن بها الأشياء الفكرية ، فتميز بها بين الحق والباطل فاذا عرضت عليها قضية من القضايا العقلية وازنتها بهذه الأصول الثابتة فأقرتها أو رفضتها أو وضعتها فى مجال متابعة البحث العلمى ، وما تتوصل اليه من معرفة جديدة بعد هذه الموازنة هو بمثابة تذكر الأمور المنسية التى سبق العلم بها ، وذلك لانكشاف الملاءمة بين الحقيقة المعروضة وبين الأصول الثابتة فى العقل ، وانما يتذكر هذا التذكر أولو الألباب .

الاحتمال الثانى : ان نقول ان العهد الذى اخذه الله على عباده وهم فى عالم الذر ، وهو العالم الروحى الأول قبل ايجادهم فى هذا التكوين البشرى المهيئين فيه للابتلاء فى الحياة الدنيا اذ قال لهم يومئذ : **(ألست بربكم ؟ قالوا بلى)** كان له أصول فطرية وعلمية ثابتة فى أرواح الناس والبابهم الموغلة فى اغوار مواطنهم ، التى لا يتذكرون صورها فى عقولهم الظاهرة ، وما انزل على الرسول من الحق انما هو صورة لذلك العهد القديم الذى أخذه الله عليهم لقد نسوه ، ولكن بقيت فى البابهم أصوله الفطرية والعلمية الثابتة فهم لا يستطيعون أن يتذكروا كيف اخذ عليهم العهد ، ولكنهم اذا عرض عليهم الحق

استطاعوا ان يتذكروا انه حق ، فهو جزء مما فطرت عليـه عقولهم والبابهم ، وما أكثر ما مرت علينا في حياتنا منذ طفولتنـا حوادث لا نستطيع ان نذكرها مهما ذكرنا بها ، ولكنها خلفت فينا اصولا فكرية ثابتة نستفيد منها في كثير من اعمالنا الارادية ، وغير الارادية . واشارة الى ذلك قال تعالى : **(انما يتذكر أولو الألباب)** أى انما يتذكر هذا التـذكر اصحاب العقول المبصرة والقلوب الواعيـة .

٥ — (الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق) :

(يوفون) : من اوفى الرباعي ، ويقال لغة ايضا : وفى يفي وفاء فهو واف ، والوفاء بالشيء اتمامه بلا نقص ، ومنه الوفاء بالعهد ، اى اتمام ما كان عليـه العهد دون انقاص منه او اخلال به واوفى الكيل اذا اتمـه .

(بعهد الله) : العهد يطلق لغة على الوصية . يقال : عهـد فلان الى فلان في كذا ، اى اوصاه به ، ويطلق على ما يلتزم المرء فعله نحو غيره التزاما مؤكدا ويطلق على الميثـاق واليمين التى تستوثق بها ممن يعاهدك . وعهـد الله : وصاياه التى أوصانا بها في شريعته من عقيدة أو خلق او قول أو عمل ، والوفاء بها اتمام فعل ما أمرنا به واجتنـاب ما نهانا عنـه ، والاضافة على هذا من اضافة المصدر الى فاعله .

او عهد الله : ما التزمه المؤمنون على أنفسهم لله من الايمـان والطاعة حين اعلنوا اسلامهم ونطقوا بالشهادتين ، أو ما أقر به العباد وهم في عالم الذر اذ قال الله لهم : **(ألست بربكم؟ قالوا بلى)** (١) . فقد اخذ بذلك عليهم العهد ان يؤمنوا به ويسلموا له ، والاضافة على هـذين الوجهين في معنى عهد لله من عباده ، ففاعل العهد هم الناس ، والموجه له العهـد هو الله جل وعلا ، وهو الذى يثيب على الوفاء به ويعاقب على نقضه أو الاخلال به .

وهذا اول سلوك عملى رفيع يتحلى به المؤمنون الذين جاء وصفهم في الآية السابقة بأنهم اولو الالباب ، فهم يوفون بعهد الله فيتمون فعل ما أوصاهم به الله من أوامر ، ويتمون اجتناب ما نهاهم عنـه من نواه ويتمون ما عاهدوا الله عليه من الالتزام بحق الربوبية وحق الالوهية عليهم .

(ولا ينقضون الميثاق) : النقض ضد الابرام يقال : نقض البنـاء اذا نثر عقده ، ونقض الحبل اذا حله ، ونقض العقد اذا نثر حباته .

---

(١) الأعراف الآية ١٧٢

(**الميثاق**) : على وزن (**مفعال**) العقد المؤكد بيمين وعهد ، وهو مأخوذ من الوثاق ، وهو فى الأصل حبل أو قيد يشد به الأسير قال تعالى : (**فشدوا الوثائق** (١) .

والمعنى : ولا ينقضون أى ميثاق يعطونه لاحد . وهذه من الخصال الحميدة التى يتحلى بها المؤمنون الذين جاء وصفهم فى الآية السابقة بأنهم أولو الألباب .

٦ - (**والذين يصلون ما امر الله به أن يوصل**) :

(**يصلون**) : الوصل ضد القطع والفصل . ويستعمل فى الأشياء المادية . فتقول : وصلت الشيء بالشيء اذا جمعته به وضممته اليه حتى اتحدا ، ويستعمل فى المعانى ، فتقول : وصلنى فلان اذا زارك أو قدم اليك معروفا ، أو اهدى اليك هدية ، أو أعطاك عطاء ، أو نحو ذلك .

وما امر الله به ان يوصل أمور كثيرة ، فمنها ما يلى :

(أ) ((**صلة الرحم**)) : وفى الحديث النبوى عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**الرحم متعلقة بالعرش تقول : من وصلنى وصله الله ومن قطعنى قطعه الله**) .

(ب) (**صلة الاخوان فى الله**) : ويدخل فيها التزاور والتهادى وعيادة المريض والمساعدة بالقرض الحسن ، والمواساة بالنفس أو بالمال والبشر والبشاشة ، والبدء بالسلام والتعاون على الخير . وحسن المعاشرة والمصاحبة، والاكرام بأنواع الصلات المادية ابتغاء وجه الله ، وتمكين أواصر الحب فى الله كما يدخل فيها النصيحة والتعليم والارشاد ، وكل ما فيه نفع وخير .

(جـ) ((**صلة كل مسلم**)) ويدخل فيها اكرام الضيف ، وحسن الجوار ، وحسن المعاملة . ولين الجانب . وبذل المعونات لكل ذى حاجة ، والسلام على من عرفت ومن لم تعرف . ورد التحية بأحسن منها ، وبذل الجاه فى وساطة مشروعة أو شفاعة مأذون بها فى الدين ، ودفع الأذى والضر عنه ومساعدته فى كل بر .

(د) ((**صلة كل ذى روح**)) : ويدخل فيها الرفق بالحيوان ، واكرامه واطعامه وسقيه ، ودفع الأذى عنه . وعدم تكليفه مالا يطيق ، وحسن معاملته. وهكذا المؤمنون أولو الألباب لا يجدون بابا من أبواب الخير الا ويدخلونه ولا

---

(١) محمد الآية ٤

منقطعا أمر الله بأن يوصل الا ويصلونه ، وفى هـذا الوصف تمكين لوحدة الجماعة . ولأواصر الاخاء والمحبة ، كما أنه ينم عن خلق رفيع ، متمتع بغيرية سامية تحب الخير لكل من خلق الله ولكل ما خلق ، ويلذ لهـا أن تبذل المعونة والمساعدة لذوى الحاجات .

٧ ــ (ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب) :

(يخشون) : الخشية خوف يشوبه غالبا تعظيم واجـلال وحب واكثر ما يكون عن علم بما يخشى منه . ولذلك خص العلماء بها فى قوله تعـالى : (انما يخشى الله من عباده العلماء) .

والمؤمنون أولو الألباب يخشون ربهم فى جميع أحوالهم وباستمرار ، وذلك لعلمهم بجلال ذاته . وعظم صفاته . فهم يعظمونه ويحبونه ويخافون قدرته وقهره وعقابه .

(ويخافون سوء الحساب) : أى ويخافون ان يحاسبوا يوم القيامة حسابا سيئا . وذلك بأن يناقشوا على كل صغيرة وكبيرة ؛ وفى الحديث الصحيح : **(من نوقش الحساب عذب)** فهم يخافون من الأعمال التى تؤدى بهم الى سوء الحساب ، لذلك فهم يبتعدون عنها ويتجنبونها ، ومن خاف من شىء ابتعد عنه ، ومن خاف نتيجة ابتعد عن أسبابها .

ولما كان المؤمنون أولو الألباب يعلمون من مقتضى عـدل الله أن سـوء الحساب لا يكون الا مسببا عن سوء أعمال يقترفها المذنبون ، فانهم يخافون باستمرار من الأسباب مثل خوفهم من المسبباب ، لذلك فهم يبتعدون عنها ويتجنبونها دائما ، ويحاسبون انفسهم على أعمالهم فى الدنيا ، قبل أن يحاسبوا عليها يوم الدين .

٨ ــ (والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم) :

(صبروا) : الصبر حبس النفس وامساكها على أمر فى فعله مشقة على النفس أو عن أمر فى تركه مشقة عليها ، فحبس النفس على تحمل المصيبة صبر يضاده الجزع . وحبس النفس على تحمل مقاتلة العدو شجاعة يضادها الجبن ، وحبس النفس على متابعة العمل داب يضاده الكسل والملل ، وحبس النفس عن تلبية شهواتها المحظورة صبر عن المعاصى ، وحبس النفس على القيام بمشقات الأعمال المبرورة صبر على الطاعات ، وحبس النفس على الرضا بما يجرى بقضاء الله وعن الضجر والتسخط عليه صبر على المصائب ؛ وفى كل ذلك أجر عظيم اذا كان الصبر ابتغاء وجه الله ، أى ابتغاء الوجه الذى يرضى الله والجهة التى فيها طاعته .

ومن صفات المؤمنين أولى الألباب أنهم يصبرون فى كل أمرهم ابتغاء وجه ربهم ..

وقد استعمل الفعل الماضي في قوله تعالى : (**صبروا**) اشارة الى أنهم قد امتحنوا بما يتطلب منهم الصبر فأثبتوا أنهم صابرون ، وذلك اذ امتحنوا بالجهاد في سبيل الله فصبروا ، وامتحنوا بالفروض والواجبات فصبروا على أدائها ، وامتحنوا بالنهى عن المحرمات فصبروا عنها .

٩ ــ (وأقاموا الصـــلاة) :

(**أقاموا**) : يقال لغة : أقام الشيء اقامة اذا أدامه وواظب عليه ، ويقال أيضا : أقام الشيء اقامة بمعنى جعله مستقيما معتدلا مستويا .

(**الصلاة**) : لغة هي من الله لعباده الرحمة ومن النـــاس والملائكة الدعاء والاستغفار . وشرعا هي العبادة المخصوصة المأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم التى تفتتح بالتكبير وتختتم بالتسليم و (ال) فى الصلاة للعهد ؛ أى الصلاة المعهودة شرعا بأركانها وشروطها وسننها وآدابها .

ومعنى أقاموا الصلاة : واظبوا عليها وأدوها بشروطها وأركانها وسننها وآدابها مع الخشوع والمراقبة لله المطلوبين فيها ، فان اقامتها أى جعلها مستقيمة معتدلة لا تتم الا بذلك .

واستعمل الفعل الماضى فى (**أقاموا الصلاة**) للدلالة على ما تحقق من حال هؤلاء المؤمنين أولى الألباب من اقامة للصلاة التى هى عماد الدين ، وركنه الركين ، الذى لا يفارق حال المؤمن مبتدئا من الماضي ومستمرا مع الزمن .

١٠ ــ (وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية) :

(**انفقوا**) : أى بذلوا أموالهم فى وجوه البـــر التى حث الله على البذل فى سبيلها ، والانفاق فى وجوه البر يكون واجبا كالزكاة ، وكالنفقة الواجبة ؛ ويكون تطوعا كالصدقات العامة والهدايا .

(**مما رزقناهم**) : أى مما أعطيناهم وهيأنا لهم فى الأرض من مال ومتاع ؛ ومن صفات هؤلاء المؤمنين أولى الألباب أنهم ينفقون مما رزقهم الله سرا وعلانية، ويكون الانفاق سرا اذا كانت الصدقة من قبيل صدقة التطوع ، أو كان يدفع زكاته الى الفقراء مباشرة ؛ ويكون السر في هذا أفضل من العلانية لأنه أقرب الى الاخلاص وأبعد عن الرياء ، ولأن فيه صيانة لكرامة الفقراء الذين يؤذيهم الاعلان فيها ، وقد جاء فى الحديث أن صدقة السر تطفىء غضب الرب ؛ ولعل فى تقديم لفظ (سرا) على (علانية) اشارة الى أفضلية الاسرار وان كانت الواو لمطلق الجمع كما يقرر ذلك علماء العربية . ويكون الانفاق علانية اذا كان

المنفق يدفع زكاته الى جابى الزكاة المفوض بجبايتها من قبل أولى الأمر ، أو الى جهة عامة تتولى هى توزيع أموال الزكاة على المستحقين .

والنكتة فى استعمال الفعل الماضى فى **(وأنفقوا مما رزقناهم)** مثلها فى قوله تعالى : **(واقاموا الصلاة)** كما سبق بيانه ، وذلك لأن ركن الزكاة مقارن فى الاسلام لركن الصلاة لا يكاد ينفك أحدهما عن الآخر .

١١ ـ **(ويدرءون بالحسنة السيئة)** .

(يدرءون) أى يدفعون ، يقال لغة : دراه يدرؤه درءا ودراه اذا دفعه .

والمعنى يدفعون بفعل الخصلة الحسنة اثر الخصلة السيئة ، ويدخل فى عموم هذا أمور منها ما يلى :

(أ) أن يبادروا الى التوبة و فعل الطاعات اذا فرط منهم معصية ، ففى حديث معاذ بن جبل قوله صلى الله عليه وسلم : **(وأتبع الحسنة السيئة تمحها)** ويقول الله تعالى : **(ان الحسنات يذهبن السيئات)** (١) .

(ب) أن يدفعوا السيئة التى يخشونها من الناس بالاحسان اليهم كان يدفعوا الجهل بالحلم . والأذى بالصبر والعفو ، وفى هذا يقول الله تعالى : **(ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم . وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم)** (٢) .

(جـ) أن يدفعوا السيئة التى يخشونها من الشياطين ومن كل ذى شر بحسنة الاستعاذة بالله وصدق الالتجاء اليه والاتكال عليه .

(د) أن يدفعوا المصائب والبلايا والعقوبات الربانية عن انفسهم بما يقدمونه من صدقات وخيرات وأعمال بر .

(هـ) أن يدفعوا المنكر الذى يشاهدونه بالنهى عنه بالحكمة والموعظة الحسنة .

١٢ ـ **(أولئك لهم عقبى الدار)** :

(العقبى) : مصدر كالعاقبة ، والعقبى ايضا الجزاء على الفعل وسمى الجزاء عقبى لأنه يكون عقب الفعل .

(الدار) : المراد منها دار الدنيا ، وعاقبة الدار الدنيا بالنسبة الى المحسنين هى الجنة التى جاء بيانها فى صدر الآية التالية ، والاضافة فى : **(عقبى الدار)** على هذا المعنى على تقدير اللام أى عقبى للدار الدنيا ويجوز أن يكون المراد من الدار الجنة فتكون الاضافة فى : **(عقبى الدار)** اما على تقدير **(فى)** أى عقبى

---

(١) هود الآية ١١٤

(٢) فصلت الآية ٣٤ ، ٣٥

فى الدار وهى الجنة ، والعقبى فيها ما أعده الله فيها من نعيم مقيم ، واما على تقدير **(من)** أى عقبى من الدار وهى الجنة ، واما على أن الاضافة لفظية من باب اضافة المصدر الى فاعله ، والمعنى : أولئك لهم أن تعقب الدار التى هى الجنة ما قدموه من صالح فى الدنيا .

هذا : ويظهر لى أن المراد بعقبى الدار مراتب عالية فى الجنة متنوعة النعيم والتكريم ، وهى فى امكنة تأتى عقب الأمكنة الأولى التى تكون فى أول دخول الجنة ، وكل مرتبة من هذه المراتب المتنوعة تسمى جنة ، ولذلك بين جل وعلا المراد من عقبى الدار بقوله تعالى عقب ذلك **(جنات عدن)** وفى خاتمة بيان صفات المؤمنين الذين بدأ الكلام عليهم بأنهم أولو الألباب أثبت الله جل شأنه ما أعد لهم من عاقبة كريمة فى الدار الآخرة وألمح علو منزلتهم اذ أشار اليهم باشارة البعيد فقال تعالى : **(أولئك لهم عقبى الدار)** ثم بين هذه العاقبة الكريمة بقوله تعالى :

١٣ ــ (جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) :

(جنات) : جمع جنة ، والجنة مكان النعيم الذى أعده الله لثواب المحسنين فى الدار الآخرة ، وقد جمعت الجنة هنا على جنات اشارة الى أقسام ومراتب داخل الجنة وأن كل قسم منها وكل مرتبة يسمى جنة أيضا ، وقد جاء فى الحديث قوله صلى الله عليه وسلم لاحدى الصحابيات : انها ليست بجنة ولكنها جنان .

(عدن) : أى استقرار وثبات وخلود ، يقال عدن بمكان كذا عدنا اذا أقام به واستقر فيه .

(يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) : أى هذه الجنات ذات المراتب العالية داخل دار النعيم فى الآخرة يدخلها هؤلاء المؤمنون أولو الألباب الذين سلفت صفاتهم ويدخلها معهم الحاقا بهم واكراما لهم من صلح من آبائهم ، والمراد بذلك ما يشمل أمهاتهم أيضا ، ومن صلح من أزواجهم ، ومن صلح من ذرياتهم ، وذلك ليتم لهم السرور بالاجتماع بأهلهم فى دار النعيم ، ولكن الشرط فى دخول هؤلاء هذه الجنات العاليات ذات المراتب الرفيعة داخل الجنة أن يكونوا ممن صلحوا فى الدنيا نوع صلاح اذ آمنوا بالله وبما جاء من عنده فاستحقوا بايمانهم دخول الجنة ، ثم انهم ترفع منزلتهم داخل الجنة اكراما من الله لأقربائهم المحسنين أولى الألباب ، ليأنسوا بلقائهم ، ويكمل بهم نعيمهم

وهذا نوع من الشفاعة فى الدار الآخرة للمحسنين اذ يكون به رفع الدرجات فى منازل النعيم لذوي قرابتهم ويشهد لهذا المعنى قول الرسول صلوات الله عليه لأحد أصحابه وقد أحزنه أن لا يكون مع الرسول فى الجنة لبعد المرتبة بينهما اذ قال له الرسول : **(المرء مع من أحب)** .

(والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) : أى وملائكة التكريم يدخلون عليهم من كل باب من ابواب هذه الجنات أو من ابواب قصورهم فيها وهم يقولون لهم : **(سلام عليكم بما صبرتم)** اى بسبب صبركم أو بدل صبركم الذى صبرتموه عن الشهوات التى فيها معصية الله ، وعلى الطاعات وفعل الخيرات والجهاد فى سبيل الله ، وعلى قضاء الله وقدره فيما ابتلاكم به من مصائب وملمات ؛ فنعم عقبى الدار هذه العقبى التى نلتموها وفزتم بها بالنعيم المقيم .

ومعنى الباء فى : **(بما صبرتم)** ، بسبب ما صبرتم أو بدل وعوض ماصبرتم ؛ وعندى أن البدلية فى مثل هذا المقام تحمل معنى الجزاء لأن الجزاء من الله بدخول الجنة انما يكون بالفضل لا بالبدلية ، ففى الحديث يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : **(لن يدخل احدكم عمله الجنة)** قالوا ولا انت يا رسول الله ، قال : **(ولا أنا الا أن يتغمدنى الله برحمته)** .

١٤ ــ (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما امر الله به ان يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار)

وفى مقابل أولى الألباب المؤمنين الذين سبق بيان صفاتهم يأتى الكافرون الذين عطلوا ألبابهم عن وظيفتها الأساسية فلم تعقلهم عن الفساد والشر ؛ ولم تدفعهم الى الاعتراف لله بكمال ربوبيته وألوهيته ، فكانوا بمثابة من لا ألباب لهم ، وقد جاء الكلام على هؤلاء ببيان صفاتهم مقابل صفات أولئك .

(أ) فاذ كان المؤمنون أولو الألباب يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق فان هؤلاء الكافرين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، فهم يجحدون بالله ويستنكفون عن عبادته ويعصونه فيما أمرهم به ونهاهم عنه .

(ب) واذ كان المؤمنون أولو الألباب يصلون ما أمر الله به أن يوصل فان هؤلاء الكافرين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل فيجافون كل خير وبر وفضيلة .

(جـ) واذ كان المؤمنون أولو الألباب يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ويصبرون ابتغاء وجه الله ويقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة ، فان هؤلاء الكافرين يفسدون فى

الارض فى مقابل كل تلك الفضائل التى يفعلها المؤمنون والتى فيها صلاح واصلاح فى الأرض ، فهم لا يخشون الله ولا يخافون سوء الحساب ، من أين يأتيهم ذلك وهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر .

وهم لا يصـــبرون ابتغاء وجه الله ولا يقيمون الصــلاة لأنهم دنياويون لا يرقبون ثوابا منه ولا يتوقعون عقابا .

وهم لا ينفقون أموالهم فى ســبيل الله لأنهم أشحاء أنانيون لا يتحسسون الا بمطالب أنفســـهم .

وهم لا يدرءون بالحسنة السيئة بل يبدءون بالسيئة كلما وجدوا فى ذلك مصلحة لهم ، مهما يكن فيه ضرر بغيرهم وافساد فى الأرض ، لذلك فلا بد أن يكون جزاؤهم من الله أمرين :

١ ــ اللعنة : وهى الطرد من رحمة الله .

٢ ــ سوء الدار : واذ كانت عقبى الدار الحسنة للمؤمنين هى الجنـــة ، فلا بد ان يكون فى مقابل ذلك ســـوء الدار للكافرين النـــار ، وهى دار العذاب التى أعدها الله لعقاب الكافرين والعاصين أعاذنا الله منهـــا ومن كل ســـوء .

(ب) معنى الآية (١٨ ــ ٢٥) نصا واقتضاء :

وبعـــد أن وصل الصراع بين المحقين والمبطلين الى قمته ، وهو ما صوره المثلان اللذان عرضتهما الآية السابقة (١٧) وانتهت السورة بانتصار الحق ودعاته على الباطل وجنـــوده فى بدافع المستقبل القريب تطلب سياق البيـــان الرفيع فى السورة أن يزاح الستار عن المستقبل البعيد لمشاهدة عاقبـــة أهل الباطل ، وعاقبة أهل الحق فى الدار الآخرة بارزا فيها فضل الله وعدله ، مع بيان الأسباب التى دعت ان يمنح الله فضله طائفـــة من عباده فيجعلهم من أهل الجنة والكرامة ، وأن يوقع عقابه فى طائفة اخرى من عباده فيجعلهم فى العذاب خالدين ، فقال تعالى : **(للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد)** . وقد أبان جل وعلا بهذه الآية العاقبة الحسنى فى الدار الآخرة التى ينالها المستجيبون لدعوة ربهم وهم المؤمنون ، والعاقبـــة السيئة التى يرتطم بهـــا الذين لم يستجيبوا له وهم الكافرون الذين صارعوا الحق وأهله . وتتجلى العاقبـــة الســـيئة لهؤلاء فى ثلاث مراحل من مراحل العـــذاب :

المرحلة الأولى : مرحلة ما بعد الموت وهى فترة البرزخ الواقعـــة ما بين الموت الى البعث . وفى هذه المرحلة يشهدون من العذاب النازل بهم والعذاب، الذى ينتظرهم ما تبلغ حالهم معه او ان لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معـه لافتدوا به ، كيف لا تكون حالهم كذلك ؟ وقد خسروا كل شىء حتى انفسهم ، وما قيمة كل شىء يملكه الانسان اذا كان قد خسر نفسه ورماها فى العذاب ؟

المرحلة الثانية : مرحلة يوم الحساب ، وتكون هذه المرحـلة بعد البعث وقبل دخول أهل الجنة الجنة ، ودخول أهل النار النار ، وفى هذه المرحـلة يشهدون اونا قاسيا من الوان العذاب ، الا وهو **(سوء الحساب)** اذ يحاسبون على كل صغيرة وكبيرة ، وكل جزئية وكلية كانت قد سلفت منهم فى الحيـاة الدنيـــا .

المرحلة الثالثة : وهى مرحـلة المأوى الأخـــير بعـد موقف الحســاب والجزاء ، اذ يكبهم الله فى جهنم ، ويجعلهـــا مأواهم ومستقرهم وفراشهم الممهد لهم بألوان العــذاب المادى والمعنوى ، وبئس المهــاد مهادهم الذى يفترشونه ويستقرون فيه **(ومأواهم جهنم وبئس المهاد)** .

وقد رأينا فى هذه الآية مجمل ما يلاقيه المؤمنون من جزاء حسن وذلك فى قوله تعالى : **(الحسنى)** كما رأينا نبـذة من تفصل ما يلاقيـه الكافرون من جزاء سيىء ، وذلك فى قوله تعالى :

١ ـ **(لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به)** .

٢ ـ **(أولئك لهــم ســوء الحســاب)** .

٣ ـ **(ومأواهم جهنم وبئس المهــاد)** .

ولكن البيان الرفيع يستدعى الكشف عن هــذا التفريق فى نوعى الجــزاء طبق قانونى الفضل والعدل الربانيين كما يستدعى تفصيل ما حصل الاجمال فيه بهذه الآية ، والختم باجمال ما جاء فيه تفصيل ، استكمالا لأسلوب تقابل الأضداد ، واحتباك المعانى . ولذلك أتبعت هذه الآية ببيان السبب الداعى الى كون العاقبة الحسنى فى الآخرة هى جزاء المؤمنين ، والعاقبـــة السوأى فى الآخرة هى جزاء الكافرين . فقال تعالى : **(أفمن يعلم انما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟)** أى : كيف لا يستدعى العدل هذا التفريق فى الجـزاء يوم الدين ؟ والمؤمن قد استعمل ما وهبه الله من عقل وبصيرة بالأمور فبحث وناقش وعلم أن ما انزل اليك من ربك الحق ، والكافر قد عطل ما وهبه الله من عقل أو كابر فجحد بعـد ما علمه فكان أدنى منزلة من الجاهل الذى عطل

عقله ، وهو في كلتا حالتيه كالأعمى ، بل هو جـدير حقـا بأن يطلق عليه انه أعمى ، سواء عطل قوة بصيرته فاستمر في الجهـالة أو كابر عن معرفة فكان أسوأ حالا من الجاهلين .

وفي قوله تعالى : **(أفمن يعلم أنمـا أنزل اليك من ربك الحـق كمن هو أعمى ؟)** ربط بين مع ما بدأت به السورة اذ قال تعالى في مطلعها : **(تلك آيات الكتاب والذى انزل اليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون)** .

ثم فصل سبحانه وتعالى في الآيات التاليـة واقع حال كل من المؤمنين والكافرين ببيان صفات الأولين التي رفعت منزلتهم ، وجعلتهم أهـلا للجزاء بموجب قانون الفضل الالهى . وببيـان صفات الآخرين التي حطت منزلتهم وجعلتهم يستحقون الجزاء بموجب قانون العـدل الالهى فقال تعـالى : **(انما يتذكر أولو الألباب)** أى لا يتذكر تذكرا مؤديا للعظة الا أصحاب العقول الكاملة الذين يعرضون كل أمر على ما أودع الله في عقولهم من أصول ثابتـة تعرف بها حقـائق الأشـياء . فيميزون بهـا بين الحق والبـاطل والخير والشر ، وبخاصة حينما تأتيهم بيانات الشريعة بأحكامهـا ، فتكشف لهم ما كانوا عنه غافلين ولأصوله ناسـين .

أما صفات أولى الألبـاب الذين يستعملون ألبابهم فيما خلقت له فهـذا اجمالها وتتلخص في تسع صفات :

الأولى : **(الذين يوفون بعهـد الله)** فيؤمنون به ، وينفـذون وصاياه المبينة في شريعته لعباده ، ويلتزمون بتطبيق ما عاهدوا الله عليـه من ايمـان وعمل صالح ، لأنهم أولو ألباب كاملة يتبصرون بحقائق الأمور وبواطنها .

الثانية : **(ولا ينقضون الميثاق)** أى ميثاق يعطونه لأحد سواء أكان مع الله أو مع عباده لأنهم مؤمنون أولو ألباب كاملة ، ومن كان كذلك كان عارفا بالله فهو يخشـاه ، فلا ينقض ميثاقا أمره الله بالوفاء به ، وفي هذا الوصف تعميم بعد تخصيص .

الثالثة : **(والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل)** فهم أبرار لا يجـدون منقطعـا أمر الله بأن يوصل الا وصلوه ، ولا يجـدون بابا من أبواب الخـير الا دخلوه ، وهم انما يعملون الخير ابتغاء مرضاة الله ، وعملا بأوامره ، فيصلون بأنواع الصلات المـادية والمعنوية الرحم والاخوان في الله وسـائر المسلمين وجميع ما خلق الله من انسان ودابة ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

ويفهم من قوله : **(ما أمر الله به ان يوصل)** أن ما امر الله به أن لا يوصل فانهم يقطعونه ولا يصلونه ، لذلك فهم يحبون فى الله ويبغضون فى الله ، ويسالمون ما امرهم الله بالسلم ، ويحاربون ما امرهم الله بالحرب ، ويوادون من امر الله بموادتهم ، ويهجرون من أمر الله بمقاطعتهم وهجرهم ، لا تأخذهم فى شيء من ذلك لومة لائم ، ولا يمنعهم عن شيء منه عتب عاتب .

الرابعة : **(ويخشون ربهم)** فهم يعرفون الله فيعظمونه ويحبونه ويرهبون جانب عدله فلا يتجاوزون حدوده .

الخامسة : **(ويخافون سوء الحساب)** لأنهم يؤمنون باليوم الآخر وما فيه والايمان باليوم الآخر من اهم الامور التى تقوم سلوك الانسان فى الحياة ، لذلك فهم يراقبون ذلك اليوم فيخشون أن يتعرضوا الى سوء الحساب اذا اساءوا فى أعمالهم ، وافسدوا وعصوا الله ، لذلك فهم لا يعملون الأعمال التى من شأنها أن يستحقوا عليها سوء الحساب .

السادسة : **(والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم)** فهم قد جاهدوا ويجاهدون أنفسهم فى فعل الطاعات والبعد عن المعاصى بصبر ، ويجاهدون عدو الله وعدو المسلمين مختلف أنواع الجهاد المعنوى والمادى بصبر كما يتلقون أنواع قضاء الله وقدره فيما يكرهون بصبر . وانهم يصبرون فى ذلك ابتغاء وجه ربهم ، وطلبا لرضاه وسعيا فى السبل التى شرعها لعباده ، واتجاها الى الجهة التى فيها تحقيق طاعته . وبلوغ جنته وفى كل ذلك وجه الله .

السابعة : **(واقاموا الصلاة)** وذلك لتستمر مراقبتهم لله فيما يعقدون بينهم وبين ربهم من صلة العبادة على ما شرع لهم . وليؤكدوا وحدة اتجاههم الى الله تعالى ، ووحدة صفهم فى اقامة الجماعة . ووحدة قيادتهم فى طاعتهم لائمتهم الذين يقيمون شريعة الله ويطبقون أحكامها .

الثامنة : **(وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية)** وذلك قياما بواجب التكافل الاجتماعى الذى شرعه الله لعباده طبق نظام النفقة الواجبة ، والزكاة المفروضة ، والواجبات الأخرى من كفارات ونذور وهدى وصدقات ، وطبق نظام الصدقات والهبات والهدايا العامة غير الواجبة التى فيها طاعة لله وأجر عنده من كل ما يبتغى به وجهه .

التاسعة : **(ويدرءون بالحسنة السيئة)** تداركا لفلتات الذنوب وذلك بفعل الحسنة عقب فعل السيئة التى تسبق منهم بجهالة . وتحقيقا لمبادىء الأخلاق الاجتماعية ، وذلك بالسبق الى الاحسان الى الناس ، اذ يدفعون

بذلك ما يمكن ان يكون منهم من سيئات وبفعل الخصال الحسنة فى مقابل ما يوجه اليهم من اساءات فيدفعون بذلك سيئات أكبر ربما كانت تحصل لو اتبعوا أهواءهم فى الانتقام ، وبالعمل على نشر الخير ، وذلك بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، اذ يساهمون بذلك فى تقويم المجتمع ويدفعون به سيئات كبرى من شأنها ان تنتشر فى المجتمعات التى لا يوجد فيها من يقوم بهذا الواجب العظيم .

ومن استجمع هذه الصفات التسع فى دار الابتلاء والفناء دار الحياة الدنيا فقد استجمع عناصر الخير كلها التى تستوجب بموجب قانون الفضل الربانى الكرامة العظمى عند الله فى دار الجزاء والبقاء ، كيف لا يكون لهم عند الله يوم القيامة الجزاء الأفضل ؟ وقد أصلحوا ما بينهم وبين الله بالايمان والطاعة ، وأصلحوا ما بينهم وبين الناس ، وأدوا ما يجب عليهم صابرين راضين مبتغين فضل الله وثوابه ، لذلك كان من الحق أن يكون لهم عند الله **العاقبة (الحسنى)** وقد جاء عقب هذه الصفات التى يتصفون بها تفصيل **للعاقبة** الحسنى التى جاءت مجملة فى صدر البيان ، فقال تعالى : **(أولئك لهم عقبى الدار)** فما هى عقبى الدار هذه ؟ لقد بينها الله بقوله : **(جنات عدن)** جنات اقامة خالدة وليست جنة واحدة ، انهم **(يدخلونها)** هم **(ومن صلح من آبائهم)** آباء وامهات **(وأزواجهم وذرياتهم)** فترفع منازل هؤلاء اكراما لأولئك ليأنسوا بلقائهم ويتم بهم سرورهم ، وان لم يكونوا يستحقون هذه المنازل العالية بأعمالهم ، وذلك فضل الله ، ثم ان لهم اكراما آخر من الله بينه الله بقوله : **(والملائكة يدخلون عليهم من كل باب)** من أبواب الجنات ، أو من أبواب قصورهم فيها دخول تكريم واحترام وتحية ومؤانسة فيقولون لهم : **(سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار)** هذه العقبى التى نلتموها ، فاليوم يظللكم سلام ، أى أمن وطمأنينة من الله . وتنزل عليكم تحيات منه بسبب صبركم فى الدنيا على مخالفة النفس فى كل ما تكرهون مما فيه مرضاة الله تعالى .

وفى هذا نوع من التفصيل لما يلاقيه المؤمنون أولو الألباب يوم القيامة من عاقبة حسنى طبق قانون فضل الله .

وفى مقابل صفات هؤلاء يأتى بيان صفات أولئك البعداء الكافرين بالله ، فهم :

اولا : **(ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه)** فلا عهد لهم ولا ذمـــة ، ومن لا عهد له مع الله يلتزم به فلا يمكن أن يكون له عهد وميثاق مع النـــاس يلتزم به ، الا لعلة وهى منفعة يرجوها او مضرة يخشاها .

ثانيا : **(ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل)** وذلك لانهم ماديون لا امل لهم وراء الدنيا ، ولا طمع لهم بما عند الله من اجر ، فليس لهم هم الا السعى وراء تحقيق مطالب انفسهم ، وهذا لا يسمح لهم بأن يضحوا فى سبيل غيرهم بشىء فكيف يصلون غيرهم على ســـبيل التبرع والغـــيرية دون أن يربطوا صلتهم بمعاوضة ومكافأة ؟ .

ثالثا : **(ويفسدون فى الأرض)** ومما لا شك فيه ان واقعهم المنغمس بالكفر بالله والمادية الدنيوية لا بد ان يولد فيهم فقد كل خلق كريم نفسى او اجتماعى ما لم يرتبط ذلك بمصالح متبادلة ، ونظرا الى أن كثيرا من مطـــالب الانفس لا يتحقق لهم الا عن طريق الاضرار بالآخرين ، وافتراس حقوقهم ، والعدوان عليهم فلا غرو أن ينتهى وضعهم الاجتماعى العـــام الى طبيعة الافســـاد فى الأرض ، وذلك نهاية الشر التى تنتهى اليها كل جماعة تجتمع على الكفر بالله ، والانغماس بالمادية القريبة .

ومن استجمع هذه الاصول الثلاثة من خصال السوء فى دار الابتلاء فقد استجمع عناصر الشر كلهـــا التى تستوجب بموجب قانون العدل الربانى الاهانة العظمى فى دار الجزاء ، فقد افســـد هؤلاء ما بينهم وبين الله بالكفر والعصيان ، وأفسدوا ما بينهم وبين الناس بالظلم والعـــدوان ، وعملوا على نشر الفساد فى الأرض ، لأن طاقة السعى فيهم اذ لم تتجه الى الخير فلا بد أن تتجه الى الشر : **(يا ايها الانســـان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه)** لذلك كان من العدل أن تكون لهم عند الله العاقبة السيئة وهى اللعنة وسوء الدار ، واذ جاء تفصيل هذه العاقبة السيئة فى صدر البيان اكتفى الله هنـــا باجمال ذلك فى قوله تعالى : **(اولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار)** .

النص

قال الله تعـــالى :

« الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا فى الآخرة الا متاع » . (٢٦)

(ا) اللغــة والمعنى المراد :

(يبسط الرزق) : أى يوســعه ويزيده ، ويقال بسط الثوب اذا نشره ووسع السطح الذى يشاهد منه .

(ويقدر) : اى يضيق . تقول : قدرت عليه الشىء اذا ضيقته عليه .

(وفرحوا بالحياة الدنيا) : الفرح انشراح الصــدر بلذة عاجلة ، قالوا : واكثر ما يكون فى اللذات البدنية ، اى ، وفرح الكافرون بلذات الحياة الدنيــا وما فيها من لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر بالأموال والأولاد .

(وما الحياة الدنيا فى الآخرة الا متاع) : المتاع كل شىء يتمتع به الى اجل ثم ينتهى ويفنى .

والمعنى : وما الحياة الدنيا بكل ما فيها فى جنب الآخرة وبالقياس عليهــا الا متاع ينتفع به الى اجل ثم يصير الى الزوال والفناء ، وهذا مشاهد فى كل ما فى هذه الحياة الدنيا ، فكل شىء فيها عرض زائل .

(ب) معنى الآية (٢٦) نصا واقتضاء :

واذ تم فى المجموعة الســـابقة من الآيات بيان عاقبــة كل من المؤمنين والكافرين فى المستقبل البعيد ، فلا غرو أن يلوح فى الأنفس ســؤال فحواه كما يلى :

لما كان للمؤمنين أولى الألباب المتصفين بالصفات التسع التى سبق بيانها كل ذلك التكريم وكل ذلك الأجر العظيم عند الله ، ولما كان للكافرين فى مقابل ذلك اللعنة وسوء الدار ، فلماذا نشاهد فى الدنيا أن الله قد يوسع الرزق على الكافرين ، وقد يضيقه على المؤمنين ؟ فما هى الحكمة من ذلك ؟ ولماذا لا يكرم الله المؤمنين فى الدنيا بالرزق الواسع ويهين الكافرين بالتضييق عليهم فيــه ؟ واجابة على هذا السؤال الذى يلوح فى الأنفس قال تعالى : **(الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا فى الآخرة الا متاع)** .

ويتضمن هذا البيان اشارات الى حكمة الابتلاء فى هذه الحياة الدنيا . اذ ابتلاء الارادة من شأنه أن تستكمل فيه ظروف الامتحان على الوجه الأكمل . وذلك بأن يوضع الناس جميعا على قدم المساواة بالنسبة الى شروط الحياة ووسائل العيش فى هذه الدنيا دار الابتلاء . حتى لا يكون التباين فيها مغريا أو ملجئا للارادة التى منحها الله حرية اختيار طريق الخير أو طريق الشر ، ومن أجل ذلك كان لا بد أن يمنح الله كل وســائل العيش وشروطه للمؤمنــين

والكافرين ، وبما أن فلسفة الابتلاء ذات وجوه ، اذ قد يكون الابتلاء بالصحة كما قد يكون بالمرض ، وقد يكون بالقوة كما قد يكون بالضعف ، وقد يكون بالغنى كما قد يكون بالفقر ، الى غير ذلك من أضداد كثيرة لا حصر لها . كان لا بد أن تكون هذه الوجوه على اختلافها موزعة فى الأمم والشعوب مؤمنها وكافرها ، مطيعها وعاصيها حسب مشيئة الله وقضائه وقدره فى ابتلاء كل فرد من الناس بحسبه ، وهذا ما أشارت اليه الآية بقوله تعالى : **(الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر)** وقد رددت هذه الحقيقة وأوضحتها آيات أخرى متفرقة فى مواضع من القرآن العظيم .

وقد جعل الله كل ما فى هذه الحياة الدنيا متاعا قريب الزوال يتمتع به الموضوعون تحت كواشف الامتحان وليست هى الحياة الخالدة حتى يتنافس فيها المتنافسون ، ومهما طال عمر هذه الحياة فهى بالنسبة الى الحياة الآخرة الخالدة وبالقياس عليها متاع سريع الزوال ، ولا يستحق هذا المتاع عند أولى الإلباب أن يكون هو محل التكريم أو الاهانة ، وقد أوضح هـذا المعنى قوله تعالى : **(فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن . وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن . كلا) . (١)**

ولكن الكافرين الذين عطلوا البابهم عما خلقت من أجـله فكانوا كمن لا ألباب لهم . قد غرتهم مباهج هذه الحياة الدنيا ، وخدعتهم مفاتنها فحجبت عنهم النظر البعيد ، ففرحوا بالحياة الدنيا ، ووقفوا عند حدودها ، وأخذوا يتسابقون فى تحصيلها ، ويتنافسون فيها ، وقد عشيت بصائرهم عما خلقوا من أجله ، وشغلتهم الوسـائل عن الغايات فكان مثلهم كمثل من ألهتـه قاعة الامتحان ومقاعدها وأوراقها عن الأمر الذى دخل القاعة من أجله ، حتى اذا انتهى الوقت أخرج من القاعة ، وأخذت منه صحيفة أعمـاله التى سودها بالأباطيـل ، وكذلك هؤلاء اذا حـان الأجل ، وأخرجوا من هذه الدار قهرا ، وجدوا أثقال أوزارهم ، وحلت بهم النـدامة ولكن لات ساعة مندم ، وهـذا ما أشارت اليه الآية بقوله تعالى : **(وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيـا فى الآخرة الا متاع)** فهى وسيلة تشبه المتاع الذى يتمتع به الى أجل ، والغاية التى يسعى اليها العقلاء انما هى الدار الأخرى التى هى دار الحيوان .

النص

قال الله تعـالى :

« ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليه آية من ربه قل : ان الله يضل من يشاء ويهدى اليه من أناب . (٢٧) الذين آمنـوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله

(١) الفجر الآيات ١٥ ـ ١٧

الا بذكر الله تطمئن القلوب . (٢٨) الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » . (٢٩) .

(أ) اللغة والمعنى المراد :

١ ــ (ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه) :

(الذين كفروا) : هم مشركو العرب .

(لولا أنزل عليه) : (لولا) حرف تحضيض بمعنى هلا ، ويحتمل أن يكون معناها هنــا التلويم ، وذلك أنه قد سبق منهم أن طلبوا هذا الطلب قبل أن يصل موقف الصراع بينهم وبين الرسول الى ما وصل اليه ، وهو ما عرضته الآيات السابقة .

(آية من ربه) : أى معجزة من ربه مثل معجزة موسى فى فلق البحــر ، ومعجزة عيسى فى احياء الموتى ، ونحو ذلك .

ويفيد عرض هذا القول من أقوال المشركين انه بعد ألوان الصراع العنيف الطويل بين المشركين وبين حامل الرســالة الالهيــة صلوات الله عليه يظل المشركون فى مكانهم الأول متجاهلين كل حجة بينة ، وبرهان قاطع ، فيعودون الى تكرير مقالتهم الأولى : **(لولا أنزل عليه آية من ربه)** كأن شيئا من الصراع لم يكن ، وكأن الحجة لم تلزمهم ، زاعمين أنهم ظافرون بمطعن كبير فى صحــة رســالة محمد صلوات الله عليه ، أو عاجزين على أن يجدوا شــيئا آخر يتمسكون به .

٢ ــ (قل : ان الله يضل من يشاء ويهدى اليه من أناب) :

يضل : من أضل ، ولكى نفهم معنى أضل ومعنى هدى فى هــذه الآية لا بد أن نعرض الى معانى الاضلال والهداية المرادة فى مختلف الآيات القرآنيــة ، وفيما يلى بيان ذلك :

لدى التتبع فى نصوص القرآن العظيم نلاحظ أنه قد ورد استعمال كل من الهداية والاضلال فى أربعة معان :

المعنى الأول : الهداية بمعنى الدلالة والارشاد والتعليم ، ومنه قوله تعالى مخاطبا رسوله **(ووجدك ضالا فهدى)** (١) أى وجدك جاهلا بالمعارف الدينية فعلمك اياها .

وفى مقابل هذا المعنى من معانى الهداية يأتى الاضلال بمعنى الاغواء الذى يصور الباطل بصورة الحق ، وهو ما يقوم به الموسوسون المضللون من الانس

---

(١) الضحى الآية ٧

والجن ، أو بمعنى الابقاء في الجهل وعدم الارشاد ، ومنه قوله تعالى : **(ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد . كتب عليه أنه من تولاه فانه يضله ويهديه الى عذاب السعير)** (١) أي يغويه ويوسوس له ، ويصور له الباطل بصورة الحق ويزينه له .

المعنى الثاني : الهداية بمعنى وجود الشيء والعثور عليه يقال : اهتدى اليه بمعنى وجده وعثر عليه . وفي مقابله يكون **(أضله)** بمعنى ضيعه فلم يعثر عليه .

المعنى الثالث : أن يكون **(هداه)** بمعنى أثبت له الهداية وحكم له بها .

وفي مقابله يكون **(أضله)** بمعنى أثبت له الضلالة وحكم عليه بها ، ونلاحظ في القرآن الكريم نصوصا كثيرة تتضمن أن الله يهدى من يشاء بمعنى يثبت لهم الهداية ويحكم لهم بها ، أو تتضمن أن الله يضل من يشاء بمعنى يثبت لهم الضلالة ويحكم عليهم بها ، ولهذا المعنى مستند من اللغة ، فقد ثبت في اللغة أن : (أضل الرجل) تأتي بمعنى وجده ضالا ، ومنه يستعملون : (أتى فلان قومه فأضلهم) أي ، فوجدهم ضالين ، وعلى هذا المعنى يحمل قول الله تعالى **(فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا)** (٢) .

(أركسهم) : أي نكسهم وأذلهم بما كسبوا . والمعنى أتريدون أن تثبتوا هداية من أثبت الله له الضلالة ومن يضلل الله ، أي يثبت له الضلالة بموجب قانون شريعته فلن تجد له سبيلا الى تبرئته مما هو عليه من الكفر المحقق الذي بدت دلائله في أقواله وأفعاله .

وعلى هذا المعنى يمكن حمل الاضلال في الآية التي نحن في صدد تدبر معانيها ، فمعنى : **(قل : ان الله يضل من يشاء)** قل يا محمد : ان الله العالم بي وبكم بيده الحكم بالضلالة على من يشاء ، ومعلوم ان مشيئته في أحكامه لا بد أن تكون مطابقة لعلمه وعدله ، ومن علمه وعدله أن يحكم بالضلالة عليهم بسبب كفرهم وجحودهم الحق .

المعنى الرابع : أن يكون التعبير باسناد الهداية الى الله بمعنى أن الله يوفق العبد الى سلوك سبيل الهداية ، بعد أن تصدق ارادة العبد الحرة في ان يكون من أهلها ، وأن يوفقه الله الى سلوك سبيلها ، كما يأتي التعبير باسناد الاضلال الى الله بمعنى أن يسهل لعبده سلوك سبل الضلالة ويمد له فيها ، وذلك بعد أن تتجه ارادة العبد الحرة بشكل جازم الى سلوك سبل الضلالة ، وتتم عزيمته على ذلك ، ومما جاء من ذلك قوله تعالى :

(١) الحج الآية ٣ ، ٤

(٢) النساء الآية ٨٨

« قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا حتى اذا رأوا ما يوعدون أما العذاب واما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا . ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا » (١)

وفى هذا النص نلاحظ أمرين :

الأول : ان الله يمد لمن كان فى الضلالة فيزداد بذلك المد ضلالا ، وهذا المد من مقتضى قانون الابتلاء الربانى لعباده .

الثانى : أن الله يزيد الذين اهتدوا هدى ، وهذا من فضل الله الذى يساعد به من أراد الهداية وسلك سبيلها على مقدار جزم ارادته وتصميمها فى ابتغاء مرضاة الله .

وعلى هذا المعنى يمكن حمل الهداية التى نحن فى صدد تدبر معانيها ، فمعنى : **(ويهدى اليه من أناب)** يوفق الى سلوك طريقه من أناب اليه ، أى من رجع اليه ، كما يمكن عليه حمل الاضلال أيضا ، اذ يكون المعنى من قوله : **(ان الله يضل من يشاء)** أن الله يمد بالضلالة لمن شاء سلوك طريقها وذلك تطبيقا لقانون الابتلاء الذى يقتضى أن تستكمل للممتحنين ظروف اختبارهم فى الحياة الدنيا دون أن يعترض طريقهم شىء .

(من أناب) : أى من رجع يقال : أناب ينيب انابة الى الله بمعنى رجع اليه بالتوبة واخلاص العمل ، وأصل النوب رجوع الشىء مرة بعد أخرى ، يقال لغة ناب نوبا ونوبة .

٣ — **(الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) :**

(تطمئن) : أى تسكن وتهدأ وتخشع فلا يبقى فيها قلق ولا اضطراب ، يقال : اطمأن يطمئن اطمئنانا وطمأنينة اذا سكن وهدأ بعد قلق واضطراب .

(بذكر الله) : الذكر يكون باللسان ، ويكون بالقلب ويكون بهما معا والذكر باللسان الذى يكون عن ارادة للذكر ويصاحبه جد وعزم من شأنه أن يؤدى الى حضور القلب مع دلالات الألفاظ التى يرددها اللسان ، والذكر بالقلب فى صورته الكاملة يصاحبه تدبر وتأمل فى المعانى .

وذكر الله يكون باللسان وبالقلب، والجانب القلبى منه هو الذى له الأثر فى الفكر والنفس ، والذكر القلبى يكون بالتفكير والتدبر فى معانى صفات الله ودلائل آلائه فى كونه ، وان الانسان لا يزال فى حيرة واضطراب من أمر هذا الوجود وسر الحياة والموت حتى يذكر الله ويتفكر فى آلائه ببصر نافذ الى الحقيقة ، فاذا فعل ذلك جاءته الطمأنينة ، ونزلت عليه السكينة ، ولا يسكن

(١) مريم الآية ٧٥ ، ٧٦

اضطراب النفس وقلق الفؤاد مثل الوصول الى الحقيقة ، ومن أجل ذلك طلب سيدنا ابراهيم عليه السلام من ربه ما يوصله الى طمأنينة القلب اذ قال : **(بلى ولكن ليطمئن قلبى)** (١) هذا فى مرحلة البحث عن سر الوجود ، والوصول الى الايمان بالله وعظيم صفاته ، وتأتى بعدها مرحلة ذكر الله بعد الايمان .

فاذا تدبر المؤمن الذاكر لله بصفات قهر الله وعدله وانتقامه وراقب معها ذنوبه وتقصيراته التى لا يخلو منها الا معصوم حصل فى قلبه وجل وخوف من سوء المنقلب ، وعلى هذا يحمل قوله تعالى : **(انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم)** (٢) .

واذا تدبر بصفات رحمة الله وعفوه وغفرانه ، وما أعد للمؤمنين من أجر عظيم وثواب جزيل اطمأن قلبه ، وسكنت نفسه ، وعلى هذا يحمل ما جاء فى هذه الآية التى نتدبر معانيها : **(الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب)** .

٤ ــ **(الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب)** :

(طوبى لهم) : أى أصابوا خيرا وطيبا ، وطوبى مصدر كبشرى وزلفى ، من طاب يطيب طيبا وطوبى ، وأصل الواو فيه ياء ، ولكنها لما سكنت وانضم ما قبلها قلبت واوا ، وطوبى لهم : نظير سقى لهم ورعى بالرفع ، أو سقيا لهم ورعيا بالنصب .

وأصل الطيب ما تستلذه الحواس وما تستلذه النفس . وقد جاء فى تفسير طوبى عند أهل التفسير عدة معان منها ما يلى :

(ابن عباس) : فرح لهم وقرة عين .
(عكرمة) : نعمى لهم .
(قتادة) : حسنى لهم .
(النخعى) : خير لهم وكرامة .

وهذه المعانى لدى التحقيق لا تخرج عن معناها اللغوى الذى شرحناه .

(وحسن مآب) : أى وحسن مرجع والمآب : مصدر من آب يئوب اوبا وايابا ومآبا ، والمآب أيضا اسم زمان واسم مكان منه ، قال الراغب الأصفهانى : ولا يستعمل الأوب الا فى من له رادة بخلاف الرجوع فانه يستعمل فيه وفى غيره .

---

(١) البقرة الآية ٢٦٠

(٢) الانفال الآية ٢

والمعنى على المصدرية : لهم حسن رجوع ، أى رجوع الى الله حسن يوم القيـــامة .

وعلى أنه اسم مكان ، لهم حسن مرجع ، أى مكان حسن يرجعون اليـه وهى الجنــة .

وعلى أنه اسم زمان ، لهم حسن يوم يرجعون اليه أى يوم حسن يرجعون اليه وهو يوم دخولهم الجنـــة ، والاضافة على كل من اضـافة الصفة الى الموصوف .

فيكون معنى الآية : الذين آمنوا وأثمر لهم ايمانهم عملا صـالحا سيكون لهم يوم القيامة طيب عظيم من الأجر ومرجع الى الله حسن .

(ب) معنى الآيات (٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩) نصا واقتضاء :

على الرغم من كل ما سبق فان مشركى العـرب لا يبرحون مكانهم الأول جامدين عند نقطة واحـــدة ، لا يحاولون أن يفتحوا بصائرهم الى أية حجة تعرض عليهم . ولا أن يتأملوا فى أية مناقشة تقدم لهم الاقنـاع الكافى لمن أراد الوصول الى الحقيقة ، فهم فى آخر كل بيان يكشف لهم عن وجه الحقيقة وفى خاتمة كل بحث يعودون الى نقطة البدء فيقولون : **(لولا أنزل عليه آية من ربه)** متجاهلين بل متعامين عن المعجزات الكثيرة التى أنزلها الله على رسوله ، وفى مقدمتها معجزة القرآن . كأن الحجة لا تقوم عليهم الا بأن ينزل الله على رسوله المعجزات التى تعنتوا بطلبها . وفى هذا نهاية المكابرة وغمط الحق والامعـان فى الاصرار على مواقف الضلالة .

واذ قد بلغوا من الضلالة هذا المبلغ المتعنت فلا مندوحة من الحكم عليهم بها حكما مبرما عادلا من الله الذى لا سلطان عليه من أحد فى حكمه . فهو يحكم بما يشاء ، ولكن مشيئته فى الحكم لا بد وأن تكون مطابقـــة للحق والواقـع والعدل ، واشارة الى ذلك قال الله لرسوله ، **(قل ان الله يضـل من يشاء)** وفى هذا تعريض لهم بأن الحكم الالهى المبرم عليهم قد أوشك أن يتم بتـــه وابرامه بضلالهم . حكما لا رجعة فيه اذ ينتهى فيه أجل الامهال ، ومن حـكم الله عليه بالضلال فلا مناص له من حاول عقاب الله فيه ، ويوضح دلالة هـذا التعريض أن نقول : ان من كان فى موقف الجريمة وأصر عليها ، ثم قيل له : ان الحاكم المطلع على أعمالك يجرم من يشاء كان فى معنى هـذا الكلام تعريض له بأنه قد أصبح على أبواب الحكم عليه بالجريمة ، ومتى حكم عليـه بها كان لا محالة تحت سلطان العقاب .

ولما كان الموقف موقف تعريض بقرب النهاية استدعى أن يفتح الله لهم بابا من أبواب الرجاء ، ليجدوا سبيلا أمامهم الى الانابة الى الله ، فاذا أنابوا قبل فوات الأوان منحهم الله الهداية فوفقهم الى متابعة طريقها الموصل الى الله ، واشعارا بذلك فتح الله لهم باب الأمل بأن الله يهدى اليه من أناب عقب التلويح بالحكم عليهم بالضلال ، فقال تعالى : **(قل : ان الله يضل من يشاء ويهدى اليه من أناب)** .

ولكن ليست الانابة الى الله مجرد دعوى يتحلى بها المدعون ، ولكنها حقيقة يتصف بها المؤمنون الصادقون بايمانهم ، الذين تطمئن قلوبهم بالتدبر والتفكر فى آلاء الله ، اذ يصرف ذلك عنهم كل عامل من عوامل الاضطراب والقلق التى تخالج قلوب أهل الشك ، والذين تطمئن قلوبهم بذكر رحمة الله وعفوه وغفرانه ، اذ يصرف ذلك عنهم الاضطراب والقلق اللذين يولدهما الخوف من العقاب على ما ارتكبوا من آثام فى حق الله وحق دينه ورسوله ، وبيانا لذلك قال تعالى : **(الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله)** .

وكأن فى تحويل الأسلوب من الفعل الماضى الى المضارع الذى فيه معنى التجدد والاستقبال فى قوله تعالى : **(آمنوا وتطمئن)** وعدا لهم بأن الله سيذهب عن قلوبهم ما يشعرون به من قلق واضطراب وحذر من سوء العقاب بعد أن يؤمنوا ، ولكن بشرط أن يذكروا الله .

أو أن المنيبين هم الذين يتحلون بوصفين :

الأول : أنهم آمنوا ايمانا صادقا .

الثانى : أنهم تتجدد الطمأنينة فى قلوبهم بسبب ذكر الله .

ثم قرر الله جل ثناؤه لهم ولغيرهم مبدأ عاما ، ودواء ناجعا لعلاج قلق القلوب واضطرابها فقال تعالى : **(ألا بذكر الله تطمئن القلوب)** وفى اعلان هذا الأصل العام والقانون الدائم عقب معالجة بعض جزئياته ، أسلوب رفيع من أساليب التربية والتعليم ، له فى القرآن أمثال كثيرة .

ثم لوح الله لهم بالعاقبة الكريمة يوم القيامة اذا أضافوا العمل الصالح الى ركن الايمان وفى هذا تلطف تربوى فى التدرج بمراتب الكمال فقال تعالى : **(الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب)** وذلك لأن الايمان جوهرة فى القلب لا بد أن يكون لها أثر فى الظاهر ، وأثرها فى الظاهر انما هو العمل الصالح ، وبرجوعهم الى الله فى الدنيا بالايمان والعمل الصالح يكون لهم عند الله طيب من الأجر ومآب حسن .

خاتمة للمجموعة الثانية من السورة :

وفيها خلاصـــة تسلسل ما جاء فى الآيات من (١٢) الى (٢٩) وترابط معانيها ، وترقيم هــذا التسلسل تابع لخلاصـــة تسلسل المجموعة الأولى من الســـورة .

٧ ـ ثم عرضت السورة أدلة قدرة الله وعلمه وحكمته فى العلو القريب بين السماء والأرض ، وذلك فى ظواهر البرق والسحاب والرعـد والصواعق مع التلويح بالوعيد الذى تحمل دلالته هذه الظواهر وبخاصة الصواعق منها .

٨ ـ ثم صورت السورة حالة عجز الناس وضعفهم أمام الظواهر الكونية المخيفة التى لا حيلة لهم معهـا الا أن يلتجئـــوا بالدعاء الى قوى أخرى وراء الظواهر ، يعتقدون انها تنجـدهم ، أما المؤمنون فيلتجئون الى الله القـــادر فيستجيب لهم ، وأما المشركون فيلتجئون الى شركائهـم الذين لا يستجيبون لهم بشئ .

٩ ـ ثم بينت السورة أن كل شيء فى الكون خاضـــع لقــدرة الله وقهره ، نافذة فيه مشيئة الله ، وذلك حثا للمشركين على أن يتمموا واقعهم غير الادارى بسجود ارادى منهم لله تعالى .

١٠ ـ ثم علم نبيه كيف يعالج المشركين بوسائل الاقناع والمجـادلة بالتى هى أحسن متخـــذا معهم مرحــلة من مراحل الهجوم على باطلهم بالبراهين القاطعة ، والحجج الدامغة ، بعد أن كان الموقف فى أول السورة موقف الدفاع وفى هذه المرحلة الجـديدة لون من الوان الصراع الفكرى المهـــذب بين الحق والباطل ، الا أن التهذيب من جهة واحدة هى جهة أصحاب الحق .

١١ ـ وبعد أن وصل الرسول الى نهاية مرحلة الهجوم الكلامى المهذب على باطل المشركين تنتقل السورة فتصور مرحــلة عنيفة من مراحل الصراع بين الحق والباطل ، بين حق يغالب بكل وســيلة مشروعة ليظهر ويبسط فى الأرض عدله ونوره ، وبين باطل يغالب بكل وســـيلة غير مشروعة ومبطلين يصارعون الحق وأهله ، وتنتهى الصورة بانتصار الحق ودعاته على البـــاطل وجنوده فى الأرض .

١٢ ـ ثم ينتقل البيان فى السورة الى ازاحة الستار عن المستقبل البعيد لمشاهدة عاقبة أهل الحق وعاقبة أهل الباطل فى الدار الآخرة بارزا فيها فضل الله وعدله مع بيان الأسباب الداعية الى أن يمنح الله فضـــله للمؤمنين ، وأن

يوقع عقابه فى الكافرين ، وقد تضمن ذلك بيان صفات المؤمنين وصفات الكافرين .

١٣ ـ ثم كشفت السورة الحكمة الداعية الى عدم حرمان الكافرين من أسباب العيش والرفاهية فى الحياة الدنيا .

١٤ ـ ثم صورت السورة حال المشركين الذين لم تؤثر فيهم كل تلك البيانات السابقة باصرارهم على موقفهم الأول ، وعودتهم الى تكرير مقالتهم السابقة **(لولا أنزل عليه آية من ربه)** .

ثم عالجت حالتهم بطريقة جديدة فيها تلويح بحصول العقاب القريب ، مع ابقاء باب الأمل والرجاء مفتوحا أمامهم لينيبوا الى ربهم بالايمان والعمل الصالح ، واعطتهم الدواء الدينى الشافى لاضطراب القلوب ، الا وهو ذكر الله الداعى الى التأمل فى آلائه ، والتفكر فى عظيم صفاته ، التى منها رحمته وعفوه وغفرانه .

١٥ ـ ثم تنتقل السورة الى مرحلة جديدة ، وهى مرحلة تربية الله لرسوله ، وهذه المرحلة موصولة بالمراحل السابقة التى كان فيها صراع مع المشركين .

المجموعة الثالثة

النص

قال الله تعالى :

كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ
وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠)
وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ
جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ (٣١) وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ
أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟
لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (٣٣)
لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤)
* مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ
عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ (٣٥) وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ
بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ
أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ (٣٦) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ
ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧) وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ
إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ

ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ
وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ
لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ
جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ
ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

(أ) اللغة والمعنى المراد :

١ ــ قوله تعالى :

« كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا اليك وهم يكفرون بالرحمن » (٣٠) .

(كذلك أرسلناك) : الارسال ، هو التوجيه بأمر ما الى جهة ما ، والرسول هو المأمور بالتوجه .

أما الرسول شرعا فهو عبد اصطفاه الله بالوحى وأمره بأن يحمل رسالته ويبلغها الى الناس عامة ، او الى الأمة التى ارسل اليها فقط .

والخطاب فى قوله تعالى : **(أرسلناك)** لسيدنا محمد صلوات الله عليه ، أما المشار اليه فى قوله تعالى : (كذلك) ففيه احتمالان :

الاحتمال الأول : أن يكون المشار اليه هو ارسال الرسل الى الأمم السالفة .

والمعنى على هذا : مثل ذلك الارسال الذى اضطلع بمهامه الرسل السابقون ، اذ أرسلناهم فى أمم كثيرة سالفة أرسلناك فى هذه الأمة ، وهذا المشار اليه معلوم فى قصص القرآن الكثيرة ، كما انه مشار اليه بعد ذلك بقوله تعالى : **(قد خلت من قبلها امم) .**

الاحتمال الثانى : أن يكون المشار اليه هو واقع الرسالة التى ارسل بها محمد صلوات الله عليه بمهامها العظمى ، ومصاعبها الكبرى التى ذاق الوانا من صعوباتها ، والتى عرضت الآيات السابقة فى السورة شيئا منها ، واشارة الى رفعة مكانتها وعظم شأنها أشار اليها باشارة البعيد (كذلك) .

والمعنى على هذا : مثل ذلك الارسال الذى دخلت غماره وذقت مصاعبه، واضطلعت بمهامه ، ومارسته تطبيقا وعملا ارسلناك اذ حملناك شرف الرسالة، والقينا عليك مسئوليتها منذ الفترة الأولى التى اشعرناك فيها بمهمتك ، وامرناك فيها بتبليغ رسالتك .

وكأن الله جل وعلا يقول لرسوله من وراء هذا الخطاب افكنت تظن ان أمر الرسالة تشريف فقط ليس معه مسئولية تتعرض فيها الى اذى وتكذيب واستهزاء من قومك ؟ .

فالمماثلة اذن بين المهمة التى بدأ بها التكاليف وبين الواقع التطبيقى الذى انغمس الرسول صلوات الله عليه فى صعوباته . وهذا الواقع المشار اليه قد جاء تفصيله فيما سبق من آيات السورة .

(فى أمة قد خلت من قبلها امم) :

(الأمة) : كل جماعة يجمعهم أمر وتؤلف بينهم طريقة ما ، وتطلق الأمة على جماعة من العقلاء ، وعلى جماعة من غيرهم ، قال تعالى : **((وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم امثالكم)) (١)**

(قد خلت من قبلها امم) : اى سلفت من قبلها أمم كثيرة كان منها لرسلها مثل ما شهدت من هذه الأمة ، فما شأن أمتك الا كشأن الأمم السالفة .

(لتتلو عليهم الذى أوحينا اليك) :

(لتتلو) : اى لتتابع لهم تبليغ ما أوحينا اليك من قرآن واحكام وشرائع وغيرها ، واصل فعل تلا يتلو يأتى بمعنى المتابعة والمتابعة تكون بالجسم أو بالقراءة ، أو بالعمل أو بالتفكير ، أو بغيرها .

(اوحينا) : الوحى لغة يستعمل فى عدة معان تدور حول الاعلام الخفى السريع ، مهما اختلفت أسباب هذا الاعلام ، لذلك فهو يطلق على الايماء ، وعلى الاشارة السريعة ، وعلى الكلام الخفى ، وعلى الكتابة ، وعلى القاء المعنى فى النفس ، وعلى الالهام ، سواء أكان بدافع الغريزة ، أو باشراقات الفطرة ، ومن استعمالات الوحى فى المعنى اللغوى قوله تعالى : **(وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون (٢)** اى الهم غريزتها ذلك.

(والوحى شرعا) : لدى التأمل فى النصوص الشرعية التى توضح لنا ظاهرة الوحى الذى اصطفى الله به انبياءه ورسله ، نستطيع أن نعرف الوحى فى الاصطلاح الشرعى بما يلى :

هو اعلام الله رسولا من رسله او نبيا من انبيائه ما يشاء من كلام أو معنى بطريقة تفيد النبى أو الرسول العلم اليقينى القاطع بما أعلمه الله به .

والمعنى : لتبلغهم ما أمرناك بتبليغه مما أوحينا اليك ، وفى هذا تحديد لمهمة الرسول صلوات الله عليه من الرسالة التى أمره الله بحملها الى الناس .

(وهم يكفرون بالرحمن) : اى والحال انهم يكفرون بالرحمن ، ولفظ الرحمن سبق شرحه فى البسملة ،.وانه اسم من أسماء الله الحسنى ، وفى ايراد اسم الرحمن هنا اشارة الى انهم يكفرون بالله متجاهلين صفة رحمته الغامرة لهم بالنعم التى لا تحصى .

وقد ورد فى سبب نزول قوله تعالى : **(وهم يكفرون بالرحمن)** أن النبى صلوات الله عليه يوم الحديبية لما اراد أن يكتب كتاب الصلح بينه وبين مشركى العرب من قريش قال لكاتبه : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ،

---

(١) الانعام الاية ٣٨

(٢) النحل الاية ٦٨

فقال ممثل قريش لئن كنت رسول الله ثم قاتلناك لقد ظلمناك ، ولكن اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعنا يا رسول الله نقاتلهم فقال : لا ، ولكن اكتبوا كما يريدون ، انى محمد بن عبد الله ، فلما كتب كاتب رسول الله : بسم الله الرحمن الرحيم ، قال وفد قريش أما الرحمن فلا نعرفه وكان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم ، فقال أصحابه : يا رسول الله دعنا نقاتلهم قال : لا ، ولكن اكتبوا كما يريدون ، فأنزل الله قوله : **(وهم يكفرون بالرحمن)** اشارة الى ذلك ، ولنا أن لا نسلم بأن هذا هو سبب النزول ، اذا لاحظنا أن السورة مكية على أرجح القولين .

على انا نقول : انّ العبرة بعموم اللفظ ، فالمشركون يكفرون بالرحمن ، أى يكفرون برحمة الله العظمى التى بها يحييهم ويؤويهم ، ويطعمهم ويسقيهم ، ويدفع عنهم الضر ويجلب لهم الخير ، ثم يتعلقون بأوثانهم ويشركون به تعالى شركاء لا تملك لانفسها نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وبهذه العقائد الباطلة التى لا دليل لهم عليها الا أن يقولوا : **(انا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثارهم مقتدون)** (١) يجادلون الرسول صلوات الله عليه ، ويكيدون له ولدعوته كيدا شديدا ، ويستهزئون به ، ويمعنون فى كفرهم .

٢ ــ قوله تعالى :

« قل هو ربى لا اله الا هو عليه توكلت واليه متاب » (٣٠) .

فى هذا النص يعلم الله رسوله كيف يقيم الحجة العقلية على المشركين ، وتتضمن الحجة فى هذا أمرين ثانيهما مرتب على الأول منهما ترتيبا عقليا .

الأمر الأول : توحيد الربوبية ، وقد دل عليه قوله تعالى : **(قل هو ربى)** اى لا رب لى غيره ، والرب كما سبق بيانه مأخوذ من التربية ، والمعنى هو وحده خالقى والذى يمدنى بالتربية الدائمة ، وقد استفيد القصر من تعريف طرفى الاسناد . وتوحيد الربوبية بمعنى الخلق شىء كان جمهور مشركى العرب يؤمنون به ولا ينكرونه ، وانما كانوا ينكرون توحيد الألوهية .

الأمر الثانى : توحيد الألوهية ، وقد دل عليه قوله تعالى : **(لا اله الا هو)** وتوحيد الألوهية شىء مترتب عقلا على توحيد الربوبية ، فمتى كان الرب الخالق واحدا وجب أن يكون هو وحده الاله المعبود ، وفى هذا منتهى ما يتطلب العاقل المنصف من حجة لمعرفة الحق الذى لا ريب فيه .

---

(١) الزخرف الآية ٢٣

(عليه توكلت اليه متاب) :

(عليه توكلت) : يقال توكل عليه يتوكل توكلا اذا استسلم والتجأ اليه ، ووثق به واعتمد عليه ، وفوض اليه القيام بما يرجو من أمر ، ولما كان الانسان عاجزا عن أن يقوم بكل مهامه بنفسه فان طبيعة العجز تلجئه الى أن يوكل غيره بها ، وفى الحياة امور كثيرة لا يستطيع البشر ان يقوموا بها بأسبابهم المادية لذلك كان لا بد لهم من ان يكلوا تحقيقها الى القوة من وراء الأسباب المادية ، ومتى ترك المخلوق الأسباب المادية التى سلط الله يده عليها ، فانه لن يجد غير الله وكيلا ، يفوض اليه أمره ، ويرجوه فى تحقيقه .

وتوحيد الربوبية والألوهية لله تعالى يستدعيان التفويض اليه ، والتوكل فى كل الأمور عليه .

فمعنى عليه توكلت : عليه وحده لا على غيره توكلت فى تحقيق ما أرجوه ، فهو وكيلى فى كل أمرى لأنه هو ربى ، واحدا فى ربوبيته ، وهو الهى واحدا فى الوهيته ، لا اله الا هو ، واستفيد الاختصاص من تقديم المعمول على عامله .

فمعنى عليه توكلت : عليه وحده لا على غيره توكلت فى تحقيق ما أرجوه ، فهو وكيلى فى كل أمرى ، لأنه هو ربى ، واحدا فى ربوبيته وهو الهى واحدا فى ألوهيته ، لا اله الا هو ، واستفيد الاختصاص من تقديم المعمول على عامله .

(متاب) : مصدر تاب ، يقال تاب الى الله يتوب توبا وتوبة ومتابا ، أى اناب ورجع الى الله ، والتوبة الرجوع من الذنب الى الطاعة ، وأصل تاب عاد الى الله ورجع وأناب .

فمعنى واليه متاب : واليه وحده لا الى غيره رجوعى فى كل أمر من أمورى ، وكل حاجة من حاجاتى ، وهذا ما يوجبه توحيد الألوهية أيضا ، واليه أيضا رجوعى يوم الدين ، فهو الذى يحاسبنى ويجازينى ، لذلك فلا انظر الى رضا غيره ، ولا أبتغى بعملى سواه .

وقد قرىء متابى باثبات ياء المتكلم ، وهى مع حذفها ملاحظة تقديرا .

معنى الآية بشكل عام : تنتقل السورة اعتبارا من هذه الآية حتى آخرها الى مرحلة جديدة تتضمن تربية سامية من الله للرسول ، مع المحافظة على وحدة موضوع السورة ، وذلك لمعالجة حال الرسول صلوات الله عليه التى تأثرت باصرار المشركين على كفرهم واستهزائهم به ، والحاحهم على طلب الآيات أو استعجال العذاب .

والتربية فى هذه الآية تأتى على مرحلتين :

المرحلة الأولى : **ما بينه الله لرسوله من أنه ليس بدعا فى الرسل ، وان أمته شبيهة بسائر الأمم بالنسبة الى رسلها ، لذلك فمهمته مماثلة لمهمة الرسل من قبله ، فهى :**

(أ) أن يبلغ أمته ما أوحاه الله اليه ، وقد دل عليه قوله تعالى : **(لتتلو عليهم الذى أوحينا اليك)**

(ب) أن يحمل هذه المهمة الى أمته فى حال كونهم يكفرون بالرحمن ، وقد دل عليه قوله تعالى : **(وهم يكفرون بالرحمن)** .

وفى هذا اشعار له بأن مهمته لا تصل الى حد أن يسعى وراء الوسائل التى تحولهم من الكفر الى الايمان غير وسائل التبليغ والارشاد والاقناع التى تهيىء لهم ظروف الاقتناع بالحق ، حتى يؤمنوا به بأنفسهم ، وبمحض اراداتهم الحـرة .

المرحلة الثانية : ما علمه الله رسوله من اقامة الحجة العقلية عليهم ، وذلك بأسلوب يتحدث فيه عن نفسه وعن عقيدته ، بعيد عن أسلوب المواجهة والجدل ، اذ يعلن لهم ما أورثه القناعة التامة ، وأعطاه الدليل الكافى على ما يؤمن به ، لذلك فهو يؤمن بما ثبت عنده بالبرهان القاطع ايمانا لا شك فيه ، ويتمسك به ، ويعمل بما يوجبه عليه ، ثم هو يعرضه عليهم عرض تبليغ ، رغبة فى أن يشتركوا معه فى تذوق حلاوة هذا الخير العظيم ، وفى اقتطاف ثمراته العاجلة والآجلة ؛ وهذا ما يدل عليه قوله تعالى : **(قل هو ربى لا اله الا هو عليه توكلت واليه متاب)** .

٣ ــ وقوله تعالى :

« ولو ان قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض او كلم به الموتى بل لله الأمر جميعا أفلم ييأس الذين آمنوا ان لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ؟ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة او تحل قريبا من دارهم حتى ياتى وعد الله ان الله لا يخلف الميعاد » (٣١) .

(قرآنا) : القرآن فى الاصل مصدر مثل الرجحان والغفران ، تقول : قرات الشيء قرءا وقرآنا اذا جمعته ، قال تعالى : **(ان علينـــا جمعه وقرآنه . فاذا قراناه فاتبع قرآنه)** (١) . قال ابن عباس : اذا جمعنـــاه واثبتناه فى صـــدرك فاعمل به .

وقد خص لفظ القرآن بالكتاب المنزل على سيدنا محمد صلوات الله عليه، فيل : وقد سمى قرآنا لكونه جامعا لثمرة كتب الله كلها .

---

(١) القيامة الآية ١٧ ، ١٨

(سيرت به الجبال) : اى ازيلت عن اماكنها بمجرد تلاوته .

(او قطعت به الأرض) : في معنى تقطيع الأرض وجهان ، أحدهما : تقطيع أقسام منها وتشقيقها وازالة القطع عن أماكنها لتفجير العيون واخراج الكنوز ونحو ذلك ، والثانى : قطع المسافات الشاسعة فيها بلمحات الأبصار .

(أو كلم به الموتى) : أى او خوطب به الموتى ، فأحياها الله به فسمعت وأجابت .

اما جواب **(لو)** ففيه وجهان :

الوجه الأول : انه محذوف تقديره : ولو أن قرآنا سيرت به الجبال او قطعت به الارض أو كلهم به الموتى لما تغير من حال هؤلاء المشركين شيء ، أى لأنهم مكابرون معاندون ، أو تقديره : لم يؤمنوا ، أو نحو ذلك . وقيل الجواب المحذوف تقديره : لكان هذا القرآن ، اى ولو أن قرآنا حصل به تسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى لكان هذا القرآن .

الوجه الثانى : انه متقدم عليها ، وهو قوله تعالى فى الآية السابقة : **(وهم يكفرون بالرحمن)** والكلام بينهما قد جاء معترضا ، وهذا الوجه محكى عن الفراء ، قال الزمخشرى : وليس ببعيد من السداد .

ونرى انه ينبو عن أساليب القرآن ، والله اعلم .

سبب نزول هذه الآية جمعا من مختلف أقوال أهل التفسير : ان مشركى قريش قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو وسعت لنا بقرآنك أودية مكة وسيرت جبالها فاحترثناها فانها ضيقة علينا ، أو قطعت لنا به الأرض فتشققت لنا عن ينابيعها ، وكنوزها ، وقربت لنا به الشام فانا نتجر اليها ، او احييت به فلانا وفلانا من آبائنا ، لآمنا بك ، وان كنت صادقا فلست بأهون على الله من موسى وسليمان وعيسى ، فأنزل الله تعالى قوله : **(ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى)** أى لما آمنوا لأن سبب كفرهم انما هو العناد والمكابرة ، لا حاجتهم الى الدليل على صدق رسالتك وان ما جئت به هو الحق من ربك .

وقد روى انه لما سرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذا الوحى قال : **(والذى نفسى بيده لقد أعطانى ما سألتم ، ولو شئت لكان ، ولكن خيرنى بين أن تدخلوا باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم وبين أن يكلكم الى ما اخترتم لأنفسكم ، ثم ان كفرتم يعذبكم عذابا لا يعذبه احدا من العالمين ، فاخترت باب الرحمة)** والله أعلم .

وعلى هذا يكون جواب **(لو)** المحذوف : لكان هذا القرآن .

(بل لله الأمر جميعا) : اى امر تلبية طلباتهم أو عدم تلبيتها ، وامر ايمانهم وعدم ايمانهم وامر تعجيل عقابهم أو امهالهم ، وكل أمر غير ذلك .

وفى هذا اشارة الى الرسول صلوات الله عليه بعد أن عرفه الله حدود مهمته أن يريح نفسه وقلبه مما لم يحمله الله مسئوليته ، بل اصطفى الأمر فيه لنفسه .

والاضراب ببل يشعر بالتوجيه الى صرف النظر عن تتبع تعليل قضاء الله وتصرفاته فى خلقه ، فالمؤمنون الكاملون يعلمون أن الأمر كله لله ، يقضى فيه بما يشاء ، وان الحكمة مسايرة لكل ما يجريه من أمر ، وهو بكل شيء عليم .

(أفلم ييأس الذين آمنوا ان لو يشاء الله لهدى الناس جميعا) :

(ييأس) : اليأس القنوط من الشيء .

(الذين آمنوا) : وفى مقدمتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(ان لو يشاء الله لهدى الناس جميعا) : المشيئة لها ثلاثة وجوه :

(أ) مشيئة الاجبار على الهداية .

(ب) مشيئة الاجبار على الضلالة .

(جـ) مشيئة ترك الخيرة للعبد فى أن يختار لنفسه الهدى أو الضلال بارادته التى حباه الله اياها تكريما له .

ومتى تعلقت مشيئة الله بواحد من هذه الوجوه الثلاثة بالنسبة الى طائفة مما خلق امتنع فى الوقت نفسه أن تتعلق مشيئته بأن يكونوا مجبرين على سلوك سبيل الهداية أو سلوك سبيل الضلالة ؛ لكنه مع ذلك يقال : لو يشاء لهداهم ، أى لو يشاء اجبارهم على الهداية لسلبهم اراداتهم الحرة فجعلهم مجبرين غير مخيرين ، ولو جعلهم كذلك لكان من حكمته تعالى أن يهديهم جميعا .

وعلى هذا يكون معنى النص كما يلى : أفلم ييأس الذين آمنوا من امر هداية الناس جميعا ، اذ لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ، أى فجعلهم كالملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، ولكن هذا ينافى حكمة

الابتلاء ، بعد ان تمت مشيئته تعالى في ان يهبهم الارادات الحرة التي يختارون بها ما يشاءون من خير او شر ، ليبتليهم أيهم أحسن عملا .

ويشكل على بعض أهل التأويل فهم معنى اليأس هنا بجانب أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ، لذلك يفسرون اليأس هنا بمعنى العلم فيقولون : ان المعنى : أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا .

ولا أرى ضرورة لاخراج كلمة اليأس عن معناها الى معنى العلم ، وذلك لان العلم بأن الله لو يشاء لهدى الناس جميعا يتضمن التقنيط من تغيير مشيئة الله التي تمت بأن يجعل الناس مخيرين في ارادتهم الحرة ، والتقنيط من جمع الناس كلهم على الهدى ، وقد أعطاهم الله حرية الاختيار ، فالتقنيط موجه لشرط (لو) وجوابها ، لأن الجواب لازم للشرط ، واذ قد انتفت هذه المشيئة وجب ان ينتفي لازمها وهو هداية الله للناس جميعا ، فيعود أمر هدايتهم وعدمها الى اراداتهم الخاصة بهم التي منحهم الله اياها .

قال تعالى :

(ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة او تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله ان الله لا يخلف الميعاد) . (٣١) .

(قارعة) : القارعة في اللغة المصيبة والداهية والنازلة الشديدة من شدائد الدهر ، وهي مأخوذة من القرع وهو الضرب .

(وعد الله) : الوعد مصدر وعده الأمر ووعده بالأمر وعدا وعدة وموعدا وموعدة ، والوعد هو الأخبار بما تم العزم على فعله في المستقبل ، ويكون في الخير وفي الشر ، يقال : وعده بنفع ووعده بضر .

أما الوعيد والايعاد فهو في الشر خاصة .

قال الأزهري : كلام العرب وعدت الرجل خيرا ووعدته شرا ، فاذا لم يذكروا الخير قالوا ، **(وعدته)** ولم يدخلوا الفا **(اى لم يقولوا أوعدته)** واذا لم يذكروا الشر قالوا : **(أوعدته)** ولم يسقطوا الألف ، وانشد لعامر بن الطفيل :

وانى ان اوعدته او وعدته
لمخلف ايعادى ومنجز موعدى

واذا أدخلوا الباء لم يكن الا في الشر ، كقولك أوعدته بالضرب . انتهى .

والمراد من قوله تعالى : **(حتى يأتى وعد الله)** حتى يحين وقت انجاز وعد الله ، لأن وعد الله بنصر المؤمنين وخذل الكافرين وعقابهم قد سبق فيما

انزل على رسوله من قبل ، فمجيء الوعد هو مجيء زمن تحقيق ما وعد به .
(الميعـاد) : قال الراغب الأصفهانى : والموعد والميعاد يكونان مصـــدرا واســـما **(أى هما اسمان للوعد)** .

ومعنى **(لا يخلف الميعاد)** : لا يترك ولا يهمل تنجيز ما وعـد به فى الوقت الذى حدده ، قالوا : والاخلاف فى الاخبـار عما سـيفعل المخبر فى المستقبل كالكذب فى الاخبار عما فعل فى الماضى ، وأصل الاخـلاف هو وضـع الشيء فى **الخلف** ، ويســتعمل كنـاية عن الاعراض والاهمال وعدم الاكتراث بتنفيــذ الوعـــد .

والمعنى للنص : ولا يزال الذين كفروا وهم مشركو اهل مـكة تصيبهم بما صنعوا بالرســول ودعوته وصحبه من تكذيب وهجر ، واســـتهزاء ونكر ، وتعذيب ومكر ، قارعة تنزل بهم من قوارع الله وعقوباته ، او تحل قريبـا من دارهم ، منذرة لهم بقرب حلول عقــاب الله فيهم ، حتى يأتى وقت وعد الله بنصر نبيه والمؤمنين معه ، فيدخله مكة فاتحا بعد خروجه منهـــا مهاجرا ، ويخذل عدوه ، أو يحل به عقابه ونقمته فى الدنيا دار البلاء ، او فى الآخرة دار الجزاء ، ان الله لا يخلف الميعاد ، اى لا يخلف وعده اذا حان الوقت الذى قرر حصول موعده فيه .

٤ ــ قــوله تعــالى :

« ولقد استهزئ برسل من قبلك فامليت للذين كفروا ثم اخذتهم فكيف كان عقاب ؟ » (٣٢) .

(استهزئ) : بالبناء للمجهول ، اى سخر اقوامهم منهم .

(فامليت للذين كفروا) : أى امهلتهم ، يقال : **(أملى الله له)** اذا امهــله وطول له المدة ، وهو مأخوذ من الملوة وهى المدة من الزمان .

(ثم أخذتهم) : الأخذ فى الأصل هو حوز الشيء وتحصيله ، ويكنى به عن التعذيب والمعاقبة ، لأن الحاكم العادل اذا أخذ المجرم واحتجزه عنده ، فانه قد أخذه ليعاقبه على جريمته ، ومن ذلك يطلق الأخذ ويراد منه العقاب .

(عقاب) : اى عقــابى على حذف المضــاف اليــه لرعاية رءوس الآيات ، والعقاب والمعاقبة أن تجزى المسيء بما فعل سوءا ، وهما مصدران من عاقبه بذنبه اذا جزاه عليه بمثل سيئته ، والاسم العقوبة . وقرىء فكيف كان عقابى ، بذكر المضاف اليه .

والمعنى : واذا احزنك او آلمك يا محمد استهزاء الكافرين بك فقد جاء من قبلك رسل كثيرون قد استهزأ بهم الكافرون من أقوامهم ، فأمهلت هؤلاء الذين كفروا ولم اعجل لهم العقاب — اى لأن الحكمة تقتضى ذلك — ثم اخذتهم بالعذاب الشديد الذى قصصت عليك طائفة من اخباره فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم . فكيف رايت ما كان من عقابى لهم ؟ الم يكن عقابا شديدا ؟ وفى هذا تلويح للمشركين بالعقاب على ما يفعلونه من استهزاء بالرسول .

٥ — قوله تعالى :

« أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ؟ وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض ؟ أم بظاهر من القول ؟ بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن فضل الله فما له من هاد » (٣٣) .

« افمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ؟ وجعلوا لله شركاء قل نفس بما كسبت ولا أحد غيره .

(قائم على كل نفس) : القائم على الشيء هو الملازم له بثبات مستمر ، مأخوذ من القيام بمعنى الثبات والملازمة ، فاذا عدى بالباء كان معناه ملازمة عمله ، فالقائم بالشيء هو الثابت على فعله ، واذا عدى بعلى كان معناه الثبات على القهر والغلبة . أو الثبات على الرعاية والحفظ ، أو الثبات على المراقبة والعلم ، أو كل ذلك . والمناسب هنا فى مقام الربوبية مع قوله تعالى : **(بما كسبت)** أمران :

الأول : ملازمة المراقبة والعلم فلا يعزب عن علمه تعالى شيء مما تكسب كل نفس خيرا أو شرا علانية أو سرا .

الثانى : استمرار القهر والغلبة ، وذلك لتحقيق العدل ، بعد الحساب المستند الى العلم الذى يحيط بكل شيء .

وفى هذا تلويح للمشركين بعقاب الله ، لأن من كان قائما على كل نفس بما كسبت لا بد ان يقيم فى الأنفس عدله ، ومن عدله معاقبة المسيئين .

وخبر **(افمن هو قائم)** محذوف دل عليه قوله تعالى عقب ذلك : **(وجعلوا لله شركاء) والتقدير** : افمن هو قائم على كل نفس بما كسبت يشركون به من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا .

وفى قوله تعالى : **(أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت)** عود الى تثبيت اتصاف الله تعالى بصفة العلم المحيط بكل شيء صغيرا كان او كبيرا ،

وهى الصفة التى تحدثت عنها السورة فى الثلث الاول منها بنفس طويل بدءا من قوله تعـــالى : **(الله يعـلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحــــام وما تزداد ٠٠٠٠)** واضاف معنى القيام هنا صفة العدل التى تقتضى ان يجازى المحسن باحسانه والمسيء باساءته .

والاســتفهام فى : **(افمن هو قائم)** اســـتفهام انكارى من قبيل الانكار الابطـــالى .

(وجعلوا لله شركاء) : اى وجعل المشركون لله القـــائم على كل نفس بما كسبت شركاء فى منتهى الحقارة والعجز والجهالة ، وقد اســـتفيد هذا من تنكير شركاء ، اذ يأتى التنكير للتحقير كما قال علماء البلاغة .

ثم أرشد الله رسوله الى لون من الوان المحاجـــة للمشركين ، لالزامهم بفساد طريقتهم ، وبطلان اعتقـادهم بالشركاء ، فقال تعالى : **(قل : سموهم أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض ؟ ام بظاهر من القول)** .

وفى هذا يأمر الله رسوله بأن يضع المشركين امام احتمالات ثلاثة :

الاحتمال الأول : ان يكونوا يعتقدون فعـلا بوجود شركاء لله مستندين فى اعتقادهم الى دليل ما من ادلة الاستنتاج وان كان دليلا فاسدا .

وأمام هـذا الاحتمال يقول الله لرسوله : **(قل سموهم)** اى صفوهم وبينوا لنا حقيقتهم واثبتوا لنا العلامات الدالة على انهم آلهـة ، وليس المراد مجرد ذكر أســـماء آلهتهم التى جعلوها شركاء لله ، لأن اسـماءها معروفة مشتهرة فهى اللات والعزى ومناة الى آخر سلسلة الاســماء التى اتخذوها آلهة ، وهذا يستدعى اقامة الأدلة العقلية على ما يدعون ، وانى لهم أن يجدوا دليلا واحدا على وجود الشركاء ، وكل ما فى الوجود من ادلة يدل على وحدانية الله تعـــالى .

اى فان حاولوا بيان صفات آلهتهم التى يجعلونها شركاء لله تعالى ، واقامة الادلة عليها فقد ظفرت بهم لأن حجتك ستكون هى الغالبة لا محالة .

ولما كان الاسم مأخوذا من السمة وهى العلامة ، والعلامة على الشيء هى ما يدل عليه ، والاسم علامة على مسماه ودليل عليه ، ترجح لدينا ان المراد من قوله تعالى : **(سموهم)** طلب أوصافهم ، وتقديم الأدلة الدالة على كونهم آلهة شركاء لله ، ونظيره فيما ارى قوله تعالى : **(وعلم آدم الأسماء كلها)** اى صفات الاشياء وخصائصها الدالة عليها ، والمميزة لهـا ، اما المفردات اللغوية الدالة على مسمياتها ، فهى الفاظ اصطلاحية ليس بينهـا وبين مسمياتها ارتباط

عقلى ، والذى امتاز به الانسان ممثلا بآدم انما هو العقل وقدرة الاستنتاج ، والله أعلم .

الاحتمال الثانى : ان يكون اعتقادهم بهم ناشئا عن مشاهدات محسة ، شاهدوها فى الأرض دالة على أن هؤلاء الشركاء آلهة فعلا ، فدليلهم على ما يعتقدون دليل حسى كالدليل الحسى على ان النار تحرق ، وان السم يقتل ، وان الماء يروى ، وامثال ذلك .

وامام هذا الاحتمال يقول الله لرسوله قل لهم : **(ام تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض ؟)** اى أم انتم تخبرون الله بوجود آلهة فى الأرض لها آثار محسة تشاهدونها والله لا يعلمها ، مع انه المحيط بكل شىء علما ، والقائم على كل نفس بما كسبت ، فلو كان فى الأرض آلهة تخلق او تشارك الله فى شىء من خلقه لعلم بها الله ، فهو قائم على كل نفس بما كسبت .

وهذا يستدعى اقامة الدليل الحسى على ما يدعون ، واى دليل حسى يستطيعون أن يثبتوه يدل على ان أوثانهم شركاء لله حقا فى خلقه وامره .

الاحتمال الثالث : أن يكونوا كاذبين فى دعوى اعتقادهم بشركائهم ، فهم فى الحقيقة لا يؤمنون بأنها آلهة حقيقية ، ولكنهم يقولون : انها آلهة بظاهر من القول ، لا حقيقة له فى قلوبهم ، ولا مدلول له فى نفوسهم .

ويتحقق هذا الاحتمال فى الرؤساء الذين لهم فى هذه العقيدة الباطلة منافع مادية أو معنوية ، فهم يثبتون باقوالهم شيئا لا يعتقدونه لىضللوا رعاعا من الناس ، فيقودوهم وراءهم ، ويفرضوا عليهم رياستهم ، ويسخروهم فيما يريدون .

وبيانا لهذا الاحتمال قال الله تعالى : **(ام بظاهر من القول ؟)** اى قل لهم ام تخبرون الله بظاهر من القول ، فهو غير ذى حقيقة تؤمنون بها فى قلوبكم .

ومن البدهى انهم اذا لم يكن لهم دليل عقلى ولا دليل حسى على ما يقولون ان يلزمهم مضمون الاحتمال الثالث ، وهو أن يكونوا كاذبين مضللين ، وهذا الاحتمال يقابل مجموع الاحتمالين السابقين ، لأنهما يدخلان تحت عنوان : هل انتم تؤمنون حقا بوجود الشركاء ؟ والاحتمال الثالث يدخل تحت عنوان : ام انتم لا تؤمنون بذلك وانما تكذبون ؟ .

وعقب ذلك قال تعالى :

(بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضلل الله فما له من هاد) . (٣٣) .

(زين) بالبنـــاء للمجهول ، وتزيين الشيء تحســـينه ، ويكون التزيين على وجهـــين :

الوجه الأول : بجعل الشيء الحسن في حقيقته حســـنا للناظرين ، وذلك بأن يعرض عرضا حسنا ، أو يثنى عليه فيزدان في النفوس ، أو يضاف اليـه ما يجعله مستساغا حلوا وان كان حسنه الحقيقي مرا على بعض النفوس .

الوجه الثاني : بجعل الشيء القبيح في حقيقته حســـنا في مظهره ، وذلك بأن يضفى عليه من المظاهر الخادعة الخلابة ما يستميل اليه أهواء النفوس ، والتزيين في الآية من هـــذا النوع .

(صدوا) : فيها قراءتان احداهما بالبناء للمجهول ، والأخرى بالبنـــاء للمعلوم ، وعلى القراءة الثانية اما أن يكون لفظ صدوا فعلا لازما غير متعـد ومعناه : أعرضوا ، واما أن يكون متعـــديا ، ومعنـــاه : صرفوا الأتبـــاع عن السبيل .

(مكرهم) : نائب فاعل زين ، والمكر هو تدبير أمر في خفاء عمن دبر عليه ، اصرفه عما يريد أو لايقاعه فيما لا يريد ، قال تعـــالى : **(واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)** (١)

فقد دبر الذين كفروا من أهل مكة أمرا في خفاء عن الرسول صلوات الله عليه ، وبيتوا فيه أن يسجنوه أو يقتلوه أو يخرجوه من مكة ، ولكن الله دبر في الخفاء عنهم أمرا آخر يعصم فيه نبيه منهم ، ويهيىء له ما يقوى شوكته ، حتى ، يعود فاتحا منتصرا ، بعد خروجه في خفية مهاجرا .

فالمكر قد يكن مكرا مذموما اذا كان الأمر الذى دبر فيه مؤديا الى نتيجـة مذمومة ، وقد يكون مكرا محمودا اذا كان الأمر المدبر فيه مؤديا الى نتيجـة محمـــودة .

فتدبير الأمر في الخفـــاء لا يوصف لذاته بحسن أو قبح ، فاذا كان مؤديا الى خير كان حسنا ، واذا كان مؤديا الى شر كان قبيحا .

ولذلك كان ما يدبره زعمـــاء المشركين مكرا سيئا ، لأنهم يدبرون سرا ما يضللون به أتباعهم عن الحق ، ليحافظـــوا على منافعهم وزعاماتهم فيمـا بينهـــم .

وقد زين لهم هذا المكر ، زينتـــه لهم نفوســـهم المنحرفة عن منهج الخلق القويم : المتعلقة بالشهوات الزائلة ، والمنـــافع الدنيوية العاجلة ، والزعامة الفارغة البـاطـلة .

---

(١) الانفال الآية ٣٠

(وصدوا عن السبيل) : اذا كان على البناء للمجهول فالمعنى كما يلى :

اما الاتباع فقد صدهم قادتهم عن سلوك السبيل الحق الذى هو سبيل الله ، واما الرؤساء فقد صدهم ما زين لهم صدهم عن سلوك السبيل الحق ، أو صدهم الشيطان عنه ، ويرد على هذا ان الشيطان لا سلطان له ، ولا يتعدى تأثيره حدود الأغواء والوسوسة بالشر والتزيين له .

واذا كان على قراءة البناء المعلوم **فالمعنى كما يلى :**

اما القادة فقد صدوا اتباعهم ، أى صرفوهم عن سلوك السبيل ، كما اعرضوا هم عنه ، واما الأتباع فقد اعرضوا عن سلوك السبيل كما ساهموا بصرف اتباع لهم من نساء وذرارى عن سلوك سبيل الله ، لأن كل تابع لغيره لا بد ان يجد تابعا له غالبا ، مع تعاقب الزمن .

(ومن يضلل الله فما له من هاد) اى من يثبت الله ضلاله بحكمه العادل فما له من هاد يثبت له الهداية ، بعد ان حكم الله عليه بالضلالة . ومن حكم الله عليه بالضلالة فلا واقى له من عقاب الله ، ولذلك رتب الله على الحكم عليهم بالضلالة الذى أشار اليه هذا النص ما جاء فى النص بعده ، وهو : **(لهم عذاب فى الحياة الدنيا)** . . . الى آخر الآية .

٦ ـ قوله تعالى :

((لهم عذاب فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة اشق وما لهم من الله من واق)) (٣٤) .

(لهم عذاب فى الحياة الدنيا) : وهذا أول وعيد صريح يعلنه الله فى هذه السورة بمعجل العذاب فى الحياة الدنيا للكافرين بعد كل ما سبق فيها من التلويح به فى معارض القول .

والعذاب على انواع ، فقد يكون بايلام الجسد ، وقد يكون بايلام النفس ، وقد يكون بايلام الروح من وراء الجسد والنفس ، وقد يكون بكل ذلك ، واشده ما بلغ مبلغ ايلام الروح أو ما جمع أنواع الألم كلها .

فقد يتألم الجسد ولكن تكون النفس مطمئنة راضية وكذلك الروح ، وهو ما يحصل للمؤمنين عند اصابة أجسادهم بالآلام اذا كانت قلوبهم راضية عن قضاء الله وقدره ، ويشبهه ما يحصل للمريض اذ يتوجع من ألم الجراحة الضرورية لشفائه ، ونفسه وروحه مطمئنتان لذلك راضيتان به .

وقد تتألم النفس وتكون الروح راضية مطمئنة ، ويحصل هذا للمؤمنين ايضا ، ويشبهه تألم نفس الأم لآلام ولدها الذى يتوجع من الم الجراحة الضرورية لشفائه من مرضه .

ولكن الروح متى مسها الألم فقد مس صاحبها اشد أنواع العذاب ، ولا يحصل هذا الا للكافرين الذين يحل بهم عقاب الله ، لانهم لا يجدون لأرواحهم مفرا من العذاب أو ملجأ تطمئن فيه .

والعذاب فى الحياة الدنيا الذى وعد الله به هؤلاء المشركين يكون بالخذلان والقتل والأسر على أيدى المؤمنين ، كما يكون بعقوبات الله الاخرى .

ولا يقتصر وعيدهم على عذاب الحياة الدنيا ، فان لهم عذابا فى الآخرة ايضا .

(**ولعذاب الآخرة اشق**) أى اثقل واشد ايلاما ، وأشق افعل تفضيل من المشقة ، يقال لغة : شق عليه الأمر يشق شقا ومشقة اى ثقل واشتد وذلك لان عذاب الآخرة اشد من عذاب الدنيا فى كميته وفى كيفيته ، فهو اقوى واكثر انواعا ودواما .

وفى الكلام مضاف محذوف تقديره : ولعذاب الحياة الآخرة ، لأنها فى مقابل الحياة الدنيا .

(وما لهم من الله من واق) :

(**واق**) : اسم فاعل من وقى يقى وقاية فهو واق ، والوقاية هى ما يحجز أو يدفع الأذى والضر .

والمعنى : فمالهم من واق يقيهم من عذاب الله ، فيكون (من الله) على تقدير مضاف محذوف ، أى من عذاب الله ، ويحتمل أن تكون (من) على معنى البدلية اى وما لهم بدل الله من واق ، أو التقدير : وما لهم من جهة الله — اى من رحمته — من واق يدفع عنهم عذابه .

و (**من**) فى قوله تعالى : (**من واق**) زائدة لتأكيد العموم ، لأنها وقعت فى سياق النفى .

٧ — قوله تعالى :

« مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار » (٣٥) .

(مثل الجنة) : أى صفة الجنـــة ، ومثل الشىء هو ما كان بينه وبينـه مشابهة ما ، والصورة الكلامية المعبرة عن شىء انما هى مشابهة فى دلالتهـــا لواقع ذلك الشىء ، ومن ذلك تسمى الصورة مثالا وتمثالا ، ويقـال : مثل له الشىء اذا صوره ، ومنه قوله تعالى : **(فتمثل لها بشرا سويا)** أى أتاها فى صورة بشر سوى .

و **(مثل الجنــة)** مبتدأ خبره جملة **(تجرى من تحتها الأنهار ...)** أى قولنا : تجرى من تحتها .

(وعد المتقون) : أى وعدها المتقون أو وعد بها المتقون .

(تجرى من تحتها الأنهـــار) : أى تجرى فى أرضها فتكون **(من)** بمعنى **(فى)** أو تجرى من تحت قصورها ، فتكون **(من)** لابتداء الغاية .

(اكلها دائم وظلها) : ثمر أشجارها دائم ،و ظلها دائم .

(تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار) : أى الجنــة جزاء الذين اتقوا ربهم فآمنوا به وعملوا صالحا ، وجزاء الكافرين بربهم النار .

المعنى : ولما دعى الســياق الى بيان وعيـــد الكافرين فى الآخرة كان من مقتضى التقابل الذى التزمه القرآن غالبا فى هــذا الموضوع أن يعيــد الله ذكر ما وعد به المؤمنين فى الآخرة ، ولكن الاعادة لا بد أن يرافقها مزيد من التفصيل والبيان عما جاء فيما سبق من السورة ، لذلك أعطى الله الجنــة هنـــا بعض الصفات المشوقة اليها والمرغبة فيها ، فقال تعالى : **(تجرى من تحتها الأنهار اكلها دائم وظلها)** أى وظلها دائم .

فهى جنــة ذات نعيم مادى ومعنوى لحيـــاة أخرى مادية وروحيـــة ، وليست حياة روحيـــة مجردة عن المادة كما يزعم بعض الفلاســـفة وبعض أصحاب الملل الذين حرفت أصول دياناتهم الحقة .

وتلك الجنة الرفيعة المقـــام هى جزاء الذين اتقوا ربهم فآمنوا به وعملوا صالحا ، فهم يدخلونها ويخلدون فيها ، بسبب ما قدموا من ايمـــان وعمل صالح ، وجزاء الذين كفروا بربهم فبعدوا عن كل خير فى الحياة الدنيا النـــار العظيمة التى أعدها الله للمجرمين .

ثم ينتقل السياق الى لون آخر من الوان الصراع الذى جابهه الرســـول صلوات الله عليـــه فى دعوته ، انه صراع مع أهل الكتاب من يهود ونصـــارى ، فتعرض طائفة من الآيات التالية لمحة من عناصر هذا الصراع ولمحة تعليميـــة

للرسول في مجابهة الحوادث ، ولمحة تربوية لنفسه وقلبـه ، وذلك في الآيات (٣٦ و ٣٧ و ٣٨) .

٨ ـ قوله تعالى :

« والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه قل انما أمرت أن اعبد الله ولا اشرك به اليه ادعو واليه مآت » (٣٦) .

(والذين آتيناهم الكتاب) : هم أحزاب اليهود والنصارى ، وقيل : من دخل في الاسلام منهم ، والمراد بالكتاب التوراة ، أو ما يعم الكتب التي أنزلت على بني اسرائيل ، وقيل : هم المسلمون عامة ، والمراد بالكتاب القرآن ، ونرجح القول الأول منها .

(يفرحون بما أنزل اليك) : اي ان أهل الكتاب يفرحون بما أنزل الله اليك أما من آمن منهم فيفرحون كل الفرح به لأنهم قد جمعوا بين الحسـنيين فانتقلوا من الدين المنسوخ الى الدين الناسخ ، وأما الذين لم يؤمنوا منهم فيفرحون نوع فرح بما أنزل اليك من آيات الله ، لأن فيها تصديقا لأنبيائهم وكتبهم فهم يجدون في ذلك قوة لدينهم ضد مشركي العرب الذين لا كتاب لهم ، كيف لا يفرحون ؟ وهم في البلاد العربية بالنسبة الى العرب المشركين قلة غير ذات شوكة ، وهذا نظير ما تعرض اليه المسلمون اذ كانوا قلة مضطهدين في مكة ، فلما وصلت اليهم أنباء القتال بين فارس والروم صاروا يتمنون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب ، اما المشركون فكانوا يتمنون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أهل أوثان .

(ومن الأحزاب من ينكر بعضه) : أي ومن كل حزب من أحزاب اليهود والنصارى ، وهم الذين لم يسلموا منهم ، طوائف ينكرون بعض ما انزل اليك ، لما فيه من تكفيرهم ، وكشف تحريفاتهم في دينهم ، وبيان فسـاد كثير من عقائدهم ، لذلك فهم يساومون الرسول على دينه ، ليحذف من القرآن الآيات التي تكشف باطلهم ، أو تصفهم بالكفر ، أو تهاجم معتقداتهم .

وسمى الله أهل الكتاب هنا أحزابا لأنهم جماعات متفرقة ، لاتجمعهم عقيدة واحدة .

(قل : انما أمرت أن أعبد الله ولا اشرك به اليه ادعو واليه مآب) :

(مآب) : اي مآبي ، والمآب هو المرجع ، وقرىء **(واليه مآبي)** .

والمعنى : قل يا محمد لأهل الكتاب : ليست مهمتي استرضاءكم ، وليس الغرض مما أنزل على مما فيه تصديق لما معكم استجداء معونتكم ، ومساعدتكم

ضد المشركين ، ولكننى رسول من عند الله **مأمور بأن أعبد الله ولا أشرك به** واذا كنت أحارب الشرك الذىعليه قومى فلأن الله أمرنى بذلك ، **لا لأسترضيكم** واستجدى مساعدتكم ، فاذا كنتم تتصورون أو تزعمون أنى أدعو الى **عبادة** الله وحده وعدم الاشراك به ، وأهاجم ما عليه قومى من وثنية وشرك **موافقة** لكم فى بعض أصولكم لأجد عندكم عونا ضد قومى ، **فهو تصور خاطىء ، وزعم** باطل ، وذلك لأننى ما أمرت من قبل الله الذى ارسلنى الا **بأن أعبده وحده** ولا أشرك به ، لذلك فأنا اليه وحده أدعو لا الى غيره ، **واليه وحده مآبى** ومرجعى فى كل أمر من امورى ، كما أن اليه مرجعى يوم الدين .

٩ ــ قوله تعالى :

« وكذلك انزلناه حكما عربيا ولئن اتبعت اهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا واق » (٣٧) .

(وكذلك أنزلناه) : الضمير فى **(أنزلناه)** عائد الى **(ما)** من قوله تعالى فى الآية السابقة : **(بما انزل اليك)** .

(حكما) : الحكم هو القول الفصل المبين للحق ، ويتناول ضروب خبر الكلام وانشائه .

(عربيا) : ولما كان الحكم قولا مبينا للحق صح أن يوصف بأنه عربى ، لأن لفظ القرآن عربى . هذا اذا جعلنا لفظ **(عربيا)** صفة لـ **(حكما)** أما اذا جعلناه حالا ثانية للقرآن فان من أوصاف القرآن المعروفة للفظة انه عربى ، والتقدير : وكذلك انزلنا القرآن حالة كونه حكما وحالة كونه عربيا ، على تأويل **(حكما)** بمشتق أى فاصلا مبينا للحق .

والمشار اليه فى قوله تعالى : **(كذلك)** هو الكتاب من قوله تعالى فى الآية السابقة : **(والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما انزل اليك)** .

والمعنى : ومثل ذلك الكتاب الشامل للكتب المنزلة على بنى اسرائيل بلسانهم انزلنا القرآن قولا فصلا مبينا للحق عربيا .

ولما كان الله هو المنزل لجميع الكتب السماوية فان حكمته اقتضت فى الكتب السابقة أن ينزلها بألسنة غير عربية ، كما اقتضت فى القرآن أن ينزل بلسان عربى مبين .

وقد ورد هذا البيان عن القرآن متضمنا الرد غير الصريح على من قال من اهل الكتاب : ان محمدا يأخذ قرآنه عن بعض العلماء بالكتب السابقة :

ومضمون هذا الرد أن الكتب السابقة منزلة من عند الله ، وكذلك هذا القرآن منزل من عند الله ، والكتب السابقة قد أنزلت بألسنة غير عربية ، وهذا القرآن قد أنزل بلسان عربى ، أى وبما أن لفظه العربى معجز استحال أن يكون مترجما عن أية لغة أخرى بحسب قدرات الناس .

وقد جاء الرد صريحا فى غير هذه السورة ، وذلك فى قوله تعالى : **(لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين)** (١) .

وقد اتخذ أهل الكتاب بعد فرحهم المبدئى بما أنزل على محمد طرقا لمساومته على دينه وعلى دعوته ، منها الأمور التالية :

(أ) أن يقر لهم واقعهم ولا يعتبرهم كافرين اذا لم يتبعوه ويدخلوا فى دينه .

(ب) أن يحذف من القرآن ما فيه مهاجمة لهم أو لعقائدهم .

(جـ) أن يعود الى التوجه الى المسجد الأقصى فى الصلاة بعد أن حوله الله عنه ، وأمره بأن يولى وجهه شطر المسجد الحرام .

وقد تولى الله الرد عليهم ، وذلك بأسلوب واجه فيه الرسول بقوله التالى :

(ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا واق) :

(ولى) ناصر .

(واق) : اسم فاعل من وقى يقى وقاية .

والمعنى : ولئن اتبعت اهواءهم فقبلت مساوماتهم على دينك بغية استرضائهم ، واستجداء مساعدتهم أو مهادنتهم بعد ما جاءك من العلم الربانى والحكم الالهى ما لك من الله من ولى يتولاك وينصرك ، ولا واق يقيك من عذابه .

وفى صورة هذا النص تحذير شديد للرسول من قبول مساومات أحزاب أهل الكفر ، مهما كان نوع كفرهم ، وفى فحواه اشعار لهم بأن أمر الدين ليس من عند محمد حتى يستطيع التصرف فى عقائده ومبادئه وشرائعه ، وانما هو من عند الله ، ولو أن محمدا فعل شيئا من ذلك لأخذه الله بعقابه ، ومن هذا القبيل قول الله تعالى : **(ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين)** (٢) .

كما أن فيه تهديدا شديدا لمن تحدثه نفسه من المسلمين بمداهنة أهل الكفر ومساومتهم على دينه ، لأن الله قد خاطب بهذا الخطاب الشديد رسوله

---

(١) النحل الآية ١٠٣

(٢) الحاقة الآية ٤٤ ـ ٤٦

المصطفى عنده ، الذى لا يمكن ان يفعل شيئا الا ان يأذن الله له به ، فما يكون حال غيره لو فعل شيئا من ذلك ؟ .

ومحل قوله تعالى : **(من الله)** اما حال من قوله : **(من ولى ولا واق)** اى ما لك من ولى ولا واق حالة كونهما من الله ، وعلى هذا اما أن تكون **(من** ابتدائية أو بدلية ، اى ما لك من ولى ولا واق مبتدىء من الله ، أو ما لك من ولى ولا واق بدل الله . واما متعلق بـ **(ولى)** ويقدر لواق مثله ، اى مالك من ولى ينصرك من عذاب الله ولا واق يقيك منه .

وبعد عروض المساومة اخذ اليهود يهاجمون الرسول فى سلوكه الانسانى البشرى ، فقالوا : ما نرى لهذا الرجل همة الا النساء والنكاح ، ولو كان نبيا كما زعم لشغله امر النبوة عن النساء .

ولم يقل اليهود مقالتهم هذه عن قناعة فى نفوسهم لأنهم يعلمون من أمور انبياء بنى اسرائيل ورسلهم ان الزواج من سنن الأنبياء ، وانما غرضهم أن يفتنوا أصحاب الرسول عنه ، وان يضللوا المنافقين الذين لم يدخل الايمان الى قلوبهم ، وأن يوقفوا تدفق العرب الى الدخول فى الاسلام ، فتولى الله الرد عليهم عن طريق خطابه للرسول صلوات الله عليه ، بما يلى :

١٠ ــ قوله تعالى :

« ولقد ارسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم ازواجا وذرية » (٣٨) .

اى فليس أمرك بدعا فى الرسل ، فأنت بشر عندك غرائز البشرية كما ان الرسل من قبلك كانوا بشرا ، وانت معرض لأن يكون لك ازواج وذرية كما كان الرسل من قبلك لهم ازواج وذرية .

واليهود الذين القوا هذه الشبهة هم اعرف الناس ببطلانها ، لأنهم يعرفون ان انبياء بنى اسرائيل لم تمنعهم نبواتهم عن التزوج بالنساء ، وان نساء سليمان قد زدن على المائة ، الى غير ذلك من عوارض البشرية التى كانوا يتعرضون لها أو يمارسون شيئا منها باراداتهم .

وبعد هذه العارضة التى عرضت جانبا من صراع الدعوة مع اهل الكتاب فى هذا القسم الأخير من السورة الموجه ثقله لتربية الرسول صلوات الله عليه ، ولتسليته ولمعالجة خلجات نفسه ، يعود السياق الى استكمال تربية الرسول فيما يتعلق بأحواله ومشكلاته مع المشركين .

وكأن الله جل ثناؤه ادمج هذه العارضة فى موضوع صراع الرسول مع المشركين من العرب لأن مشكلاته مع اهل الكتاب داخل البلاد العربية فى ذلك

الوقت كانت بمثابة الشيء العارض فى حيـاة الرسول يومئـذ ، قبل أن يكون للرسول صلوات الله عليه داخل الجزيرة قوة تستشرف الى ما وراءها .

بعد هذه العارضـة تأتى حركة نفس لرسـول نحو تلبيـة طلب المشركين الآيات التى اقترحوها وضرورة معالجتها بتربية الهية .

ويظهر أن الرسول صلوات الله عليه لما وجد أن الله قد منحه القدرة على تلبية اقتراحاتهم اذ قال له : **(ولو ان قرآنا سيرت به الجبـال او قطعت به الأرض أو كلم به الموتى)** اذا قدرنا أن جواب **(لو)** المحذوف لكان هذا القرآن بدات نفسه تميل الى تلبية طلباتهم منتظرا الاذن من الله به ، لذلك أنزل الله عليـه ما يلى :

١١ ــ قوله تعـالى :

((وما كان لرسول ان ياتى بآية الا باذن الله لكل اجل كتاب)) (٣٨) .

وفى هذا يبين الله لرسـوله انه ليس من شـأن اى رسول ــ ولو أعطـاه الله القدرة على الاتيان بالمعجزات ــ أن يأتى بمعجزة منها الا اذا أذن الله له بذلك .

ونظيره فى تصرفاتنا الانسانية أن نسلم أمين الصندوق مفتاح صندوق المال ، ونسلط يده على فتحـه واخراج المال منـه فى كل وقت ، ثم نقول له لا يجوز لك أن تخرج منه شيئا الا اذا جاءك اذن منا بذلك .

ويحمل هذا النص وجهين :

الوجه الأول : يقصد به تربية الرسول وتحديد صلاحياته .

الوجه الثانى : يقصد به البيان للمشركين الذين يطالبون الرسول بأن يأتيهم بالمعجزات المادية التى اقترحوها ، وذلك باعلامهم أن الرسول لا يستطيع ان يأتى بالآيات الا اذا أذن الله له ، ولو كان عنده القدرة على الاتيان بها .

اما قوله تعالى : **(لكل اجل كتاب)** ففيما يلى بيان المراد منه :

(الأجل) : يأتى لعدة معان :

(أ) فهو الوقت المحدد لحصول الشيء أو ابتداء زمانه .

(ب) وهو غاية الوقت المحدد للشيء .

(جـ) وهو المدة المضروبة للشيء المحصورة بين أول وآخر .

قال الله تعالى : (فاذا جاء اجلهم لا يستاخرون ساعة ولا يستقدمون) (١)

(١) النحل الآية ٦١

اى فاذا جاء الوقت المحدد لموتهم او اذا انتهى الوقت المضروب لحياتهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

وقال تعالى : **(يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه)** (١) اى اذا تداينتم بدين الى مدة مسماة بينكم لتأخير الوفاء فأكتبوه.

(الكتاب) : هو فى الأصل مصدر كتب كتابا واسم للصحيفة المكتوبة ، وتطلق الكتابة مجازا على معان عديدة ، منها : الاثبات ، والتقدير ، والايجاب ، والعزم ، لأن الشيء يحدد أولا بالارادة ، ثم تعلن الارادة بالقبول ، أو بوسيلة أخرى من وسائل التعبير ، فاذا أريد تثبيته تثبيتا جازما كتب فى كتاب ، ومن أجل ذلك قد تطلب الكتابة على الارادة الجازمة ، اشعار بأن الجزم بها بلغ مبلغ الكتاب ، ومنه قوله تعالى : **(قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا)** (٢) .

كما تطلق الكتابة فى جانب الشيء المأمور به على الايجاب ، ومنه قوله تعالى : **(كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم)** (٣) أى فرض عليكم .

ومعنى **(لكل أجل كتاب)** : لكل وقت محدد من أوقات المستقبل كتاب مسجل فيه ما أراد الله حدوثه فى ذلك الوقت من ايجاد أو اعدام أو أى شيء ، ولكل مدة حددها الله لانتهاء اى شيء كتاب أيضا مسجل فيه ما أراد الله منه .

ويدخل فى هذا التعميم شمول ارادة الله الجازمة لكل ما يحدث فى كل وقت من أوقات المستقبل ، ولكل امهال قدر الله بحكمته أن يبتلى به عباده ، وان هذه الارادة الجازمة معلنة على المأمورين بتنفيذها من الملائكة ، ومسجلة لهم فى كتب ، فلا مجال لاستعجال امر قدر الله تأجيله ، ولا لتأجيل أمر قدر الله تنجيزه .

اى فارح نفسك يا محمد من أن يخالجها رغبة بتعجيل ما يستعجلونه من عقاب ، فلكل اجل كتاب .

قال بعض اهل التأويل : ان الكلام على القلب ، واصله لكل كتاب أجل ، وقد قلب رعاية للفاصلة ، وارى هذا التأويل يفسد المعنى المراد ، لأن المعنى عليه يكون كما يلى : لكل كتاب كتبه الله وقت سيأتى تحقيقه فيه ، وهذا المعنى مخالف للواقع لأن المكتوبات الالهية لا تقتصر على ما سيحدث فى المستقبل ، اذ فيها مكتوبات تناولت الحقائق التى لا ترتبط بزمن ، كحقائق الألوهية

---

(١) البقرة الآية ٢٨٢

(٢) التوبة الآية ٥١

(٣) البقرة الآية ١٨٣

وصفاتها ، وفيها مكتوبات تناولت ما مضى وانقضى من الأحداث ، فلم تعد أزمانها التى حدثت فيها آجالا ، لأن الآجال انما هى للازمنة الآتية .

والتحقيق هو ما ذكرناه وان الكلام على ما هو عليه فى صيغته لا قلب فيه، وأن سداد المعنى وموافقته للواقع يقتضيان أن يقال :

(لكل اجل كتاب) .

١٣ — قوله تعالىٰ :

« يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب » (٣٩) .

(المحو) : ازالة الأثر من كتابة أو غيرها ، وعكسه الاثبات .

(أم الكتاب) : اى أصل كل الكتب ، والمراد منه اللوح المحفوظ ، أو علم الله .

وأم الكتاب غير قابل للمحو ، لأن علم الله بما سيكون لا يمكن أن يخالف الواقع ، ولو كان قابلا للمحو لا نقلب العلم جهلا .

والمعنى : يمحو الله ما يشاء محوه من المكتوبات ، ويثبت ما يشاء اثباته فيها ، وعنده الأصل لكل الكتب التى يطلع عليها وملائكته ، وهذا الأصل الذى استأثر الله به لنفسه غير قابل لتغيير أى شيء فيه .

هذا ما يوحى به قوله تعالى : **(يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب)** .

وقد كثرت أقوال المفسرين فى الأمور التى هى محل للمحو والاثبات ، ونرى أن يبقى النص على اطلاقه دون تقييد بنوع من الأمور التى ذكروها ، لأن المحو والاثبات غير مقيدين فى النص الا بمشيئة الله ، والله أعلم بالأمور التى يشاء محوها أو يشاء اثباتها ، وقد أخبرنا بأنه يمحو ما يشاء من الكتب ويثبت فيها ، وأخبرنا بأن عنده أم الكتاب ، أى الذى هو الأصل لكل صور المحو والاثبات ، فهو اذن لا محل فيه لمحو ولا تغيير .

ولما كان قوله تعالى **(يمحو الله ما يشاء ويثبت)** عقب قوله تعالى : **(لكل اجل كتاب)** دلنا ذلك على أن هذه الكتب التى أثبت فيها ما يحدث فى كل أجل قابلة بمشيئة الله لمحو ما اثبت فيها ، واثبات ما لم يكن مكتوبا فيها .

وفى هذه الآية جواب عما قد يدور فى الأنفس من اشكال مفاده : اذا كان كل ما سيحدث فى الأزمان الآتية مما تتعلق به ارادة الله مكتوبا مثبتا فائدة الدعاء والالتجاء الى الله تعالى فى أن يدفع المصائب ويحقق الرغائب ؟ .

ومضمون الاجابة يقضى بأن لا نترك الدعاء والالتجاء لأن الله يمحو من صحف ملائكته ما يشاء ، ويثبت فيها ما يشاء ، فرب أمر مكتوب على العبد

معلق محوه فى علم الله على عمل يفعله ذلك العبد ، فاذا فعله محا الله المكتوب فى صحيفته ، ورب أمر غير مثبت فى صحيفة العبد معلق اثباته فى علم الله على عمل يكون منه ، فاذا فعله اثبت الله ذلك الأمر فى صحيفته ، وعلم الله الذى هو أم الكتاب أو الأصل لأم الكتاب اذا فسرنا أم الكتاب باللوح المحفوظ ، لا يعزب عنه ما سيفعل العبد ولا ما سيحصل فى الكتب من محو واثبات بمشيئة الله تعالى .

هذا ما تحصل لدينا فى تفسير المراد من هذه الآية والله أعلم .

وبهذا يتبين لنا أن تسلسل نظم الآية يفيد استدراكا على استدراك ، لأن قوله تعالى : **(لكل اجل كتاب)** يوهم انه لا محو ولا اثبات فى الكتب فلا فائدة من الكسب والعمل ، فدفع الله هذا الايهام بقوله : **(يمحو الله ما يشاء ويثبت)** وهذا يوهم التغيير والتبديل فى علم الله ومراداته فدفع الله هذا الايهام بقوله : **(وعنده أم الكتاب)** .

١٣ ــ قوله تعالى :

وان ما نرينك بعض الذى نعدهم او نتوفينك فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب . (٤٠) .

(واما نرينك) : **(اما)** مركبة من **(ان)** الشرطية الجازمة و **(ما)** الزائدة للتوكيد .

(بعض الذى نعدهم) : الضمير يعود على المشركين أو على الكافرين عامة ، وقد وعدهم الله بالعذاب المعجل فى الحياة الدنيا ، وهو ما نصت عليه الآية (٣٤) السابقة **(لهم عذاب فى الحياة الدنيا)** والوعد كما سبق يكون فى الشر ويكون فى الخير ، والأغلب أن يستعمل الوعيد فى جانب الشر .

(او نتوفينك) : اى نوفيك أجلك فى الحياة الدنيا ، فاذا استوفى أجله رحل الى ربه .

(فانما عليك البلاغ) : اى ما عليك الا البلاغ ، والبلاغ اسم بمعنى التبليغ ، وفى هذا عود الى بيان مهمة الرسول ، وهى التبليغ ، وانه ليس مسؤولا عن هدايتهم ولا عن محاسبتهم .

والظاهر أن قوله تعالى : **(لتتلو عليهم الذى أوحينا اليك)** فى الآية (٣٠) قد سيق لبيان أنه ليس مسؤولا عن هدايتهم بمعنى تحويلهم من الكفر الى الايمان ، وقوله تعالى هنا : **(فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب)** قد سيق لبيان انه ليس مسؤولا عن حسابهم ، ولذلك قال تعالى : **(وعلينا الحساب)**

أى ليس عليك حســابهم ، فلا تحدثك نفسك بتعجيل ما استعجلوه لأنفسهم من عـــذاب .

ونلاحظ أن تربية الله لرسوله قد بلغت مبلغ التأكيد الشـــديد اذ أكد له الفعلين بنون التوكيد الثقيلة ، وذلك لمعالجة ما يعتمل فى نفسه من الرغبـــة بتعجيل العذاب للكافرين حسب طلبهم ، وبخاصة بعد أن قابلوا امهال الله لهم بالاستهزاء والسخرية بالرســول ، وكأنهم قد وجدوا الحجة لاعلان أنه ليس مرســلا من عند الله اذ اقترحوا الآيات فلم يأت بهـــا ، فاستعجلوا العذاب فأمهلهم الله .

فاقتضى حال الرســول صلوات الله عليــه امام هــذا الموقف الحرج أن يخاطبه الله بمثل هذا الخطاب الذى فيــه ذروة تسكين النفس من جهـــة ، وتحديد المهمة من جهــة أخرى .

والمعنى : واما نرينك يا محمد بعض الذى نعدهم وانت على قيد الحياة ، أو نتوفينك قبل أن نريك ذلك ، فما عليك من المسؤوليـــة فى كل الأحـــوال الا التبليغ فقط ، اما التحويل من الكفر الى الايمان فهم المسؤولون عنه ، وأما الحساب أى وما يتبعه من جزاء فهو علينا ، وما عليك من حسابهم من شىء .
ووفى قوله تعالى : **(بعض الذى نعدهم)** اشـــعار بأن الله على كل حال سيقبض الرسول اليه قبل أن يريه كل ما وعــد الكافرين من عذاب عاجل فى الحياة الدنيـــا .

وبعد هذا الموقف الحازم من التربية الالهيـــة للرسول صلوات الله عليه ، المحاطة بالجلال يعود السياق الى تسليته ، وتطييب نفسه ، والتنفيس عنه بأسلوب مشرق بالجمال ، يحمل بشائر النصر ، وذلك فى .

١٤ ــ قــوله تعــالى :

أو لم يروا انا نأتى الأرض ننقصها من اطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه . وهو سريع الحساب . (٤١) .

(أو لم يروا) : فاعل يروا يحتمل أن يكون عائدا الى الذين آمنوا فى قوله تعالى : **(افلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا)** ويحتمل أن يكون عائدا الى المشركين .

فعلى الاحتمـــال الأول يكون المراد تطييب قلوب المؤمنين وتطمينهم بلفت نظرهم الى بشائر النصر .

وعلى الاحتمـــال الثانى يكون المراد قطع جدال المشركين اذ يتحـــدون الرسول باستعجال السيئة ، ولفت نظرهم الى ما أعـد لهم من عذاب أشد ، فقد بدات طلائع العذاب تدنو منهم .

ولا أرى مانعـــا من أن يكون المقصود بالكلام هؤلاء وهؤلاء ، وعليه تكون الغاية من النص مزدوجة ، وتعدد القصد فى النص الواحـد كثير فى أساليب القرآن ، وهو من روائعه .

والاستفهام فى قوله : **(أو لم يروا)** استفهام تقريرى .

(أنا نأتى الأرض) : أى نأتيها بقضائنا وحكمنا ، أو بعذابنا وعقابنـــا ، والمراد من الأرض الأرض المعهودة ، وهى التى تقع تحت سـلطان المشركين ، وتدخل فيها ارض مكة دخولا أوليا عند نزول النص .

(ننقصها من اطرافها) :

(ننقصها) : فعل نقص يستعمل متعـديا ولازما ، تقول : نقصت الشىء اذا أخـذت طائفـة منـه فقللت بذلك مقداره ، وتقول : نقص الشىء اذا قل مقداره ، والفعل هنا فى الآية على التعدية .

(من اطرافهـــا) : الأطراف جمـع طرف بفتحتين ، وجمع طرف بكسر فسكون ، وجمع طرف بفتح فسكون .

أما الطرف بفتحتين : فمعناه فيما يلى :

قال اهل اللغة : طرف كل شىء منتهاه وجمعه أطراف . وقالوا : الطرف الناحية من النواحى ، والطائفة من الشىء وجمعــه أطراف . وقالوا : طرف القوم رئيسهم وشريفهم والجمع اطراف . وقالوا : الطرف الطائفة من الناس والجمع أطراف ، ومنه قوله تعـــالى : **(ليقطــع طرفا من الذين كفروا)** أى طائفـــة .

واما الطرف والطرف : فيطلقـــان على الكريم من الفتيـــان والرجال وجمعهما أطراف .

وبنـــاء على ذلك يمكن تدبر المعنى المراد من قوله تعـــالى : **(ننقصها من اطرافهـــا)** وفيما يلى بيان ذلك .

ان جو المعنى للآيات السابقة واللاحقـة يوحى بأن الغرض من هذه الآية تطييب قلوب المؤمنين وتطمينهم بلفت نظرهم الى بشائر النصر ، وقطع مجادلة

المشركين للرســول وتنبيههم الى طلائع العــذاب الذى ســيتوالى عليهم فقد بدأت مقدماته .

وبناء على هذا ينبغى أن يكون نقص الأرض من أطرافها شــيئا يتعلق بما لحق الكافرين قبل نزول الآية من نقص فى أشخاصهم أو فى سلطانهم على الأرض أو فى أموالهم فيها ، ونجد فى المعانى اللغوية لكلمة الأطراف كل ذلك .

فاذا كان الأمر الواقع قبل نزول الآية أن المشركين قد فقــدوا بالقتل أو بالأسر أو بالموت أشرافا منهم أو طائفــة من فتيانهم ورجالهم ذوى المكانة فيهم فالمراد من نقص الأرض من اطرافها هو نقص ارضهم من هؤلاء . ويحتمل أن يكونوا قد فقدوهم اذ دخلوا فى الاســـلام ، وبذلك تكون أرض المشركين قد نقصت من أشرافها وفتيانها ورجالها ، وزادت أرض الاسلام بالمسلمين .

واذا كان الأمر الواقع قبل نزول الآية ما حصل من انتصار لبعض سرايا المسلمين على المشركين وامتداد سلطان المسلمين بقيــادة الرسول صلوات الله عليه على أقسام من الأرض التى كان المشركون هم أصحاب السلطان عليهــا ، فالمراد من نقص الأرض من أطرافها تقليص نفوذ المشركين على نواح من الأرض وبسط نفوذ المسلمين عليها . واذا كان الأمر الواقع قبل نزول الآية هذا وذاك فالمراد الأمران جميعا والله أعلم .

(والله يحكم لا معقب لحكمه) :

(يحكم) : أى يقضى ويفصل فى كل أمر بالحق .

(معقب) : اسم فاعل من عقب تعقيبا ، والمعقب هو الذى يتتبع افعــال غيره بالنقد . وبالنقض . يقال : عقب الحاكم على حكم من قبله اذا تتبعه وظهر فساد حكمه أو نقضه .

والمعنى : والله يحكم فى أى أمر فى حال أنه لا معقب لحكمــه لأن احكامــه احكام حق وعدل ، فهى مستندة الى علمــه المحيــط بكل شىء صغيرا كان أو كبيرا ، ظاهرا كان أو خفيا .

(وهو سريع الحساب) : أى وهو لا يحتاج فى اصــدار أحكامه جل ثناؤه الى أناة وروية ، حتى يحصى أجزاء ما يحكم به ، ويجرى لها حسابات أولية ، ثم تدقيقات عليها ، ثم تحقيقات ليتحقق من صحتها ، وينكشف له وجه الحق فيها ، فان بطء الحســـاب من صفات المخلوقين ، أما الله سبحانه فهو سريع الحساب ، لا يخفى عليه من الحساب شىء .

وأصل الحساب العلم بالأعداد واحتمالات جمعها وتفريقها ، ولما كانت الأحكام التى يحكم بها الله على عباده لا بد أن يلاحظ فيها مفردات أعمالهم الكبيرة والصغيرة حتى الذرات منها كان العلم بها والنظر فيها حسابا .

وقد وضع الاسم الظاهر موضع الضمير على طريقة الالتفات فى قوله تعالى : **(والله يحكم)** عقب قوله : **(أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها)** اشارة الى أن من الصفات اللازمة التى تجب لله تعالى كونه سريع الحساب ، وذلك لأن الربوبية والألوهية تستدعيان هذه الصفة .

وقد جاء هذا النص فى معرض وعد الله المؤمنين بالتأييد والنصر ، ووعيده المشركين بالخذلان والقهر ، مبينا أن ما ينجزه الله من أمر من أمور الجزاء انما يكون عن حكم عادل مستند الى حساب غير قابل للخطأ ، على الرغم من سرعته التى تسبق مرور الزمن .

١٥ ـ قوله تعالى :

« وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعا . يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار » (٤٢) .

(قد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعا) .

(المكر) ، هو تدبير أمر فى خفاء عمن دبر عليه لصرفه عما يريد ، أو لايقاعه فيما لا يريد ، وقد سبق أنه قد يكون مكرا مذموما اذا كان الأمر المدبر فيه مؤديا الى نتيجة مذمومة ، وقد يكون مكرا محمودا وذلك اذا كان الأمر المدبر فيه مؤديا الى نتيجة محمودة .

والضمير فى قوله تعالى : **(من قبلهم)** يعود الى المشركين ، ومعلوم أن موضوع السورة يدور حول الحديث عنهم .

أى ، فلا غرابة أن يكون منهم مكر بالرسول وبالدين الذى جاء به ، وبالمسلمين ، فقد سبقتهم أمم كثيرة كافرة مكرت بالرسل وبالرسالات وبالمؤمنين بها .

(فلله المكر جميعا) : جملة لا غموض فى تركيبها ، فهى مؤلفة من مبتدأ وخبر وحال ، ولكن ما هو المعنى المراد من كون المكر كله لله ؟

لقد سبق أن عرفنا المكر ، وأنه قد يكون مكرا فى الخير وقد يكون مكرا فى الشر ، فلا بد أن نقول : ان المكر المنسوب الى الله انما هو من المكر فى الخير .
فلنتبين الحقيقة قبل تحليل النص :

١ – يتصور الكافرون انهم يدبرون خطط مكرهم فى خفـــاء ، وأن خططهم ستحقق لهم الظفـر بالرسل وبرسالاتهم التى من شانهـــا أن تسلبهم نفوذهم وسلطانهم فى قومهم .

٢ – الله تعـالى مطلع عليهم لا تخفى عليـــه منهم ولا من أفعالهم ومخططاتهم خافية ، فما يظنونه خفيا هو معلوم الله تعالى .

٣ – يترك الله تعــالى الماكرين يتابعون تنفيذ خططهم فى المكر وهو مطلع عليهم ، وقد دبر لهم من الأمر ما ليس فى حسبانهم ، حق اذا ظنوا انهم قد قاربوا ان يقطفوا ثمــرة مكرهم فوجئوا بتدبير لا علم لهم به أفســد عليهم خططهم ، ووجدوا انفسهم قد سقطوا فى شركهم الذى نصبوه دون أن يعرفوا سقطوا فيه ، وعند ذلك يجدون ان مكرهم كان عليهم لا لهم .

وهنا نقول : ان المكر الذى يحاول أن يوجهه الكافرون لرسل الله ولدينه انما هو فى الحقيقة محاولة مكر بالله ، ولما كان الله مطلعا على ما يدبرون ، لأنه يعلم ما تكسب كل نفس ، سقط أن يكون ما يحاولونه فى حقيقة الأمر مكرا ، ولما كان الله فيما يمد لهم قد دبر لهم من حيث لا يعلمون ما يفســـد عليهم مكرهم ، ويوقعهم فى جزاء عملهم كان المكر فى الحقيقة لله ، لأن تدابير الله تعالى مجهولة لهم ونافذة فيهم لا محالة .

فأى التدبيرين فى الحقيقة وواقع الأمر هو المكر ؟ أتدبيرهم أم تدبير الله ؟ لا شك أنه تدبير الله ، لكن محالتهم قد كانت ابتغــاء الشر ، وما دبره الله قد كان ابتغــاء الخـير .

ثم هل كان المكر الذى دبره الكافرون لهم ، أى لفائدتهم ومصلحتهم ، أم كان فى النتيجة لله ، أى لدينه ولرسوله وللمؤمنين ؟ لا شك انه لله ، لأنهم قد فعلوا ما فعلوه ليمنعوا دين الله من أن يظهر وينتشر ، وليحافظوا على أوضاعهم فى أقوامهم ، فانقلب الأمر عليهم ، فكان ما فعلوه ســببا فى أن يظهر دين الله وينتشر ، وأن يخسروا كل مكانــة لهـــم فى أقوامهــم ، وأن يخسروا أخيرا أنفسهم ، وعلى مثل هــذا يكون مكر الله ، لنشر دينـــه وتأييد الحق واقامة العدل ، لقد مكروا مكرا ومكر الله مكرا والله خير الماكرين .

ولذلك نجد من الخير الكبير تدبير الأمور بغـــاية الكتمان والسرية للظفر بالمجرمين اللذن يتوارون فى جرائمهم عن أعين السلطة الحاكمـة العـادلة ، ويدبرون مكائدهم فى الظلمات .

وعلى هذا نستطيع ان نقول : ان الذى يمكر بمن لا يخفى عليه مكره ولا يصل اليه أثره ، بل يعرضه مكره الى العقاب ، هو فى الحقيقة المكور به ، وهذا نظير قوله تعالى : **(يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون)** .

ونقرب صورة المكر الالهى بمثال انسانى،انسان عنده قصر عظيم طمع به اللصوص ، فدبروا امرا فى الخفاء أن يأتوا بليل ويحتفروا أحد جدران القصر ، ويدخلوا اليه ، ويسطوا على ما فيه من مال ومتاع ويقتلوا من فيه ، وقد علم صاحب القصر بما دبروا ، وعرف الجدار الذى عزموا على نقبه ، ودبر خطة فى الجدار يهلكون فيها بايديهم ، دون ان يقاتلهم احد من رجال القصر ، ولما حان الوقت المقرر فيما بينهم جاءوا متسللين ظانين أن أحدا لا يشعر بهم ، ولكن صاحب القصر وجنوده يراقبون كل حركة من حركاتهم ، وهم فى مكان يرون فيه اللصوص من حيث لا يرونهم ، وأخذ اللصوص ينقبون الجدار حسب الخطة المدبرة ، ولما زعموا أنهم كادوا يظفرون بما يريدون انقض عليهم الجدار فهلكوا تحت أنقاضه .

لقد مكروا بزعمهم ومكرهم شر ، ولكن المكر فى الحقيقة لصالحب القصر ، ومكره خير ، لأن غرضه من مكره أن يمنعهم عن فعل الشر ويجازيهم عليه بأيديهم ، ويريح الناس من جرائمهم .

وبعد هذا البيان المسهب نستطيع أن نفهم معنى قوله تعالى : **فلله المكر جميعا)** .

لقد تبين لنا من التحليل السابق أن المكر فى الحقيقة وواقع الأمر كله لله ، لأن مكر الكافرين المعلوم لله والذى لا يحقق لهم أغراضهم ليس هو فى الحقيقة وواقع الأمر مكرا ، فلم يبق الا تدبير الله ، الذى هو المكر فى الحقيقة وواقع الأمر ، ولكنه ابتغاء الحق والعدل والخير .

ويحتمل ان نقول : ان اللام الجارة فى : **(لله المكر)** تمعنى : **(الى)** أو بمعنى **(عند)** وعلى هذين يكون المعنى ينتهى الى الله المكر جميعا ، أى العلم به وما يترتب عليه من جزاء ، وعند الله المكر جميعا ، أى عند الله العلم به والجزاء عليه . ولكن البيان الأول هو الأسد فى تدبر معنى النص ، والله أعلم .

قال المفسرون فى قوله تعالى : **(فلله المكر جميعا)** أقوالا منها :

(أ) معناه أن مكر جميع الماكرين حاصل بخلق الله وارادته ؛ لأنه تعالى خالق لجميع أعمال العباد ، وقد نقله المفسرون عن الواحدى .

(ب) معناه أن الله جزاء المكر ، وذلك انهم لما مكروا بالمؤمنين بين الله انه يجازيهم على مكرهم .

(جـ) معناه أن مكرهم كلا مكر بالاضافة الى مكره تعالى ، وهذا ما أورده صاحب الكشاف ثم علق على قوله تعالى : **(يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار)** بقوله : لأن من علم ما تكسب كل نفس واعد لها جزاءها فهو المكر كله ، لأنه يأتيهم من حيث لا يعلمون ، هم فى غفلة مما يراد بهم .

(يعلم ما تكسب كل نفس) : أى يعلم جميع ما تكسب كل نفس ، سواء أكان كسبا ظاهرا أو باطنا فى التطبيق والعمل أو فى النية والقصد ، وهذه الجملة فى منزلة التعليل لقوله تعالى : **(فلله المكر جميعا)** أى **لأنه** يعلم ما تكسب كل نفس فلا يخفى عليه من مكر الماكرين شيء .

وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار) : وفى هذا وعيد للكافرين جزاء كفرهم ومكرهم يوم القيامة ، والمراد من عقبى الدار العاقبة المحمودة فى الدار الآخرة ، وسيعلمون انها لن تكون لهم ، وانما تكون للمؤمنين ، أما هم فجزاؤهم النار .

١٦ — قوله تعالى :

ويقول الذين كفروا لست مرسلا . قل : كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب . (٤٣) .

ويختم الله آيات السورة بآية يعرض فيها خاتمة اقوال الكافرين ، ويأمر فيها رسوله بما ينبغى أن يقوله لهم اذ يختم معهم البحث ، وينفض يده من معالجتهم ، ويحسم النقاش ، لقد انتهى الذين كفروا الى مقالتهم الأخيرة مخاطبين الرسول بها **(لست مرسلا)** وذلك بعد الصراع المختلف الأنواع بينهم وبين الرسول ، وهو ما عرضته السورة بأشكاله المتنوعة التى سبق بيانها .

لقد طرحوا كل الحجج والبيانات التاريخية وراءهم ظهريا ، ولم يعبأوا بالتلميح بالانذار ولا بالتلويح بالوعيد ، ثم بالتصريح بهما ، ولم تؤثر فيهم انواع المعالجات النفسية ، بل اطمعهم الأمهال ، فجرأهم على الاستهزاء والسخرية بالرسول واستعجال العقاب ، ثم لم تهزهم من غفلتهم المواجهة القوية بالوعيد الصريح ، وأخيرا لم يتعظوا بمقدمات العذاب وطلائع العقاب ، وظلوا يجترون مقالتيهم الأولين ، وهما :

(أ) ان كنت صادقا فى رسالتك فأتنا بالمعجزات التى طلبناها .

(ب) اذا لم تأتنا بالمعجزات التى طلبناها فاستعجل لنا من ربك العقاب .

ولما امهلهم الله قالوا للرسول مقالتهم الأخيرة على سبيل الجزم : **(لست مرسلا)** وهذا ما ذكره الله بقوله : **(ويقول الذين كفروا لست مرسلا)** واخذوا يرددون هذه المقالة ، فقال الله لرسوله : **(قل : كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب)** وبهذا يقطع الرسول معهم حبل المناقشة ويحسم الجدل ، اى حسبى شهادتان :

الشهادة الأولى : أن يشهد الله لى بأنى رسوله ، وشهادة الله له فى الدنيا تكون بالمعجزات التى أعطاه اياها غير التى تعنتوا بطلبها ، وفى مقدمتها معجزة القرآن ، وهذه الشهادة الالهية له ستكون حجة عليهم يوم القيامة .

الشهادة الثانية : أن يشهد لى من عنده علم الكتاب بأنى رسول الله حقا .

ومن عنده علم الكتاب هم : اما المؤمنون الذين تكشف لهم من اعجاز القرآن مادلهم على انه كلام الله حقا ، فعرفوا منذ ذلك أن محمدا رسول الله حقا ، واما المؤمنون من اهل الكتاب الذين عرفوا من صفات الرسول فى كتبهم والبشائر به ما اثبت لهم انهم رسول الله حقا ، ولذلك آمنوا به واتبعوه .

ولما انقطع الجدل وحسم الأمر ، واصبح الموقف موقف انتظار حكم الله فى اهل الكفر ، انتهت السورة .

(ب) معنى الآيات من (٣٠ الى ٤٣) نصا واقتضاء :

وبعد أن وصل الرسول مع المشركين الى ما وصل اليه وهو ما عرضته الآيات السابقة فلابد ان بخالجه عدة امور بوصفه بشرا ، منها الأمور التالية :

الأمر الأول : أن يصعب عليه ويحزنه بقاؤهم على الكفر والشرك ، بعد كل البينات التى ساقها اليهم ، والحجج الدامغة التى حاجهم بها ، وانواع التربية التى تفنن فى اساليبها لمعالجة انحرافهم عن الحق وردهم الى الصراط المستقيم .

الأمر الثانى : ان تحدثه نفسه بأن يقول : لو اعطانى الله الآيات التى يتعنتون فى طلبها او اذن لى بان اقدمها اليهم ، قطعا لالسنتهم عن طلب الآيات ، ورجاء ان يؤمنوا اذا رأوها قد تحققت على ما طلبوا .

الأمر الثالث : ان يمر على خاطره انزال العقاب بالمكابرين منهم الذين استعجلوا العذاب ، تخلصا منهم ، ولعل ذلك يكون سببا فى ايمان الآخرين ومبادرتهم الى الدخول فى دين الله .

الأمر الرابع : ان يحزنه ما يلاقيه منهم من استهزاء وسخرية جارحين للنفوس ومحزنين للقلوب .

الأمر الخامس : أن تخالج نفسه أمور أمام مساومات يتعرض اليها من قبل أهل الكتاب على بعض ما جاء به وهو فى قمة صراعه مع المشركين .

الأمر السادس : أن يتخوف مما يبيت الكافرون له ولرسالته والمسلمين من مكر ، وهو ما يتكشف له باستمرار من تدبيراتهم وأعمالهم مع امهال الله لهم .

الأمر السابع : أن تحزنه مواجهة الكافرين الصريحة له بقولهم : **(لست مرسلا)** من عند الله ، وذلك لأنه لم يأتهم بما طلبوا من آيات مع امهال الله لهم بعد استعجالهم العذاب .

وفى هذا القسم الأخير من السورة توجه الله ثقل تربيته لرسوله صلوات الله عليه ، معالجا ما يدور فى نفسه فعلا ، أو ما يمكن أن يدور فيها بأسلوب رفيع بالغ الروعة ذى وجهين : وجه ينظر اليه الرسول فيشاهد فيه تربية له وتعليما ، ووعدا بالنصر والتأييد والمثوبة الحسنى ، ووجه آخر ينظر اليه الكافرون فيرون فيه حجة عليهم وبيانا ، أو انذارا لهم ووعيدا بالخذلان والعذاب وسوء العقاب ، وفيما يلى تفصيل ذلك :

أما الأمر الأول : وهو حزن الرسول لبقاء المشركين على كفرهم بعد كل الحجج والبينات وانواع التربية التى عالج اصلاحهم بها فقد جاءت الآية ٣٠) توجه للرسول التربية بالنسبة الى هذا الأمر ، وقد تضمنت تربية الله لرسوله فيها أمرين :

الأول : بيان الله لرسوله أن مهمته هى التبليغ فقط ، وذلك بأن يتلو عليهم ما أوحاه الله اليه فى حالة كونهم يكفرون بالرحمن ، واشعاره بأن هذه المهمة هى مهمة الرسل من قبله ، فليس عليه أن يحولهم من الكفر الى الايمان ، واشعاره أيضا بأن الأمم من قبلهم قد كانوا أيضا يكفرون بالرحمن ، فما مهمته اذن الا كمهمة سائر الرسل ، وليس واقع حال قومه بواقع غريب فى الأمم ، وهذا ما دل عليه قوله تعالى :

« كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا اليك وهم يكفرون بالرحمن » (٣٠) .

الثانى : بيان الله لرسوله أن يصر على اقامة الحجة العقلية التى تبين لهم سلامة عقيدته وطريقته ، وفساد عقيدتهم وطريقتهم ، وذلك بان يقول لهم : الله وحده هو ربى ومن كان وحده هو الرب كان هو وحده المستحق للعبادة ، فهو اذن الاله الذى لا اله الا هو ، وهذا كاف فى رد ما يعتقدون من وجود شركاء الله تعالى : ولما كان هو وحده الاله الذى لا اله الا هو فانى أتوكل عليه ، وأرجع فى كل أمرى اليه ، كما أن اليه رجوعى يوم الدين ، وهذا ما دل عليه قوله تعالى :

« قل : هو ربى لا اله الا هو عليه توكلت واليه متاب » .

القسم الثـالث
معلومات عامة حول السنة والاجماع والاجتهاد

كتب هذا القسم د. مصطفى عبد الواحد

تعريف السنة :

السنة فى اللغة الطريقة والسيرة محمــودة كانت او مذمومة . ومن استعمالها بهذا المعنى اللغوى قوله صلى الله عليه وسلم :

« من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بهــا الى يوم القيامة . ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة » (١) .

وفى اصطلاح المحدثين : ما اضيف الى النبى صــلى الله عليه وسلم من قول او فعل او تقرير او صفة او سيرة . وعند علماء الأصول : ما نقل عن النبى صلى الله عليه وسلم من قول او فعل او تقرير فالقول : هو ما تكلم به صلى الله عليه وسلم عما يتصل بامور الدين واحكام الشريعة كقوله صلى الله عليه وسلم : **« انما الأعمال بالنيات »** وقوله **« لا وصية لوارث »** وقوله : **« لا ضرر ولا ضرار » .**

وغير ذلك مما هو مذخور فى كتب الصحاح والمسانيد والسنن .

وأما الفعل فهو ما نقلـه الصحــابة رضوان الله عليهم من افعاله صلى الله عليه وسلم فى شئون العبادة والمعاملة والتشريع والخلق .

واما التقرير فهو كل ما اقره النبى صــلى الله عليه وسلم من اقوال الصحابة وافعالهم سواء كان ذلك التقرير بسكوت منه وعدم انكار او باظهار الرضا والاستحسان .

فمن الأول : اقراره صلى الله عليه وسلم اجتهــاد الصحابة فى امر صلاة العصر فى غزوة بنى قريظة حين قــال لهم صلى الله عليه وسلم « لا يصلين احد العصر الا فى بنى قريظة » .

فمنهم من أخذ بظـــاهر الامر فأخر صـــلاة العصر حتى انتهوا الى بنى قريظـــة . ومنهم من حمل هــذا الأمر على معنى الحث على الاسراع فى الذهاب الى بنى قريظة . فصلوا العصر فى وقتهـــا قبل بلوغ بنى قريظـــة . فبلغه صلى الله عليه وسلم ما فعله الفريقان فأقرهما ولم ينكر على أيهما .

ومن الثانى : ما روى ان خالد بن الوليد رضى الله عنه كان مع النبى صلى الله عليه وسلم فى طعــام فقدم اليهما ضب فأكل منه خالد رضى الله عنــه ولم يأكل منه النبى صلى الله عليه وســلم : فقال له بعض الصحــابة أو حرام هو يا رسول الله ؟

فقال : لا . ولكنه ليس فى ارض قومى فأجدنى اعافه .

فقد اقر صلى الله عليه وسلم خالدا على اكله الضب بتأييد قولى صريح .

(١) رواه مسلم

معنى الحديث :

الحديث في اللغة الجديد . نقيض القديم ــ ومادة الكلمة تدور حول معنى واحد وهو كون الشيء بعد أن لم يكن .

وفي اصطلاح المحدثين : هو ما اثر عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول او فعل او تقرير او صفة . والحديث بهذا المعنى مرادف للسنة .

الخبر والأثر :

يرى جمهور العلماء ان الخبر والأثر لفظان مرادفان للحديث . ومن العلماء من فرق بين الحديث والخبر والأثر ؛ فجعل الحديث ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، والخبر ما جاء عن غيره (١) . واما الاثر عند هؤلاء فهو الحديث الموقوف على الصحابة والتابعين .

الحديث الصحيح :

هو الحديث المسند أي الذى اتصل اسناده بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط من اول السند الى منتهاه ، ولا يكون شاذا ولا معللا .

الحديث الحسن :

هو كالحديث الصحيح في اتصال سنده وفي خلوه من الشذوذ والعلة . ولكنه يتقاصر عن درجة الصحيح في ان الصحيح من شرطه أن يكون جميع رواته قد ثبتت عدالتهم وضبطهم واتقانهم . وذلكغير مشترط في الحسن فلا يخلو رجال اسناده من مستور لم يتحقق اهليته غير انه ليس متهما بالكذب ولا كثير الخطأ او انه من المشهورين بالصدق والأمانة غير انه لم يبلغ درجة وله اقسام كثيرة بينها علماء الحديث (٢) .

الحديث الضعيف :

كل حديث لم تجتمع فيه صفات الحديث الصحيح ولا صفات الحديث الحسن .

وله اقسام كثيرة بينها علماء الحديث (٣) .

---

(١) قواعد في علوم الحديث للتهانوى ص ٣٤ .

(٢) راجع علوم الحديث لابن الصلاح ٢٧ ـ ٣٩ .

(٣) يراجع علوم الحديث لابن الصلاح ص ٣٧ وما بعدها .

الحديث القدسى :

هو ما يرويه النبى صلى الله عليه وسلم عن الله عز وجل .
وقد اختلف العلماء فى الحديث القدسى : هل هو موحى بلفظه ومعناه ؟ أم بمعناه ، واللفظ من النبى صلى الله عليه وسلم . وجهان .

واذا قلنا انه موحى بلفظه ومعناه فالفرق بينه وبين القرآن انه لا يراد بالحديث القدسى التحدى والاعجاز كما هو الشأن فى القرآن .

ويرى بعض الباحثين انه لو كان موحى بلفظه لما جازت روايته بالمعنى ، ولدون وحفظ كما حفظ القرآن . ومن هنا يرجح هؤلاء أن الحديث القدسى . موحى بمعناه اما لفظه فهو من كلام النبى صلى الله عليه وسلم (١) .

الفرق بين الحديث القدسى والحديث النبوى :

على قول من يرون الحديث القدسى موحى بلفظه ومعناه ، يكون الفرق بينه وبين الحديث النبوى أن الحديث القدسى هو من كلام الله سبحانه ــ وان لم يكن مقصودا به التحدى والاعجاز . أما الحديث النبوى فهو من كلامه صلى الله عليه وسلم .

اما على قول من يرون أن الحديث القدسى من لفظه صلى الله عليه وسلم فالفرق بينه وبين الحديث النبوى من جهة المعنى أن معنى الحديث القدسى وحى لا اجتهاد فيه ولا استنباط . أما الحديث النبوى فمنه طائفة اوحى الى النبى صلى الله عليه وسلم معناها وطائفة اخرى من اجتهاده واستنباطه . وهذا القسم الأخير ما دام قد اقره الوحى فهو منه أيضا .

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه (النبأ العظيم) : فلما قطعنا فى الحديث القدسى بنزول معناه لورود النص الشرعى على نسبته الى الله تعالى ، بقوله صلى الله عليه وسلم :

(قال الله تعالى) : سميناه قدسيا لذلك (٢) .

تدوين السنة :

(أ) فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم :

١ ــ كان الصحابة رضوان الله عليهم يتلقون السنة القولية والعملية من

---

(١) الحديث النبوى للاستاذ محمد الصباغ ص ٣٦ .
(٢) النبأ العظيم ص ١٠ .

الرسول صلى الله عليه وسلم بحرص بالغ . اذ هى بيان للقرآن وتوضيح لمعالم الاسلام .

وكان التعويل فى الأعم على الحفظ . . اذ لم تكن الكتابة شائعة بين العرب وحين أراد بعض الصحابة فى أول الأمر كتابة حديث النبى صلى الله عليه وسلم نهاهم الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال : « لا تكتبوا عنى شيئا سوى القرآن فمن كتب عنى شيئا سوى القرآن فليمحه » .

واخرج ابن عبد البر عن المطلب بن عبد الله بن حنطب قال دخل زيد بن ثابت على معاوية فسأله عن حديث فأمر انسانا أن يكتبه فقال له زيد : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا لا نكتب شيئا من حديثه . فمحاه (١) .

وانما كان هذا النهى عن كتابة الحديث حتى لا يختلط شىء منه بالقرآن ، وحتى تنصرف الهمم الى العناية بكتابة القرآن ليتم ما وعد الله سبحانه به من حفظ هذا الكتاب من الضياع أو التحريف . قال سبحانه : **((انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون))** (٢) .

٢ ــ ثم أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لجماعة من أصحابه ممن كانوا يتقنون الكتابة والضبط ، وممن يؤمن غلطهم أو خلطهم بين القرآن وغيره ــ بكتابة الحديث ومن هؤلاء عبد الله بن عمرو . ويذكر ابن قتيبة فى كتابه تأويل مختلف الحديث أن اذن الرسول صلى الله عليه وسلم لعبد الله ابن عمرو فى كتابة الحديث يرجع الى انه كان متقنا ضابطا يعرف السريانية والعربية ويكتب بهما ، فمثله يؤمن غلطه بخلاف غيره ممن لم يتقنوا الكتابة .

ومن العلماء من يرى أن النهى عن الكتابة . انما كان المقصود به النهى عن كتابة الحديث مع القرآن فى صحيفة واحدة . وفى ذلك يقول الامام الخطابى :

« وقد قيل انما نهى أن يكتب الحديث مع القرآن فى صحيفة واحدة لئلا يختلط به ويشتبه على القارىء . فأما أن يكون نفس الكتاب محظورا وتقييد العلم بالخط منهيا عنه فلا » (٣) .

٣ ــ والتحقيق فى ذلك أن النهى عن الكتابة كان أولا للأسباب التى اشرنا اليها .

ثم نسخ هذا الحكم بالأحاديث التى دلت على أباحة كتابة الحديث .

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ٦٣/١ .
(٢) سورة الحجر : الآية ٩ .
(٣) معالم السنن للخطابى ١٨٤/٤ .

فمنها ما رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

لما فتحت مكة قام رسول الله صلى الله عليه وسلم . فذكر الخطبة ــ خطبة النبى صلى الله عليه وسلم ــ قال : فقام رجل من اليمن يقال له أبو شاة . فقال يا رسول الله اكتبوا لى . فقال صلى الله عليه وسلم : اكتبوا لأبى شاة . يعنى الخطبة .

« ومنها ما رواه أبو داود والحاكم وغيرهما عن عبد الله بن عمرو قال : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله انى اسمع منك الشىء فاكتبه ؟ قال : نعم . قال عبد الله : فى الغضب والرضا ؟ قال صلى الله عليه وسلم : نعم فانى لا اقول الا حقا » .

وكتب صلى الله عليه وسلم . كتاب الصدقات والديات والفرائض والسنن لعمرو بن حزم وغيره (١) .

وفى الصحيح عن أبى جحيفة قال : قلت لعلى بن ابى طالب هل عندكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم شىء سوى القرآن ؟ قال : لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة الا ان يعطى الله عبدا فهما فى كتابه ، وما فى هذه الصحيفة . قلت : وما فى الصحيفة ؟ قال : العقل وفكاك الأسير والا يقتل مسلم بكافر .

وكذلك كان لعبد الله بن عمرو صحيفة يقال لها الصادقة وعنها يقول : « فأما الصادقة فصحيفة كتبتها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٢)

غير ان هذه الاباحة لكتابة الحديث كانت فى أواخر حياته صلى الله عليه وسلم .

وكان من يكتبون من الصحابة رضوان الله عليهم قلة .

التدوين فى عهد الخلفاء الراشدين :

لم ير الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم اشتغال الناس بتدوين السنة . صرفا للعناية الى جمع القرآن واعتمادا على أن السنة محفوظة عن طريق الرواية . والمشهور فى ذلك موقف عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو ما رواه معمر عن الزهرى عن عردة « ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه اراد ان يكتب السنن فاستفتى اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك فاشاروا عليه بان يكتبها ، فطفق عمر يستخير الله فيها شهرا ، ثم اصبح يوما وقد عزم الله له ، فقال انى كنت اريد ان اكتب السنن ، وانى ذكرت

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ٧١/١ .

(٢) سنن الدارنى .

قوما كانوا قبلكم كتبـوا كتبا فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله ، وانى والله لا اشوب [1] . كتاب الله بشيء أبدا » .

وهذا الخبر يبين اسباب منع تدوين السنة بصورة عامة فى عهد الخلفاء الراشدين ، ولا ينفى هذا ان بعض افراد الصحابة كانوا يكتبون لأنفسهم .. ولكن الشيء الذى لم يحدث فى ذلك العصر هو تدوين السنن المحفوظة فى الصدور ، كما فعلوا فى كتابة القرآن . لقد كان القصد من هذا المنع من التدوين هو توفير الجهود كلها للاشتغال بحفظ القرآن وحتى لا يلتبس به شيء غيره .. وهذا معنى قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « لا اشوب كتاب الله — وفى رواية : لا البس كتاب الله — بشيء أبدا » .

اذ كان المحذور من كتابة السنن فى ذلك العهد — أن تنتشر هذه الصحف فى الآفاق ، وان يقع الوهم بأن شيئا منها من القرآن ، ما دام قد كتب فى العصر الذى كتب فيه القرآن .

ولهذا كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى الأمصار : « من كان عنده شيء فليمحه » (٢) .

وكان ابن عباس رضى الله عنهما ينهى عن الكتابة أيضا .

ولم يكن على السنة فى هذا العصر من بأس — مع ترك تدوينها — اذ كان المعول على الحفظ الدقيق والرواية الواعية .

عن ابى نضرة قال : قلت لأبى سعيد الخدرى : الا نكتب ماتسمع منك — اى من الاحاديث والسنن قال : أتريدون أن تجعلوها مصاحف ؟ ! ان نبيكم صلى الله عليه وسلم كان يحدثنا فنحفظ .. فاحفظوا كما كنا نحفظ (٣) .

وقال مالك رحمه الله : لم يكن مع ابن شهاب الزهرى كتاب الا كتاب فيه نسب قومه — قال : ولم يكن القوم يكتبون ، انما كانوا يحفظون ، فمن كتب منهم الشيء فانما كان يكتبه ليحفظه ، فاذا حفظه محاه .

وقد كان هذا كله من تقدير العزيز العليم الذى تكفل بحفظ القرآن .. فهدى الصحابة فى هذا العهد الراشد الى تخصيص القرآن وحده بالكتابة ، لا يلتبس به شيء ، حتى يثبت فى الصدور وينتشر فى الآفاق .. أما السنن فلم

---

(١) أى لا أخلط .

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ١/٦٥ .

(٣) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ١/٦٤ .

يضع منها شيء ـ رغم أنها لم تدون ـ اذ كانت الصدور الواعية تمسك بها .. وكان العمل بها والاهتداء بهديها يجعلها امرا مشهورا وطريقا مسلوكا .

تدوين السنة وجهود العلماء :

بعد أن انقضى عصر الصحابة رضوان الله عليهم وجاء عصر التابعين ومن بعدهم .. وكان القرآن الكريم قد لقى من العناية ما جعله فى مأمن بعد ذلك من التحريف او الخلط بغيره لم يعد هناك بأس من كتابة الحديث ..

بل أصبح ذلك امرا لازما .. خشية ذهاب الحديث بذهاب حفاظه .. وخوفا من ان يتطرق اليه مع اختلاف العصور الوهم او الخطأ او التحريف او النسيان ..

من هنا امر الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز فى فترة خلافته القصيرة(١) بكتابة الحديث وكتب الى عامله على المدينة ابى بكر بن حازم : « انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه ، فانى خفت دروس العلم وذهاب العلماء » .

وكان ابن شهاب الزهرى المتوفى عام ١٢٤ هـ أول من استجاب لهذه الرغبة .. فهو اول من دون كتابا جمع فيه ما كان يحفظه من الأحاديث وكان تدوين السنة فى هذا القرن الهجرى الثانى يجمع بين اقوال الرسول صلى الله عليه وسلم واقوال صحابته .

وكان ابن شهاب الزهرى يجمع فى تدوينه للسنة بين أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم . وما جاء عن أصحابه .

عن صالح بن كيسان قال : كنت انا وابن شهاب ونحن نطلب العلم ، فاجتمعنا على أن نكتب السنن ، فكتبنا كل شيء سمعناه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قال ـ اى ابن شهاب ـ اكتب لنا ما جاء عن اصحابه ؛ فقلت : لا ، ليس بسنة . وقال هو : بل هو سنة . فكتب ولم اكتب فانجح وضيعت (٢) .

وبدات هذه الكتب المدونة فى السنة تنتشر فى الأمصار الاسلامية فى عهد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، كما يدل على ذلك قول ابن شهاب الزهرى : « أمرنا عمر بن عبدالعزيز بجمع السنن . فكتبناها دفترا دفترا ؛ فبعث الى كل ارض له عليها سلطان دفترا (٣) .

---

(١) ٩٩ ـ ١٠١ هـ .

(٢) ابن عبد البر : جامع بيان العلم ٧٦/١ .

(٣) المصدر السابق .

وفى القرن الهجرى الثانى ايضا كتب الامام مالك (١) كتابه الموطأ الذى جمع فيه ما بلغه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأحكام واقوال الصحابة وفتاوى التابعين .

تدوين السنة فى القرن الهجرى الثالث :

يعد هـذا القرن بحق العصر الذهبى للسنة اذ فيه اتجهت همم العلماء والرواة الى جمع الحديث الشريف . مفردا عن اقوال الصحابة والتابعين . والى تحرى الدقة البالغة فى التمييز بين الصحيح وغيره . وفى هذا القرن الثالث كتب البخارى المتوفى عام ست وخمسين ومائتين كتاب الجامع الصحيح كما الف مسلم المتوفى عام احدى وستين ومائتين صحيحه .

وفيه ايضا جمع النسائى المتوفى عام ثلاث وثلاثمائة سننه . وأبو داود المتوفى سنة خمس وسبعين ومائتين كتابه المعروف بسنن أبى داود .

والترمذى المتوفى سنة تسع وسبعين ومائتين كتابه الجامع . وابن ماجة المتوفى سنة ثلاث وسبعين ومائتين كتابه المعروف بسنن ابن ماجة .

وهذه هى الكتب التى اطلق عليها علماء الحديث اسم الكتب الستة وكلها كتبت فى القرن الثالث الهجرى .

قال ابن الصلاح :

« أول من صنف الصحيح البخارى . أبو عبد الله محمد بن اسماعيل الجعفى ،وتلاه أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابورى القشيرى .. ومسلم ـ مع أنه أخذ عن البخارى واستفاد منه ـ يشاركه فى كثير من شيوخه .

وكتاباهما أصح الكتب بعد كتاب الله العزيز » (١) .

ثم قال :

« ثم ان كتاب البخارى أصح الكتابين صحيحا واكثرهما فوائد » .

وينبغى هنا الاشارة الى أن صحيحى البخارى ومسلم لم يستوعبا كل الأحاديث الصحيحة .

---

(١) ٩٥ ـ ١٧٩ . .

(٢) علوم الحديث لابن الصلاح ص ١٣ ـ ١٤ .

فقد روى عن الامام البخارى انه قال :

« ما ادخلت فى كتابى الجامع الا ما صح ، وتركت من الصحاح لحال الطول ـ أو لملال الطول » .

وقال الامام مسلم :

« ليس كل شيء عندى صحيح وضعته ها هنا ـ يعنى فى كتابه الصحيح ـ انما وضعت هاهنا ما اجمعوا عليه » .

قال ابن الصلاح : اراد مسلم ـ والله اعلم ـ انه لم يضع فى كتابه الا الأحاديث التى وجد عنده فيها شرائط الصحيح المجمع عليه » .

وقد بلغ من تحرى الامام البخارى الدقة البالغة فى اختياره لأحاديث الجامع الصحيح . . ان جملة ما فى كتابه الصحيح سبعة آلاف ومائتان وخمسة وسبعون حديثا ـ بالأحاديث المكررة . اما باسقاط المكرر فقد قيل انها اربعة آلاف حديث اختاره من محفوظه الكثير من الحديث .

أما الكتب الأربعة للنسائى وأبى داود وابن ماجه والترمذى فقد جمعت بين الصحيح وغيره . وقد ألف الحاكم ابو عبد الله كتابه المستدرك على الصحيحين . جمع فيه من الأحاديث الصحيحة ما لم يورده الشيخان فى صحيحهما . وان كان فى بعض ما خرجه الحاكم فى المستدرك مقال .

المنهج الدقيق لعلماء الديث :

حاول بعض المستشرقين ومن اتبع سبيلهم من المسلمين وهم عدد قليل ـ التشكيك فى المنهج العلمى الرائع الذى التزمه علماء الحديث فى تدوينهم للسنة أو حكمهم على ما دونوه منها من جهة الصحة أو الحسن أو الضعف أو الوضع .

والحق أن هذه فرية ظالمة . . اذ ان الجهد الذى بذله علماء الحديث فى جمعه وضبط رواياته والبحث فى حال الرواة وغير ذلك مما يتضح فى علوم الحديث التى نشأت جنبا الى جنب مع رواية الحديث وتدوينه . . هذا الجهد هو أقصى ما تصل اليه طاقة بشرية مخلصة للحق مستمسكة بمبادىء العلم وقواعده .

١ ـ لقد كان التثبت فى الرواية منهجا متبعا عرفه الصحابة وتلقاه عنهم التابعون . . يقول الذهبى فى ترجمة أبى بكر الصديق رضى الله عنه : وكان أول

من احتاط فى قبول الأخبار ، فروى ابن شهاب عن قبيصة بن ذؤيب أن الجدة جاءت الى أبى بكر تلتمس أن تورث فقال : « ما أجد لك فى كتاب الله شيئا ، وما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر لك شيئا » .

ثم سأل الناس ، فقام المغيرة فقال : « حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيها السدس » .

فقال له أبو بكر : هل معك أحد ؟ فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك ، فأنفذه لها أبو بكر رضى الله عنه (١) .

وقال الذهبى فى ترجمة عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « وهو الذى سن للمحدثين التثبت فى النقل ، وربما كان يتوقف فى خبر الواحد اذا ارتاب » .
وقال فى ترجمة على بن أبى طالب رضى الله عنه : « كان اماما عالما متحريا فى الأخذ بحيث انه يستحلف من حدثه بالحديث » .

٢ ـ وقد عرف الصحابة والتابعون الرحلة فى طلب الحديث ، فمنهم من كان يسافر الأيام والليالى فى طلب حديث واحد ..

عن جابر بن عبد الله قال : بلغنى حديث عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فابتعت بعيرا فشددت عليه رحلى ثم سرت اليه شهرا حتى قدمت الشام » (٢) .

وروى سفيان بن عيينة عن ابن جريج قال سمعت شيخا من اهل المدينة ـ يحدث عن عطاء أن أبا أيوب الأنصارى رحل الى عقبة بن عامر ، فلما قدم مصر أخبروا عقبة فخرج اليه قال : حدثنا ما سمعته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ستر المسلم ، لم يبق أحد سمعه غيرى وغيرك .

قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من ستر مسلما على خزية (٣) ستره الله يوم القيامة » فاتى ابو ايوب راحلته فركبها وانصرف الى المدينة وما حل رحله (٤) .

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبى ١/٢ .
(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ١/٩٣ .
(٣) أى مايستحى منه .
(٤) جامع بيان العلم ١/٩٤ .

وقال سعيد بن المسيب : ان كنت لأسير الأيام والليالى فى طلب الحديث الواحـد . بل ان مسروقا رحل فى طلب حرف واحد من حديث .. وكذلك نعل أبو سعيد (١) !

وقال بسر بن عبيد الله الحضرمى : ان كنت لأركب الى المصر من الأمصار فى الحديث الواحد لأسمعه .

فاذا كان هذا مبلغ تحريهم فى الجمع وتثبتهم فى النقل .. فمن أين يأتى الريب أو تتسرب التهمة .

٣ ــ ثم ننظر الى ما اختصت به هذه الأمة فى روايتها لسنة نبيها محمد صلى الله عليه وسلم وهو الاسناد .

لقد ظهرت الحاجة الى النظر فى السـند ــ وهو سلسلة الرواة ــ الذين تحملوا الحديث حتى ينتهى الى الصحابى الذى رواه عن النبى صلى الله عليه وسلم .

حين ظهر الوضع فى الحديث بعد ان اتسع نطاق الفتنة بعد مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه .. واخـذت بعض الفرق المتصارعة تضع الأحاديث لنصرة معتقداتها والاحتجاج لآرائها .

هنا عنى رواة الحديث بالبحث فى اسناد الحديث وفحص أحوال الرواة لتمييز العدول الذين تقبل روايتهم من أهل الأهواء والبـدع والزيغ الذين لا تقبل الرواية عنهم .

أخرج مسلم فى مقدمة صحيحه عن محمد بن سيرين انه قال :
« لم يكونوا يسألون عن الاسناد ، فلما وقعت الفتنة قالوا سموا لنـا رجالكم ، فينظر الى حديث أهل السنة فيؤخـذ حديثهم ، وينظر الى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم » .
وكانوا يقولون :
« انما هذه الأحاديث دين . فانظروا عمن تأخذونها » .
ومن هنا نشأ علم الجرح والتعـديل الذى يوزن به الرجال ويعرف به صحة السند أو عدم صحته .

واذا نظرنا الى الكتب التى ألفت فى علم رجال الحديث منذ نشأ هذا العلم وحتى انتهى الى غايته عرفنا مدى التجرد فى البحث والصدق فى التحرى ..

---

(١) المصدر السابق .

اذ ذكروا فى هذه الكتب حال كل واحد من الرواة ما له وما عليه .. لتعرف قيمة ما يرويه .

٤ ـ اما ادعاء بعض المستشرقين ومن اقتفى آثارهم : ان علماء الحديث وجهوا عنايتهم الى نقد الاسانيد ولم يعنوا بنقد المتون . ـ اى نصوص الكلام المنسوب الى النبى صلى الله عليه وسلم ـ فهذا محض افتراء .

اذ ان رجال الحديث قد وجهوا عنايتهم الى النظر فى متون الحديث نفسها وعرضها على المقاييس التى تعرف بها صحتها .

بل ان هذا امر مقرر منذ عهد الصحابة رضوان الله عليهم اذ كانوا لا يأخذون المرويات التى تخالف اصلا قطعيا او مقصدا شرعيا اخذ من عدة ادلة تفيد اليقين .

اخرج مسلم فى صحيحه ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه سمع حديث فاطمة بنت قيس ان زوجها طلقها ثلاثا فلم يجعل لها رسول الله صلى الله عليه وسلم سكنى ولا نفقة . فقال عمر : لا نترك كتابى الله وسنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لقول امرأة لا ندرى لعلها حفظت او نسيت . لها السكنى والنفقة قال الله عز وجل : **« لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن الا ان يأتين بفاحشة مبينة » (١) .**

وهذه عائشة رضى الله عنها قد نقل عنها النظر فى بعض الاحاديث التى كان يرويها بعض الصحابة فقد سمعت حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه وابنه عبد الله ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : **« ان الميت ليعذب ببكاء اهله عليه »** فقالت : رحم الله عمر ، والله ما حدث رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يعذب المؤمنين ببكاء احد ، ولكن قال : « ان الله يزيد الكافر عذابا ببكاء اهله عليه » ، وقالت : حسبكم القرآن : **« ولا تزر وازرة وزر اخرى » (٢) .**

زاد مسلم : « انكم لتحدثونى غير كاذبين ولا مكذبين ولكن السمع يخطىء » .

وقد جمع السيوطى هذه الاستدراكات التى ابدتها عائشة رضى الله عنها فى رسالة عنوانها : « عين الاصابة فى استدراك عائشة على الصحابة » . وهذا كله من نقد المتن .

---

(١) سورة الطلاق الاية « ١ » .

(٢) سورة الاسراء الاية « ١٥ » .

ثم ان علوم الحديث لم تحن بالسند فحسب . بل ان من بحوثها ما يتجه الى معرفة احوال متن الحديث . كبحثهم في المرفوع والموقوف والناسخ والمنسوخ والمتلف الذى يحتاج الى تأويل .

بل ان النظر فى المقاييس التى اعتبرها علماء الحديث لمعرفة الاحاديث الموضوعة . تدل على اعتبارهم النظر فى متن الحديث وسيلة من وسائل التمييز وقرينة من قرائن معرفة الوضع .

يقول ابن الصلاح :

« وانما يعرف كون الحديث موضوعا باقرار واضعه ، او ما يتنزل منزلة اقراره . وقد يفهمون الوضع من قرينة حال الراوى او المروى ؛ فقد وضعت احاديث طويلة يشهد بوضعها ركاكة الفاظها ومعانيها » (١) .

وهذا ابن القيم (٢) . يؤلف كتابا يسميه « المنار المنيف فى الصحيح والضعيف » يقول فيه : « وسئلت هل يمكن معرفة الحديث الموضوع بضابط . من غير ان ينظر فى سنده ؟ ثم يقول :

« ونحن نقيسه على امور كلية يعرف بها كون الحديث موضوعا . فمنها : اشتماله على امثال هذه المجازفات التى لايقول مثلها رسول الله صلى الله عليه وسلم : وهى كثيرة جدا . كقوله فى الحديث المكذوب :

« من قال لا اله الا الله : خلق الله من تلك الكلمة طائرا له سبعون الف لسان لكل لسان سبعون الف لغة يستغفرون الله له » .

ومن فعل كذا وكذا اعطى فى الجنة سبعين الف مدينة فى كل مدينة سبعون الف قصر ... الخ .

وامثال هذه المجازفات الباردة التى لايخلو حال واضعها من احد امرين : اما ان يكون فى غاية الجهل والحمق . واما ان يكون زنديقا قصد التنقيص بالرسول صلى الله عليه وسلم باضافة مثل هذه الكلمات اليه .

ومن هذه المقاييس كما يذكرها ابن القيم :
تكذيب الحس له . كحديث :

---

(١) علوم الحديث لابن الصلاح ص ٣٩ .
(٢) ٦٩١ - ٧٥١ هـ .

« الباذنجان لما اكل له » : وكذلك حديث : « اذا عطس الرجل عند الحديث فهو دليل صدقه ومنها : سماجة الحديث وكونه مما يسخر منه كحديث : « لو كان الارز رجلا لكان حليما ، ما اكله جائع الا اشبعه » . فهذا من السجع البارد . الذى يصان عنه كلام العقلاء فضلا عن كلام سيد الانبياء !

ويمضى ابن القيم فيعدد المقاييس التى يعرف بها كون الحديث موضوعا بالنظر الى متنه ، ودون نظر الى سنده .

فكيف يزعم الزاعمون بعد ذلك ان رجال الحديث وقفوا عند حد النظر فى الأسانيد وتركوا نقد المتون ، مع ان عنايتهم بالنظر فى المتون كما يتضح من علوم الحديث ـ لا تقل عن عنايتهم بنقد الأسانيد والبحث فى أحوال الرجال . الحق ان عناية الأمة الاسلامية بالسنة النبوية ـ ممثلة فى هذا الجهد العلمى الرائع الذى بذله رجال الحديث فى العصور المتتابعة ـ عناية لا نظير لها ، لم تبذلها أمة غيرها نحو تراث نبيها وسنته .

مكانة السنة :

السنة النبوية التى صحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أصل من أصول الدين ، فهى المصدر الثانى الذى يؤخذ منه الدين عقيدة وعبادة وشريعة وخلقا ونظاما . بعد المصدر الأول وهو كتاب الله تبارك وتعالى . فالسنة بيان للقرآن وتفصيل لمجمله .

قال سبحانه :

« وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل لهم (١)

وقال سبحانه :

« وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » (٢) .

وقد زعم قوم من ادعياء التجديد فى هذا العصر ان بامكانهم الاقتصار على القرآن ونبذ السنة بدعوى انه قد تطرق اليها الشك .

ومع ان هـذا الزعم باطل ـ من جهة توثيق السنة وصحة روايتها وتدوينها كما بيناه آنفا ـ فهو باطل من جهة النظر الى الأصول التى يؤخذ منها الاسلام ، فقد انفردت السنة بتفصيل كثير من العبادات والأحكام

---

(١) سورة النحل الآية ٤٤ .

(٢) سورة الحشر الآية ٧ .

التى لم تفصل فى القرآن ، مثل كيفية الصلاة وعدد الركعات وانصبة الزكاة وبعض احكام الحج وغير ذلك .

وفى هذا يقول النبى صلى الله عليه وسلم :

« الا وانى اوتيت القرآن ومثله معه »

وعن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يوشك احدكم ان يقول : هذا كتاب الله ما كان فيه من حلال احللناه وما كان فيه من حرام حرمناه »

وفى رواية :

« يوشك رجل منكم متكئا على أريكة يحدث عنى بحديث فيقول بيننا وبينكم كتاب الله . فما وجدنا فيه من حلال استحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه . الا وان ما حرم رسول الله مثل الذى حرم الله » (١) .

وعن ميمون بن مهران فى قوله سبحانه :

« فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول » (٢) .

قال : الرد الى الله : الرد الى كتابه . والرد الى رسوله اذا كان حيا ، فلما قبضه الله فالرد الى سنته »

قال ابن عبد البر :

والبيان منه صلى الله عليه وسلم على ضربين :

بيان المجمل فى الكتاب العزيز كالصلوات الخمس فى مواقيتها وسجودها وركوعها وسائر أحكامها ، وكبيانه الزكاة وحدها ووقتها وما الذى تؤخذ منه الاموال وبيانه لمناسك الحج . قال صلى الله عليه وسلم اذ حج بالناس : « خـذوا عنى مناسككم » لأن القرآن انما ورد بجملة فرض الصلاة والزكاة والحج دون تفصيل والحديث مفصل .

والثانى : هو زيادة على حكم الكتاب . كتحريم نكاح المراة على عمتها وخالتها ، وكتحريم الحمر الاهلية وكل ذى ناب من السباع .. الى اشياء يطول ذكرها .. وقد امر الله عز وجل بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم واتباعه امرا مطلقا مجملا لم يقيد بشىء ، كما امرنا باتباع كتاب الله » (٣)

هـــذا وان فـرية الزعم بالاقتصار على كتاب الله وترك السنة فرية مدحوضة منذ عصر الصحابة رضوان الله عليهم ، اذ وجد فى زمانهم نفر

---

(١) تراجع روايات هذا الحديث فى جامع بيان العلم لابن عبر ١٨٦/٢ ــ ١٩٠ .

(٢) سورة النساء الاية ٥٩ .

(٣) جامع بيان العلم ١٩٠/١ .

قليل من اهل الأهواء كانوا يقولون بذلك .. وقد رد عليهم الصحابة بالحجة الواضحة .

عن عمران بن حصين رضى الله عنه انه قال لرجل : انك امرؤ احمق ! اتجد فى كتاب الله الظهر أربعا لا تجهر فيها بالقراءة ثم عدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا ، ثم قال : أتجد فى كتاب الله مفسرا ؟ ان كتاب الله أبهم هذا وان السنة تفسر ذلك (١) .

وقال رجل لمطرف بن عبد الله بن الشخير رضى الله عنه : لا تحدثونا الا بالقرآن .

فقال له مطرف : والله ما نريد بالقرآن بدلا ولكن نريد من هو أعلم بالقرآن منا (٢) ـ يعنى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومجمل القول : ان حجية السنة وكونها مصدرا اصيلا للاسلام ثابت بنص القرآن وبنص حديث صلى الله عليه وسلم وباجماع الأمة ، وان السنة قد اشتملت على كثير من الأحكام المفصلة لأحكام القرآن ، كما انفردت ببيان طائفة منها لم ترد فى القرآن .

روى ابن عبد البر ان امرأة جاءت الى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فقالت له :

بلغنى انك لعنت ذيت وذيت والواشمة والمستوشمة وانى قرات ما بين اللوحين فلم أجد الذى تقول

فقال لها عبد الله :

اما قرات : ((وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)) (٣)

فقالت بلى . قال : فهو ذاك .

فالقرآن الكريم قد وجه المسلمين الى تلقى السنة واتباعها ، متى صحت وفق المنهج العلمى الدقيق الذى قرره علماء الحديث .

---

(٤) جامع بيان العلم ٢/١٩١ .

(١) المصدر السابق .

(٢) سورة الحشر الآية ٧ .

الاجمـــاع

الاجماع مصدر من مصادر التشريع بعد الكتاب والسنة . وهو اتفاق المجتهدين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، بعد وفاته فى عصر من الأعصار على أمر من الأمور الشرعية .

والاجماع حجة تثبت بها الاحكام . يقول سبحانه : (سورة النســاء الآية ١١٥)

« ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير ســـبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا » .

ووجه الاستدلال بهذه الآية أن الله سبحانه جمع بين مشاق الرسول صلى الله عليه وسلم واتباع غير سبيل المؤمنين فى الوعيد . فلو كان اتباع غير سبيل المؤمنين مباحا لما جمع بينه وبين المحظور . فالخروج عن اجماع المجتهدين من المؤمنين اتباع لغير سبيلهم ..

ومن هنا تثبت حجية الاجماع . وانه مصدر من مصادر الحكم الشرعى ولقوله صلى الله عليه وسلم . « **لن تجتمع امتى على ضلالة** » اخرجه الطبرانى فى المعجم الكبـير . واخرج الترمذى عن ابن عمر عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : « **لا تجتمع أمتى على ضـــلالة ، ويد الله مع الجماعة** ومن شذ شذ الى النار » .

واخرج البغوى عن ميمون بن مهران قال :

« كان أبو بكر اذا ورد عليه الخصوم نظر فى كتاب الله فان وجد فيه ما يقضى بينهم قضى به ، وان لم يكن فى الكتاب وعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك الأمر سنه قضى بها . فان أعياه خرج فسأل المسلمين وقال : أتانى كذا وكذا فهل علمتم ان رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم قضى فى ذلك بقضاء ؟ فربما اجتمع عليه النفر كلهم يذكر فيه عن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قضاء . فان أعياه أن يجد فيه سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع رءوس الناس وخيارهم فاستشارهم ، فان اجمع رايهم على شىء قضى به . وكان عمر يفعل ذلك » .

وكان عمر رضى الله عنه يستشير الصحابة . مع فقهه . حتى كان اذا رفعت اليه حادثة قال ادعوا لى عليا وادعوا لى زيدا فكان يستشيرهم ثم يفصل بما اتفقوا عليه .

يقول الشيخ عبدالوهاب خلاف :

« من هذا يتبين ان اجماع الصحابة ما كان الا اتفاق من أمكن اجتماعهم من رءوسهم وخيارهم على حكم واقعة لم يرد نص بحكمها وان الذى دعاهم الى اتباع هذه السبل هو العمل بالشورى التى أوجبها الله وسار عليها الرسول صلى الله عليه وسلم » (١)

الاجتهـــــاد

الاجتهاد فى اصطلاح علماء الاصول هو بذل الجهدللتوصل الى الحكم الشرعى العملى من دليله التفصيلى . وهو يكون فى الوقائع التى لم يرد فيها نص قطعى .

أما الواقعة التى دل على حكمها نص قطعى فى وروده . وقطعى فى دلالته . بمعنى أنه لا مجال للعقل أن يدرك منه الا حكما بعينه فلا مساغ للاجتهاد فيها . والواجب اتباع حكم النص فيها بعينه .

فلا مجال للاجتهاد مثلا فى أن اقامة الصلاة فريضة . ولا فى فروض أصحاب الفروض من الورثة .

والواقعة التى دل على حكمها نص ظنى الدلالة . بمعنى أن النص يحتمل الدلالة على حكمها او على حكم غيرها .. يكون للاجتهاد فيها مجال . ولكنه اجتهاد فى حدود فهم المراد من النص وترجيح أحد معانيه .. وفقا للاصول اللغوية والتشريعية ..

وذلك كما فى آية الوضوء فى قوله سبحانه :

« وامسحوا برءوسكم » (٢) .

فيحتمل ان يكون المراد الرأس كله . أو بعضه .. ومن هنا يكون عمل المجتهد هو ترجيح أحد المعنيين وفقا للادلة التى تظهر له .

والواقعة التى ثبت حكمها بانعقاد الاجماع فلا مجال للاجتهاد فيها . غير أن الميدان الفسيح للاجتهاد هو فى الوقائع التى لم يدل على حكمها نص ولم ينعقد على حكمها اجماع .

ولا يجوز الاجتهاد . ولا يقبل . الا ممن استوفى شرائط المجتهد . وهى العلم بأحكام القرآن ومعرفة علومه . من الناسخ والمنسوخ والمكى والمدنى

---

(١) مصادر التشريع الاسلامي فيما لا نص فيه للشيخ عبد الوهاب خلاف ص ١٦٧ .

(٢) سورة المائدة الاية ٦ .

وغير ذلك . والعلم بالسنة العملية القولية والفعلية والتقريرية ، ومعرفة الناسخ والمنسوخ منها . والعلم بالاجماع الذى انعقد فى عصر من العصور التى سبقت بحيث لا يخالف اجماع . من يعتد باجماعهم . ومعرفة القياس واركانه وشروطه .. وما يتصل به من الأصول .. وعلل الأحكام . كما يشترط فى المجتهد معرفة اللسان العربى قواعده ومفرداته واساليبه ..

وقبل ذلك وبعده لا بد فى المجتهد من الورع والأمانة وحسن الخلق والشجاعة فى قول الحق والعدالة .

القيـــاس :

القياس هو الحاق امر لم يرد فيه نص بآخر ورد فيه نص ببين حكمه ، فى هذا الحكم الذى ورد به النص ، لتساوى الأمرين فى العلة .

مثال : ان شرب الخمر محرم بالنص وهو قوله تعالى : « فاجتنبوه » فيقاس عليه تحريم شرب اى نبيذ آخر تخمر وصارت فيه خاصة الاسكار التى فى الخمر لتساويهما فى علة التحريم .

وايضا : البيع وقت النداءللصلاة من يوم الجمعة منهى عنه بقوله تعالى « **فاسعوا الى ذكر الله** » (١) فيقاس عليه النهى عن الاجارة او العقود الاخرى فى مثل هذا الوقت لتساويها فى العلة وهى انها تشغل عن ذكر الله .

والقياس حجة شرعية ، واستدلوا على ذلك بالكتاب والسنة واقوال الصحابة .

ففى الكتاب قوله سبحانه :

« **فاعتبروا يا اولى الأبصار** » (٢)

ووجه الاستدلال ان الله سبحانه بعد ان اخبر عما كان من بنى النضير وما نزل بهم من نكال قال : فاعتبروا اى فقيسوا انفسكم بهم لأنكم اناس مثلهم ان فعلتم مثل فعلهم حاق بكم مثل ما حاق بهم (٣) .

وقال الله سبحانه فى جزاء الصيد « فجزاء مثل ما قتل من النعم » . وفيه تمثيل الشيء بعدله ومثله وشبيهه ونظيره وهو نفس القياس (٤)

---

(١) سورة الجمعة الاية ٩ .

(٢) سورة الحشر الاية ٢ .

(٣) مصادر التشريع للشيخ عبد الوهاب خلاف .

(٤) جامع بيان العلم ٢/٦٥ .

وفى الحديث ان امراة قالت للنبى صلى الله عليه وسلم « ان أمى نذرت ان تحج فلم تحج حتى ماتت افأحج عنها ؟ فقال صلى الله عليه وسلم **نعم حجى عنها ، ارايت لو كان على أمك دين اكنت قاضيته ؟ »** قالت نعم . فقال : اقضوا الله فالله أحق بالوفاء » .

وغير ذلك من الاحاديث التى تدل على حجية القياس وانه مصدر من مصادر الحكم الشرعى ، بعد الكتاب والسنة والاجماع .

قال المزنى :

« الفقهاء من عصر الرسول الله صلى الله عليه وسلم الى يومنا وهلم جرا .. استعملوا المقاييس فى الفقه فى جميع الأحكام فى أمر دينهم قال: واجمعوا ان نظير الحق حق ، ونظير الباطل باطل .

ثم قال : فلا يجوز لأحد انكار القياس لأنه التشبث بالأمور والتمثيل عليها وقد كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى أبى موسى الاشعرى :

« واعرف الأشباه والأمثال وقس الأمور » (٥) .

---

(٥) جامع بيان العلم ٦٦/٢ وفيه نصوص كثيرة فى هذا المعنى .

القســـم الرابع

دراسة لطائفة من احاديث الرســول (صلى الله عليه وسلم)

كتب هذا القسم الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني

الحديث الأول

عَنْ أَبِي عَمْرٍو جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : كُنَّا فِي صَدْرِ النَّهَارِ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَجَاءَهُ قَوْمٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ أَوِ الْعَبَاءِ ، مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ ، عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ ، بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ ، فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ ، فَأَمَرَ بِلَالاً فَأَذَّنَ وَأَقَامَ ، فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

وَالْآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ . إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ ، مِنْ دِرْهَمِهِ ، مِنْ ثَوْبِهِ ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ ، حَتَّىٰ قَالَ : وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ .

قَالَ : فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ الأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا بَلْ قَدْ عَجَزَتْ . قَالَ : ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّىٰ رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِن طَعَامٍ وَثِيَابٍ ، حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :

(مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ)

رواه مسلم في باب الحث على الصدقة

(أ) ترجمة راوى الحديث (جرير بن عبد الله البجلى) :

١ ـ هو أبو عمرو جرير بن عبد الله بن جابر بن مالك بن نضر بن ثعلبة ابن جشم بن عويف البجلى ، نسبة الى بجيلة قبيلة من اليمن ، وهذه النسبة جارية على القياس لأن قياس النسبة الى فعيلة فعلى بفتح الفاء والعين .

٢ ـ روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وعن عمر ، وعن معاوية .

٣ ـ كان اسلامه بعد نزول سورة المائدة ، فى نفس السنة التى توفى فيها النبى صلى الله عليه وسلم .

٤ ـ قال جرير : ما حجبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أسلمت ، ولا رآنى الا ابتسم .

٥ ـ قال عبد الملك بن عمير : رايت جرير بن عبد الله وكأن وجهه شقة قمر .

وقال عمر بن الخطاب : يرحمك الله نعم السيد كنت فى الجاهلية ونعم السيد أنت فى الاسلام .

٦ ـ توفى سنة (٥١) للهجرة وقيل غير ذلك ، والله أعلم .

(ب) اللغــة :

١ ـ فى صدر النهار : اي فى اوله ، وصدر كل شيء أوله .

٢ ـ عراة : جمع عار ، اسم فاعل من عراه يعروه عروا اذا اتاه طالبا معروفه ، أو من عرى من ثوبه يعرى عريا وعرية اذا تجرد من اللباس . أو من قولهم رجل عار اذا أخلقت أثوابه .

٣ ـ مجتابى النمار : المجتاب اسم مفعول من اجتاب بمعنى خرق الشيء من وسطه ، يقال جاب الشيء جوبا ، واجتابه اجتيابا اذا خرقه . وكل مجوف قطعت وسطه فقد جبته واجتبته . وفى التنزيل . « وثمود الذين جابوا الصخر بالواد »(١) قال الفراء جابوا ، خرقوا الصخر فاتخذوه بيوتا .

٤ ـ النمار : جمع مفرده نمرة ، وهى بردة من صوف يلبسها الاعراب قال فى لسان العرب : كأنها أخذت من لون النمر لما فيها من السواد والبياض ، أراد انه جاءه قوم لابسو أزر مخططة من صوف ، انتهى .

٥ ـ مضر : قبيلة من قبائل العرب ، تنسب الى مضر بن نزار بن معد ابن عدنان ، قال ابن سيده : سمى به لأنه كان مولعا بشرب اللبن الماضر .

---

(١) الفجر الآية : ٩

يقال مضر اللبن يمضر مضورا اذا خمض وابيض .

٦ ــ فتمعر : فتغير لون وجهه شفقة عليهم ، يقال فى اللغة : غضب فلان فتمعر لونه ووجهه ، اى تغير وعلته صفرة ، والأصل فيه قلة النضارة وعدم اشراق اللون من قولهم مكان أمعر وهو الجدب الذى لا خصب فيـــه .

٧ ــ الفاقة : الفقر والحاجة ، وليس له فعل من لفظه ، وانما يقـال : افتاق الرجل اذا افتقر فهو مفتاق ، ولا يقال فاق .

٨ ــ تساءلون به : اى تتساءلون به ، اذ كان من عادة العرب أن يسأل بعضهم بعضا بالله .

٩ ــ اتقوا : التقوى جعل النفس فى وقاية مما يخاف .

١٠ ــ من ديناره ــ من درهمه : اى من دنانيره ــ من دراهمه ــ لأن المفرد المضاف الى معرفة يعم ، وهكذا البقية .

١١ ــ الصاع : مكيال لأهل المدينة يأخذ اربعة امداد ، وهو يذكر ويؤنث ، قال فى لسان العرب : فمن انث قال : ثلاث أصوع مثل ثلاث أدور ومن ذكره قال : « أصواع » اى ثلاثة أصواع .

اما المد : فمختلف فيه فقيل هو رطل وثلث بالعراقى ، وبه يقول الشافعى وفقهاء الحجاز ، وقيل : هو رطلان ، وبه اخذ أبو حنيفة وفقهــاء العراق .

١٢ ــ الصرة : شيء يجمع فيه الدراهم والدنانير أو غيرهما ويصر ، وأصل الصر الجمع والشد .

١٣ ــ كومين : بفتح الكاف وضمها ، والكومة بالضم الصبرة . والكوم : هو العظيم من كل شيء ، والمكان المرتفع .

١٤ ــ يتهلل : اى يستـــنير ويتلألأ ، وذلك ممــا وقع فى قلبه من السرور بتبادر الأصحاب الى مساعدة المضربين .

١٥ ــ كأنه مذهبة : اى كأنه فضة مموهة بالذهب ، اذ علت بياض وجهــه صلى الله عليه وسلم حمرة المسرة والابتهاج . يقال فى اللغة : اذهب الشيء اذهابا ، وذهبه تذهيبا ، اى موهه وطلاه بالذهب .

١٦ ــ السنة : هى السيرة والطريقة حسنة كانت أو قبيحة ، والسنة فى الاصطلاح الشرعى : ما أثر عن النبى صلى الله عليه وسلم من قول أو

فعل أو تقرير ، ولكن المراد من اللفظ هنا المعنى اللغوى .

١٧ - الوزر : الحمــل الثقيل ، والاثم ، وقد سمى الاثم وزرا تشبيها له بالحمل الثقيل ، وجمعه اوزار .

١٨ - ينقص : من نقص الشيء ينقص نقصــا ونقصانا ، ويستعمل الفعل متعديا أيضا ، فتقول : نقصت الشيء . أما انقصته على التعـديه بالهمز فلغة مستعملة فى هذا الفعل ولكن الأولى افصح .

ج) اشرح :

١ - انسانية الرسول :

لم تمر انسانية الرسول الكاملة على مشهد فاقة القوم المضريين مرور أكثر الناس الذين تبلد حسهم الانسانى فلا يجدون انفعالا وجدانيا نحو ذوى الحــاجة يدفعهم لمواساتهم ، وكف الأذى عنهم ، ولكن انســانيته الكاملة صلوات الله عليه انفعلت لهذا المشهد انفعالا بالغا ظهر فى تمعر وجهه اولا ، ثم فى دخوله الى حجرته لعله يجد عنده ما يواسيهم به ثانيا ، ثم باعتبــار أمر حاجة هؤلاء من الامور الهامة التى تســتدعى من الرســول أن يخطب بنفسه فى أصحابه ، يحثهم على مواساتهم بالصدقة فى اسلوب مؤثر رائع ، دفع المسلمين الى ان يساهموا بمعوناتهم ، حتى ترابى كومان من طعــام وثياب بين يدى الرسول صلوات الله عليه ، قبل أن ينفض الجمــع عقب صلاة الظهر على ما يظهر من الحديث .

الا فليتخذ القــادة هذا الانسان الكامل اســوة حسنة به يقتــدون ، وبهديه يسترشدون .

٢ - خطبة الرسول فى دعوة أصحابه لمواساة المضريين :

وانتظر الرسول صلوات الله عليه حتى دخل وقت صلاة الظهر ، وتهيأ المسلمون فى جو العبــادة الروحانى للاستجابة الى دعوة البذل والعطــاء ، فقام بهم خطيبــا بعد أن استكملوا الوان عبادتهم . وافتتح خطبتــه بآيتين من كتــاب الله .

الآية الأولى منهما هى :

(يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ، ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيبا (١)) .

---

(١) سورة النساء : الاية ١ .

اختيار حكيم لتصدير الخطبة به . انهـا آية تنادى النـاس بوصفهم الانسانى العام ، لتنبه فيهم انسانيتهم المشتركة بين افرادهم ، ولتأمرهم بتقوى الله الذى يمدهم بالتربية الدائمة حسـا ومعنى ، والذى يعظمونه فيما بينهم حتى يقول قائلهم لأخيـه أسألك بالله ان تفعل كذا ، ولتذكرهم بوحدة أصلهم ، واخوة افرادهم ، وبواجبات الرحم . وفى كل ذلك ما يمهد للدعوة الى البـذل والسخاء لمواساة هؤلاء الفقراء العراة من قبيلة مضر ، فهم اخوة فى الانسانية ورحم فى النسب .

والآية الثانية منهما هى :

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله ان الله خبير بما تعمـلون) (١) .

وفى اختيار هذه الآية معنى أخص من الآية السابقة . لأن الأولى تنبههم الى انسانيتهم العامة ، أما هذه فتخاطبهم بوصفهم مؤمنين مندرجين فى سلك الذين يدفعهم ايمانهم الى طاعة الله وابتغاء رضوانه . وينتظرون وعد الله بالتوبة والأجر العظيم يوم القيامة ، على ما يقدمونه فى الدنيـا من عمل صالح ، وأعظم بالصدقة التى لا من فيها ولا اذى عملا صالحا يستحق المؤمن فيه الأجر الأوفر ، فضلا من الله اقتضاه وعده الكريم . وبعـد ان استهل الرسول خطبته بهاتين الآيتين تلطف بدعوة المسلمين الى الصدقة :

(أ) بأسلوب الخبر لا بأسـلوب الأمر ليكون الرفق بالطلب والتعـريض به ادعى الى صدق البذل .

(ب) وعلى سبيل التنكير والابهام لا على سبيل الخطاب والتعيين ، ليكون وقع الطلب على نفوسهم هينا . وليتنافسوا فى البذل ويظهر فضـل السابق منهم الى الخير ، والمندفع منهم بنفسه الى العطاء .

(جـ) وعلى مقدار الاستطاعة حتى لا يعتذر منهم معتذر بأنه لا كثير عنـده ينفق منه ، وحتى لا يخجل منهم مقل بما يقدم من قليل عطاء .

فقال صلوات الله عليه :

(تصدق رجل من ديناره ، من درهمه ، من ثوبه ، من صـاع بره ، من صاع تمره) .

---

(١) سورة الحشر : الآية ١٨ .

واستمر الرسول صلوات الله عليه يعدد متنازلا الى اقل ما يملك حتى قال :

(ولو بشق تمرة) وهل فى الصدقة اقل من نصف تمرة ينتفع به ؟

انه لايجاز رائع ، ارشد وحث وبلغ الغاية . فتسابق المسلمون الى تلبية دعوة الرسول هذه . فكان أسبقهم رجل من الانصار جاء بصرة كبيرة عجزت كفه عن متابعة حملها ، وكانى به قد احتملها بكلتا يديه بعد أن عجزت كفه عن الاستمرار فى حملها . فسن بسبقه الى فعل الخير سنة حسنة شجع بها القوم أن يسرعوا الى حمل ما تجود أنفسهم به . فتتابع الناس كل يحمل على مقداره ، حتى بلغ ما اجتمع بين يدى الرسول كومين من طعام وثياب . عند ذلك امتلأ قلب الرسول صلوات الله عليه ابتهاجا بما رأى . وطفق وجهه يتهلل سرورا وبشرا ، حتى بدا كأنه فضة مذهبة .

ولم ينس الرسول صلوات الله عليه أن يذكر فضل أول القوم مبادرة الى تقديم صدقته . وينوه بشأنه . وينتهز المناسبة لاعلان مبدأ هام من مبادىء الاسلام وأصل عظيم من اصوله . فقال :

(من سن فى الاسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير ان ينقص من أجورهم شىء ، ومن سن فى الاسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير ان ينقص من أوزارهم شىء) .

وانما كان لصاحب السنة الحسنة أجرها وأجر من عمل بها من بعده — مع انه ليس للانسان الا ما سعى — لأن لسبقه الى فعل الخير تأثيرا فى اقتداء الآخرين به ويتحقق له مثل اجرهم اذا قصد ان يكون لهم قدوة ، وعند ذلك يكون اقتداؤهم به من آثار كسبه ، او ان كسبه قد ساهم فيه ، وبذلك يكون للعاملين أجورهم الخاصة ، ويكون لمن سن السنة اجر السبق الى فعل الخير ، الذى جعل منه قدوة حسنة لهم فيه .

وفى مقابل السنة الحسنة يكون على صاحب السنة السيئة وزر سيئته ومثل وزر من عمل بها من بعده مقتديا به أو متأثرا به ، وذلك لانه قد جعل من نفسه السيئة قدوة سيئة لهم ، بسبب مجاهرته فى فعل السيئة وتهوينها عليهم ، فكان لبدئه نوع تأثير فيما اقترفوه من اثم ، نحمل بذلك وزرا مثل اوزارهم ، دون أن يخفف من أوزارهم شيئا لانهم مسئولون عن السيئات التى اكتسبوها بارادتهم الحرة ، ولكن مسؤولية القدوة السيئة كانت اكبر ، ومن اجل ذلك استحق أن يحمل الوزر على مقدار مسؤوليته ، والآثار التى ترتبت على سبقه الى فعل السيئة .

(د) ما يستفاد من الحديث :

١ ـ مشروعية طلب المستحق الصدقة لنفسه اذا حملنا كلمة (عراة) على معنى طالبى المعروف .

٢ ـ مشروعية جباية الصدقة لمستحقيها فى المساجد اخذا من عمل الرسول صلوات الله عليه ، ويمكن ان يقاس عليها ما يشبهها من أمور الخير .

٣ ـ الهدى النبوى فى الخطبة للحث على الصدقة ، وفى الأسلوب الذى اتبعه الرسول ، وفى جعل ذلك عقب الصلاة وانتهاء العبادات المحدد لهـا أوقات خاصـة .

٤ ـ ان للانسان أجر عمله وآثار عمله من خير أو شر ، وان من آثار عمل الانسان عمل من اقتدى به اذا عمل هو العمل ليكون فيه قدوة حسنة أو سيئة ، او تهاون فى المجاهرة بفعل السيئة فسهل على الآخرين ارتكابها ، وممارستها .

٥ ـ التشجيع على بذل الصدقة مهما قلت اخذا من قوله صلى الله عليه وسلم : (ولو بشق تمرة) .

الحديث الثاني

عَنْ أَبِي سَعيدِ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَخَطَبَ النَّاسَ فقَالَ :

(لَا وَاللهِ مَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ إلاَّ مَا يُخْرِجُ اللهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا) .

فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللهِ أَيَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِ ؟ فَصَمَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ : (كَيْفَ قُلْتَ ؟) قَالَ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَيَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِ ؟ ! فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ :

« إِنَّ الْخَيْرَ لَا يَأْتِي إلاَّ بِخَيْرٍ أَوَ خَيْرٌ هُوَ ؟ إِنَّ كُلَّ مَا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِمُّ إلاَّ آكِلَةَ الْخَضِرِ ، أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَلأَتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتِ الشَّمْسَ ، ثَلَطَتْ أَوْ بَالَتْ ثُمَّ اجْتَرَّتْ فَعَادَتْ فَأَكَلَتْ ، فَمَنْ يَأْخُذْ مَالاً بِحَقِّهِ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ ، وَمَنْ يَأْخُذْ مَالاً بِغَيْرِ حَقِّهِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ » .

رواه مسلم في باب التحذير من الاغترار بزينة الدنيا وما يبسط منها

(ا) ترجمة راوى الحديث :

١ ـ هو ابو سعيد سعد بن مالك بن سنان الخزرجى الأنصارى الخدرى نسبة الى خدرة ، وبنو خدرة بطن من الأنصار .

٢ ـ كان من علماء الصحابة ، وممن شهد بيعة الشجرة . روى كثيرا من الأحاديث ، وروى عنه جماعة من الصحابة .

٣ ـ ولد قبل الهجرة بـ (١٢) سنة وعاش (٨٦) سنة وتوفى فى اول سنة (٧٤) هـ .

(ب) اللغـــة :

١ ـ الخير ضد الشر وجمعه خيور .

٢ ـ حبطا : الحبط ان تأكل الماشـــية فتكثر حتى تنتفخ لذلك بطونهـا ولا يخرج عنها ما فيها . هكذا قال الجوهرى .

فالحبط انتفاخ البطن من التخمة . وفعله حبط بكسر الباء يحبط حبطا فهو حبط .

٣ ـ يلم : اى يقارب ، يقال الم ان يفعل كذا ، اى قارب ان يفعله . فمعنى يقتل حبطا او يلم : يقتل من التخمة او يقارب ان يقتل .

٤ ـ الخضر : ذكر الأزهرى أن الربيع ينبت احرار العشب التى تستطيبها الماشية فتكثر منها حتى تنتفخ بطونها وتهلك ، وينبت ايضا الخضر وهو ليس من احرار البقول التى تكثر منها الماشية ، قال : واكثر ما رأيت العرب يجعلون الخضر ما كان اخضر من الحلى الذى لم يصفر ، والماشية ترتع منه شيئا فشـــيئا ولا تستكثر منه فلا تحبط بطونهـا عنه . (الحلى : اسم نوع خاص من النبات كما ذكر الأزهرى ايضا) .

٥ ـ ثلطت : اى سلحت سلحا رقيقا ، قال ابن الأثير : واكثر ما يقـال للابل والبقر والفيلة .

٦ ـ اجترت : اى جعلت تمضـــغ ما تخرجه من بطنهـا ، وكل ذى كرش يجتر ، قال الجوهرى : الجرة بالكسر ما يخرجه البعير للاجترار . وقال ابن سيدة : الجرة ما يفيض به البعير من كرشه فيأكله ثانية .

(جـ) الشرح :

وعد وتخوف :

من القرية الصغيرة التى رماها القدر فى باطن الصحراء بعيدا عن منابع

الثروة والحضارة وثمرات الأرض وخيراتهـا ، يطل الرسـول العظيم على المستقبل فيشاهد مفاتيح الأرض تنتشر على امتـه من بعـده . فتتفجر لهم خيرات الحياة الدنيا ، وتفيض بين أيديهم مالا وثمرا وعزا ، فيتخوف عليهم ان تفتنهم بزينتها ، ويطغيهم منها مال وسلطان ، فيتنافسوا فيها كما تنافس فيها من كان قبلهم من الأمم ، فيجمعوها تفاخرا وتكاثرا ، وينفقوها ترفا واسرافا ، ويكسبوها بالظلم والحرام ويمنعوها عن ذوى الحقوق فيهـا ويقتتلوا من أجلها اقتتالا طويلا عريضا

من اجل كل هذه المخاوف يقف صلوات الله عليه فى اصحابه خطيبـا فيعلن عليهم بأقوى صيغة كلام مؤكد مبلغ تخوفه على امته مما سيخرجه الله لهم من زهرة الحياة الدنيـا ، من سلطان وجاه ومال ولذات ، طاويا ضمن هـذا التخوف الوعد الحق بمستقبل فيه سلطان باذخ ومال كثير ، فيقول : (لا والله ما اخشى عليكم ايهـا النـاس الا ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا) .

نفى واقسم ثم قصر بالنفى والاستثناء ، انهـا لمؤكدات كثيرة تظهر مبلغ تخوف الرسول واهتمامه .

انه صلوات الله عليه لا يخشى على امته من بعده أن يكفروا بعد ايمان ، لأن الايمان الحق متى خالطت بشاشته القلوب استمكن منها ولم يغـادر ، ولا يخاف عليهم من الفقر فانهم لا شك قادمون على فتح ابواب ممـالك الأرض ، وقابضون على نواصى شعوبها . ولكنه صلوات الله عليـه يخشى عليهم ما يخرج الله لهم من زهرة الدنيا . انه يسمى كل ما فى الحياة الدنيا من مال ومتاع وجاه وسلطان ولذة زهرة . فكما ان الزهرة تفتن بجمـال منظرها ولطف رائحتها ولكنها سريعة الذبول والفناء ، كذلك مباهج الحياة الدنيا واموالها ومتاعها ولذاتها ، ومن اجل ذلك استحقت ان يستعار لهـا لفظ الزهرة .

وقد اقتبس الرسول هذه الاستعارة من القرآن الكريم حيث يقول تعالى : **(ولا تمـدن عينيـك الى ما متعنا به ازواجا منهم زهرة الحيـاة الدنيـا ..) الآية (١)** .

سؤال الصحابى :

فقال رجل : يا رسول الله ايأتى الخير بالشر ؟

استفهام يطلب فيه هذا الرجل من اصحاب الرسـول حل اشكال قام فى نفسه . تفصيله أن الرسول صلوات الله عليه يتخوف على امته مما

(١) سورة طـه : الاية ١٣١ .

سيخرجه الله لهم من زهرة الدنيا ، ولا يكون تخوفه البالغ الا من أمر فيه شر ، او يمكن ان ينجم عنه شر .

هذا : مع انهم يسمون مختلف ما فى الأرض من مال ومتاع وثمر خيرا ، وقد شاعت هذه التسمية شيوعا جعلها بمثابة الوضع اللغوى لها . حتى استعمل الخير فى القرآن بهذا المعنى اكثر من مرة ، ثم ان الانسان بما فطر عليه من حاجة عيش ، وضرورة حياة . ورغبة تكاثر ، يحب هذا الخير حبا شديدا ، وفيه يقول تعالى :

(ان الانسان لربه لكنود . وانه على ذلك لشهيد . وانه لحب الخير لشديد) (١) أى : لحب المال .

فاذا كان خيرا فهل يمكن للخير ان يكون وسيلة للشر او ان ينجم عنه شر ، حتى يتخوف الرسول على امته منه كل هذا التخوف ؟ حقا انه لاشكال دقيق ، يتطلب حلا فلسفيا محكما ضمن اصول الاسلام ونظرته العامة الى الخير والشر .

سمع الرسول صلى الله عليه وسلم سؤال الرجل من اصحابه . فصمت صمت المتأمل فى فحواه . المتبصر بنقطة الاشكال الفلسفية التى قامت فى نفسه ، وانتظر فترة قبل اجابته ، ليهيىء اذهان الصحابة جميعا لما سيقدم لهم من حقيقة شاملة فى فلسفة الخير والشر ، طبق اصول الاسلام التى يتلقاها من الوحى .

وبعد فترة من الصمت استعاد الرسول صلى الله عليه وسلم من السائل كيفية سؤاله ليربط له الاجابة بالسؤال ربطا مباشرا ، وليسمع جميع اصحاب الرسول الحاضرين صيغة سؤال الرجل ، قبل ان يشرع فى بيان جوابه ، وحل اشكاله ، وهذا من اساليب التعليم والتربية العالية.

قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (كيف قلت ؟)

قال الرجل : قلت : يا رسول الله أيأتى الخير بالشر ؟ !

فلسفة الخير والشر فى الاسلام :

فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : **(ان الخير لا يأتى الا بخير)** واخذ يكررها ثلاث مرات كما جاء فى رواية أخرى ، ثم قال على طريقة الاستفهام الانكارى : (أو خير هو ؟)

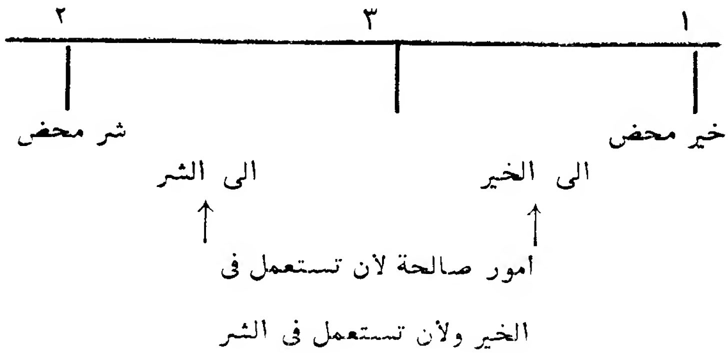
وتتضمن هذه الاجابة نظرة الاسلام الشاملة الى الخير والشر ،

---

(١) سورة العاديات : الآية ٦ ـ ٨ .

وتتلخص هذه النظرة بأن القسمة الحقيقية فى فلسفة الخير والشر ثلاثية لا ثنائية ، كما يسبق الى الوهم .

فهناك خير محض ، وهناك شر محض ، وهناك أمور لا توصف لذاتها بأنها خير أو بأنها شر ، انما هى وسائل صالحة لأن تستعمل فى الخير ، ولأن تستعمل فى الشر .



أما ما هو خير محض : فلا يمكن أن يأتى الا بخير ، ولا يمكن أن ينجم عنه الا خير ، ونستطيع أن نمثل لذلك بمعرفة الله وعظيم صفاته ، فان هذه المعرفة لذاتها خير محض لا يمكن أن ينجم عنه الا خير .

وأما ما هو شر محض : فلا يمكن أن يأتى الا بشر ، ولا يمكن أن ينجم عنه الا شر ، ونستطيع أن نمثل له بالظلم وجحود الحق ، فكل منهما شر لا يمكن أن ينجم عنه الا شر .

وأما الأمور التى لا توصف لذاتها بخير أو شر وهى صالحة بحسب الاستعمال لكل منهما : فجميع ما خلق الله فى الوجود من وسائل سلط يد عباده عليها ليبتليهم فيها ، هل يستعملونها فى الخير ام يستعملونها فى الشر ؟ وفى هذا التقسيم النبوى قمة الفلسفة الحقة .

وبناء عليها فان الرسول صلى الله عليه وسلم ينفى أن يكون المال وسائر ما يخرج الله للناس من زهرة الحياة الدنيا من قسم الخير المحض ، كما أنه ليس من قسم الشر المحض ، وانما يصنفه مع أفراد القسم الثالث ، قسم الوسائل الصالحة لأن تستعمل فى الخير ولأن تستعمل فى الشر .

ولما كان فى النفوس شهوات كثيرة ، وغرائز يمكن ان يطغيها المال الكثير والجاه العريض ، والسلطان الشامخ ، فيؤدى بها الى الشر وذلك بسبب

ما تجلبه من معصية الله تعالى ، ومخالفة أمره ونهيه ، والغفلة عن مراقبته، كان حقا ان يتخوف الرسول صلى الله عليه وسلم على أمته من زهرة الحياة الدنيا كل ذلك التخوف .

مثلان لاستعمال المال وسيلة خير واستعماله وسيلة شر :

وبعد أن قرر الرسول هذه الحقيقة فى حكمة الاسلام الرائعة ضرب للقسم الثالث الذى هو محل شبهة السائل مثلا واضحا قريبا من بيئة العرب فقال : (ان كل ما ينبت الربيع يقتل حبطا أو يلم) .

ونوضح هذا المثل النبوى ، ونبسطه فيما يلى :

ما تقولون فيما ينبته الربيع من عشب مختلف الانواع ؟ الستم تسمونه فى مقاييسكم خيرا ؟ . انظروا اليه ، كم من ماشية استطابت طائفة منه ، فاستكثرت حتى انتفخت بطونها ، واعتقلت أمعاؤها ، فهلكت به ، أو اشرفت على الهلاك .

فكيف نجم عما ينبت الربيع الذى تسمونه خيرا الهلاك او ما يقاربه ؟ ولو انه خير محض لم يأت الا بخير .

اذن : ليس هو من قسم الخير المحض ، وانما هو من قسم الوسائل التى اذا أسىء استعمالها أضرت وجلبت شرا ، واذا أحسن استعمالها نفعت وجلبت خيرا .

ومثل زهرة الحياة الدنيا للناس كمثل الربيع للماشية ، فاذا استحلى الانسان زهرة الحياة الدنيا فغفل عن واجبه فيها فجمعها بغير ما أحل الله واذن ، أو امسكها عن ذوى الحقوق ، ولم يؤد ما فرض الله فيها ، أو انفقها فى غير ما اذن الله ، كانت سببا فى هلاكه وشقائه ، ونجم عنها شر كبير له . وما ذلك لأنها بذاتها شر ، وانما الشر هو استعمال الانسان لها فى سبل الشر التى حرمها الله .

اذا تأملنا فى حال هذا الانسان افلسنا نرى مثله كمثل الماشية التى استكثرت من احرار البقول لما استطابتها واستحلتها ، فانتفخت بطونها فماتت حبطا أو كادت . وفى صورة هذا المثل نشهد أشباح الطمع والشره والرغبة بالاستكثار فى الجمع والمنع . وكذلك الذين يجمعون الأموال بغير حق ، ويمسكونها عن المستحق .

أما من يأخذ من الدنيا باعتدال وطيب نفس كما اذن الله ، ثم يشكر الله على نعمه وينتفع مما اخذ منها بمقدار حاجته دونما شره ولا طمع ولا

اسراف ولا اثم . ثم ينفق منه على ذوى الحقوق ، ويؤدى ما فرض الله فيه ، فان المال يكون معونة له على الخير ، ونعم المعونة هو .

وان مثل هذا الانسان كمثل الماشية آكلة الخضر ، التى لا يستولى عليها الشره والطمع فلا تستكثر فوق طاقتها ، وانما تأخذ من خضر العشب ملء خاصرتيها فاذا أحست الامتلاء قنعت ووقفت عن الرتع ، واستقبلت الشمس تستدفىء بها هنيئة راضية ، وأخذت تفرغ مما جمعت فى بطنها بعد أن هضمته هضما رقيقا ، ثم أخذت تخرج من كرشها ما لم يتم هضمه فتجتره لتحسن هضمه ، حتى اذا فرغت بطونها وأحست الحاجة عادت فأكلت من خضر ما ينبت الربيع . وفى صورة هذا المثل الثانى نلمح طيوف القناعة والرفق فى السعى ، وحسن التصرف فى الجمع ، مع حسن التصرف فى الانفاق .

استخلاص الغرض من التمثيل :

واخيرا رتب الرسول صلى الله عليه وسلم على كل من المثلين النتيجة المقصودة فى الارشاد والتربية ، فقال :

(فمن يأخذ مالا بحقه يبارك له فيه ، ومن يأخذ مالا بغير حقه فمثله كمثل الذى يأكل ولا يشبع) وفى رواية (ويكون شهيدا عليه يوم القيامة) .
وحق المال أن يجلبه الانسان مما أذن الله وكما أذن ، وأن ينفقه فيما أحل الله وعلى ما أحل ، وأن يؤدى منه واجب النفقة ، وحق الصدقة ، فاذا فعل ذلك كان المال له معونة وبركة ، ووسيلة خير .

أما ان أخذ المال بغير حقه فمثله كمثل المريض المصاب بداء البطنة الذى يأكل ولا يشبع ، فانه لا محالة هالك ، ويكون ماله الذى جمعه شهيدا عليه يوم القيامة ، فيعاقب على جمعه ، وعلى منعه ، وعلى معصية الله فيه ، وبذلك يكون له وسيلة شر .

وارادة الانسان الحرة المبتلاة فى هذه الحياة الدنيا بالخير والشر هى المسؤولة عن كل ذلك .

(د) ـ ما يستفاد من الحديث :

١ ـ التحذير من زيادة الطمع فى الأموال وسائر متع الحياة الدنيا ، لما فيها من الفتنة المؤدية الى هلاك الفرد وفساد الأمة .

٢ ـ جواز سؤال الخطيب وهو فى خطبته عن بعض المشكلات المتعلقة فى موضوع الخطبة ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث أقر السائل ولم ينكر عليه ، واهتم باجابته .

٣ ـ سعة صدر الرسول صلوات الله عليه واناته وحكمته فى الاجابة ، وفى ذلك تعليم لنا وارشاد ، حتى نعرف كيف نسلك سبيل الدعوة الى الله .

٤ ـ من الأدب النبوى استعادة سؤال السائل متى طال الفصل بين السؤال والجواب ، لتكون الاجابة مقارنة للسؤال ، وبخاصة اذا كان السائل واحدا من جماعة ، وذلك ليستوعب الجميع صورة السؤال ويتنبهوا الى الجواب ، وهذا من اصول التربية رلتى وصل اليها المربون حديثا .

٥ ـ من الأدب النبوى ضرب الأمثال المحسوسة لتقريب الحقائق الى المبلغين ، وهذا أيضا من أصول التربية الحديثة وقواعدها .

٦ ـ بيان الفلسفة الاسلامية المبتنية على أن القسمة ثلاثية :

(أ) خير .

(ب) وشر .

(جـ) ووسائل تصلح لأن تستعمل فى الخير او فى الشر .

الحديث الثالث

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (تَضَمَّنَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ ، « لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَإِيمَاناً بِي وَتَصْدِيقاً بِرُسُلِي ، فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، أَوْ أُرْجِعَهُ إِلَىٰ مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلاً مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ ، » وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَامِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ كُلِمَ ، لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ وَرِيحُهُ مِسْكٌ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ أَبَداً ، وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً ، وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ فَأُقْتَلَ ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلَ ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلَ) .

رواه مسلم

(أ) ترجمة راوى الحديث :

١ ــ كنيته التى اشتهر بها : ابو هريرة .

٢ ــ اسمه مختلف فيــه على وجوه كثيرة ، واصح ما قيــل فيه ، عبد الرحمن أو عبد الله بن صخر الدوسى اليمانى .

٣ ــ صحابى جليل ، من اكثر الصحابة ملازمة للرسول صلى الله عليه وسلم ، فقــد كانت يده مع يده يدور معه حيث دار ، وقد كان يلازم صحبته على شبع بطنه ، وكان جريئا أن يسأل الرسول عن أشياء لا يسأله عنها غيره ، ودعا له الرسول بأن يحببه الى المؤمنين .

٤ ــ أجمع أهل الحديث على أنه أكثر الصحابة حديثا عن رسول الله صــلى الله عليــه وسلم ، وأحفظهم ، روى عنه ما يزيد على (٥٣٠٠) حديث .

٥ ــ أرسل مروان بن الحكم اليه ، وطلب منه أن يحدثه بحــديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل يحدثه ، وكان قد أجلس كاتبه خلف السرير ليكتب ما يحدث به ، حتى اذا كان فى رأس الحول ، أرسل اليه فسأله ، وأمر كاتبه أن ينظر فيما كتب عنه سابقا ، فما غير حرفا عن حرف .

٦ ــ كان اسلامه بين الحديبية وخيبر ، قدم المدينة مهاجرا وسكن الصــفة ، (وهى : ناحية مظللة من المسجد النبوى كان يأوى اليهــا فقــراء المهاجرين ومساكينهم ومن لا منزل له يسكنه ، والصفة هى الظلة) .

٧ ــ استعمله عمر على البحرين .

٨ ــ توفى سنة (٥٧) للهجرة وكان عمره (٧٨) سنة ، رضى الله عنه .

(ب) اللغة :

١ ــ تضمن الله : اى تكفل الله ، يقال : فلان ضامن وضمين : ككافل وكفيل . وضمن الشىء وضمن به ضمانا اى : كفل به .

٢ ــ لمن خرج فى سبيله : اى لمن خرج مجاهدا مقاتلا فى سبيل الله ، وسبيل الله فى القتــال : هى الطريق التى يتبع فيهــا أوامر الله ونواهيه . والتى تؤدى الى اعلاء كلمة الله فى الأرض ، والتى توصل السالك فيها الى رضوان الله وثوابه الجزيل .

والجهاد : هو بذل غاية الجهد ، والمبالغة فى استفراغ ما فى الوسع والطاقة فى مقاومة العدو أو اية قوة أخرى معارضة ، وهو مصدر جاهد يجاهد مجاهدة وجهادا . وصيغة فاعل تدل على المشاركة ، تقول جاهدت العدو اذا قاتلته .

٣ ـ لا يخرجه الا جهادا فى سبيلى ، وايمانا بى ، وتصديقا برسلى : اى لا يخرجه داعى الخروج الى القتال الا لأجل الجهاد فى سبيلى ، والايمان بى ، والتصديق برسلى .

وهذا الكلام من قوله : (لا يخرجه) الى قوله (أو غنيمة) حديث قدسى منسوب الى الله ، وهو على تقدير كلام قبله يفصل ما بين كلام الرسول وكلام الله ، وقد حذف ايجازا فى القول ، وتقديره : من خرج مقاتلا لا يخرجه داعى الخروج الا جهادا فى سبيلى ، أو نحو ذلك ، وقد فهم هذا من قوله صلى الله عليه وسلم : تضمن الله لمن خرج فى سبيله ، اى قال فى ضمانه : من خرج مقاتلا لا يخرجه الى آخر ما أورده الرسول من قول الله فى الحديث القدسى .

٤ ـ فهو على ضامن ان ادخله الجنة ..

اى فهو ذو ضمان على الله أن يدخله الجنة .. الى آخره ..
قال فى لسان العرب : قال الأزهرى : وهذا مذهب الخليل وسيبويه .
لقوله تعالى : **(ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله) (١)** انتهى .

اى ما فى الآية يشبه ما فى الحديث من كون المجاهد صاحب ضمان على الله ، فهو كالمهاجر الذى وقع أجره على الله .

أو ضامن بمعنى مضمون ، وقد اورد اسم الفاعل بمعنى اسم المفعول ، اى فهو مضمون ، وضمانه على الله .

أو فهو ضامن لنفسه بشىء محقق حسب وعد الله ، وما ضمنه لنفسه فعلى الله تحقيقه، وقد جاء ايراد الكلام على مثل هذا الأسلوب لأن الوعد الحق بهذا الجزاء العظيم قد كان من قبل الله تعالى ، فان احتاجت القضية الى ضامن فانه لا يوجد ضامن من دون الله للمؤمن الا نفس المؤمن بالله الواثق بوعده ، ولكنه اذا ضمن لنفسه ذلك فهو غير قادر بذاته على الوفاء ، لذلك فلا بد أن يكون ضامنا على الله لنفسه أن يحقق الله له ذلك الجزاء الموعود به ، فهو نوع من التفويض الالهى للمؤمن بأن يضمن لنفسه

(١) النساء الآية ١٠٠

عن الله بهذا الأجر ، وهذا المعنى دقيق جدا ولكنه فى رأيى سديد يعطى التعبير ما يستحقه من دقة . وسمو وروعة .

والضمان على الله شبيه بأن تقول : أقرضنى مائة درهم على فلان اذا كان من تعنيه قد فوضك بأن تقترض على ذمته .

٥ ــ ما من كلم يكلم :

أى ما من جرح يجرح . والكلم بفتح الكاف وسكون اللام الجراحة فى الجسم .

٦ ــ يشق على المسلمين :

بضم الشين . أى يثقل عليهم وتصيبهم منه شدة ، تقول : شق على الأمر يشق شقا ومشقة . اذا ثقل عليك وأصابتك منه شدة .

٧ ــ ما قعدت خلاف سرية :

أى ما قعدت بعد سرية دون أن أخرج غازيا معها .

والسرية : جماعة مختارة منتقاة من الجيش لا يتجاوز أقصاها اربعمائة مقاتل ، وجمعها السرايا . سميت بذلك لأنها تسرى ليلا فى خفية لئلا يعلم بها العدو ، أو لأن أفرادها يكونون فى العادة خيارا من العسكر ينتقون انتقاء ، اخذا من السرى وهو الشريف النفيس .

والسرية فى اصطلاح علماء السيرة النبوية هى الغزاة التى لا يكون فيها الرسول صلى الله عليه وسلم ، أما التى يكون فيها فتسمى غزوة .

٨ ــ لا أجد سعة فأحملهم :

اى لا أجد لهم عدة كافية للقتال من سلاح أو خيل ، فأتمكن من حملهم كلهم على الخروج الى قتال العدو .

(ج) الشرح :

ان ذروة السنام فى الاسلام انما هو الجهاد فى سبيل الله ، فيه يكون نشر الدين ، ورد المعتدين . وعزة الموحدين ، وارهاب عدو الله وعدو المسلمين ، وآخرين من دونهم من المفسدين .

وما ترك قوم الجهاد فى سبيل الله الا ذلوا ، وما تركوا الاعداد له الا هانوا وضعفوا ، وما اخلدوا الى الأرض ورغبوا فى الحياة الدنيا عن الآخرة الا ضيعوا دنياهم ، وخسروا أنفسهم ، ومكنوا عدوهم منهم ، وما أخلوا

بشروطه الا غلبــوا وان كثروا ، وما اغتروا بانفسهم واعتمدوا على قوتهم وطمعوا بمتاع الحياة الدنيا الا خذلوا .

والجهاد هو بذل غاية الجهد في مقاومة قوة أخرى معارضة . تقول : جاهدت العدو اذا قاتلته فبذلت كل وسعك . وبلغت غاية طاقتك ، وهذه القوة المعارضة قد تكون من داخل نفس الانسان وقد تكون خارجة عنهــا .
ولنسم جهاد القوة المعارضة الداخلة في نفس الانسان : جهاد النفس
ولنسم جهاد القوة المعارضة الخارجة عن نفسه : جهاد العدو .

ولكل من جهاد النفس وجهاد العدو اشكال ومراتب . ولا يتم جهاد العدو على الوجه المثمر ما لم يسبقه ويرافقه جهاد النفس .

جهـــاد النفس :

وجهـــاد النفس يكون بمقاومة جهلها وانحرافاتها الفكرية والاعتقادية بالعلم والمعرفة الحقة ، وبمقاومة شهواتها الجامحة وأخلاقهــا الجانحة بوسائل التربية الفضلى والسلوك الأقوم .

الأمثلة :

١ ــ كمقاومة الطمع فيها بالقنـــاعة . وتحويل اطماعها الى ما عند الله من أجر عظيم لأهل طاعته .

٢ ــ وكمقاومة الحسد فيها بالرضى عن قسمة الله ، والاعتقــاد بأن العطاء والمنع بيده ، وانه هو الذى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر، وان كلا من عطائه ومنعه لا بد أن يكون لحكمة يعلمها ؛ وقد يكون كل منهما خيرا للانسان متى رافقه طاعة الله ورضوانه .

٣ ــ وكمقاومة الشهوات الملحة بالصبر . واطماع النفس بما عند الله من أجر ، وتغذيتها بما أحل الله . والكف عما حرم .

٤ ــ وكمقاومة الجبن والشح فيهــا بوسائل الاقنــاع والترغيب التى تغذيها بأن الآجال والأرزاق محتومة . وتفتح امامهـــا ابواب الأمل والرجاء بما أعد الله لباذلى أرواحهم وأموالهم في سبيله من أجر عظيم وثواب جزيل . وباستثارة كوامن الايمان في القلب حتى تندفع النفس الى مرضاة الله مشحونة العاطفة بقوة الايمان ، ومهدية السبيل بنور الاسلام . وهكذا

وقد كان الصـــدر الأول من المسلمين يسمون جهاد النفس الجهاد الأكبر ، فاذا قفلوا من غزوة قالوا : رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر .

جهاد العدو :

أما جهاد العدو فله وسائل شتى ، تبدأ بوسائل الدعوة المختلفة التى تتدرج من الأخف الى الخفيف ، فالى الشديد فالأشد ، حتى تنتهى بالقتال لتكون كلمة الله هى العليا .

ووسائل الدعوة هى كل ما يمكن ان يوصل فكرة الحق وتطبيقاته الى عقول المعارضين ونفوسهم واعمالهم ، فمنها ما يلى :

١ ـ الدعوة الحكيمة وتكون :

(أ) باللسان : ويقتدى المجاهد فى ذلك بجهاد الدعوة الذى قام به الرسول صلوات الله عليه ، والنخبة المتازة من صحابته ، وتابعيهم باحسان .

وتتضمن الدعوة الحكيمة باللسان الاقناع بالحديث الخاص ، والاقناع بالخطابة العامة ، والمجادلة بالتى هى احسن ، وهذا ما يشير اليه قوله تعالى :

(ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) (١) .

ويمكن أن يكون المراد من الحكمة وسائل الاقناع بالعلم والحجج المنطقية البرهانية ، وأن يكون المراد من الموعظة الحسنة وسائل التأثير الخطابى بالترغيب والترهيب .

(ب) بالكتابة نثرا وشعرا : ويكون ذلك بالمؤلفات والمقالات وسائر وسائل النشر المكتوبة ، التى تدخل الى النفوس من طريق الاقناع الفكرى ، والتأثير الوجدانى .

٢ ـ **بالأسوة الحسنة** : وتكون بأن يجعل الانسان من نفسه قدوة حسنة محببة يقتدى بها الآخرون ، اعتقادا وقولا وعملا وخلقا .

٣ ـ **بالتربية والتعليم** : ويكون البدء بهذه الوسيلة منذ المراحل الأولى الطفولة ، لأنها حينئذ تكون أنفذ الى اعماق النفس ، واكثر تأثيرا ، وأبقى مع الزمن .

٤ ـ **ببذل عرض الحياة الدنيا** لتأليف القلوب على الخير والهدى : ويكون ذلك ببذل المال والجاه وانواع المعونات والصلات المادية والمعنوية والمساعدات والعطاءات ، وما أكثر ما كان الرسول صلوات الله عليه يبذل

---

(١) النحل الآية ١٢٥

من ذلك لتأليف القلوب اضافة الى كون حب العطاء خلقاً أصيلا فيه ، قال تعالى : **(وجاهدوا باموالكم وانفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون)** (١) .

٥ — **بقوة السلطان** : ويكون ذلك بتسخير قوة السلطان المعنوية ثم المادية لهداية الناس الى الخير ، والزامهم به ، وله وجوه تطبيقية كثيرة جدا .

٦ — **باعداد القوة التى ترىو على قوة العدو** من مال وسلاح ورجال وخبرات . وغير ذلك ، قال تعالى : **(واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)** (٢) .

٧ — **بالقتال لاعلاء كلمة الله** : وتكون هذه الوسيلة فى آخر الأمر اذا لم تجد كل الوسائل الأخرى من دونه ، واصبح المسلمون تحت الخطر بالنسبة الى عدوهم .

وحيث الجأت الضرورة الى سلوك سبيل القتال فان القتال يستدعى الجود بالنفس ، والجود بالنفس أقصى غاية الجود .

ومن أجل ذلك كان له حظ الشهادة فى سبيل الله . وكان للمقاتل فى سبيل الله من الضمان الالهى أن يدخله الله الجنة ، وأن ينال ما لا يوصف من أجر عنده .

ولكن له ركنا أساسيا لا بد منه . وهو أن يكون جهاده فى سبيل الله ، ويعنى هذا الركن العام فى دلالته ، ما يشمل تحديد الباعث له على الخروج الى القتال ، والمطلب الذى يسعى الى تحقيقه فى الدنيا ، والغاية القصوى التى يرجوها عند الله .

وذلك لأن الضمان الذى ضمنه الله للمقاتل انما هو لمن خرج فى سبيله لا يخرجه اى دافع دنيوى ، وانما يخرجه ما يلى :

(أ) **باعث أسمى فى نفسه يحركه الى الخروج** ، ألا وهو باعث الايمان بالله والتصديق برسله وهو ما أشار اليه الحديث فى الفقرات القدسية منه ، وذلك فى قوله : **(ايمانا بى وتصديقا برسلى)** .

---

(١) التوبة الآية ٤١

(٢) الأنفال الآية ٦٠

(ب) **ومطلب يسعى الى تحقيقه فى الدنيا** اذ يقذف بنفســه الى معترك الموت باذن الله وطاعته فيقتل او يقتل : الا وهو نشر دين الله واعلاء كلمتــه ، ويدل عليه من الحديث قوله : **(الا جهادا فى سبيلى)** اى فى سبيل نشر دينى واعلاء كلمتى ،كما جاء التصريح فى حديث ابى موسى رضى الله عنــه ان النبى صلى الله عليه وسلم سئل فقيل له : يا رسول الله ، الرجل يقــاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقــاتل ليرى مكانه ، والرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل غضبا ، فمن فى سبيل الله ؟ فقال رســول الله صلى الله عليه وسلم : **(من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله)** .

(جـ) **وغاية قصوى يرجوها عنــــد الله ،** الا وهى نيل رضوانه ، وبلوغ جنته وما اعد من عظيم اجر للمجاهدين المقاتلين فى سبيله ، ويدل عليهــا من الحديث ايضا قوله : **(الا جهادا فى سبيلى)** اى فى سبيل بلوغ رضوانى ، وما اعددت من اجر لباذلى ارواحهم فى طاعتى .

الشروط التى يجب توافرها اثنــاء القتــال :

وهناك شروط لا بد من توافرها اثنــاء القتــال فى سبيل الله ، فبعــد تحديد الغاية من القتال ، واعداد العدة له ، والتصميم على مباشرته ، ابتغاء نشر الدين ، ودفعا لعدوان المعتــدين ، يجب على المقاتلين فى سبيل الله ان يتقيدوا بالمنهج التطبيقى الذى شرعه الله فى القتال ، ويلتزموا جميــع الشروط التى امر الله بهــا فيه ، وينتهوا عما نهى الله عنه ونستطيع ان نجمل الشروط التى يجب توافرها فيما يلى اقتباسا من الآيات القرآنية فى القتــال :

الشــرط	الدّليـــل
١ ـ وحــدة الغــاية :	١) ـــ الآية : (إِنْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) . **التوبة (٤١)** والآية : (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ

الشـــرط	الدليـــــل
	فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) . الأنفال (٣٩) والحديث (لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَإِيمَاناً بِي وَتَصْدِيقاً بِرُسُلِي) .
٢ ـ وحدة صف المقاتلين وتماسك جماعتهم	٢) ـ الآية : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ) . الصف (٤)
٣ ـ الاعتماد على الله في تحقيق النصر . وعدم الاغترار بالنفس	٣) ـ الآية : (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) . الأنفال (١٠) والآية : (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ) . التوبة (٢٥)
٤ ـ شـــدة البأس في القتـــال .	٤) ـ الآية : (فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) . الأنفال (٥٧)

الشـرط	الدليـل
٥ ـ الثبات والمصابرة ٦ ـ عـدم تولية الأدبار ٧ ـ الإكثار من ذكر الله	٥) و ٦) و ٧) ـ الآية : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) . الأنفال (٤٥) والآية : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) . الأنفال (١٦)
٨ ـ الطـاعة ٩ ـ عـدم التنازع في الأمـر .	٨) و ٩) ـ الآية : (وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) . الأنفال (٤٦) والآية : (وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ

الدليــل	الشــرط
مَا تُحِبُّونَ مِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنيا وَمِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) . آل عمران (١٥٢)	

الروح المعنوية العاليــة فى جيش المســلمين :

ومتى تلمس المقاتلون فى أنفسهم هــذا الباعث على القتـــال ، وحددوا لانفسهم سبيل العمل اذ يباشرون جهادهم لاعــلاء كلمــة الله ، واستحضروا فى قلوبهم أنهم يبتغون من جهـادهم نيل رضوان الله وثوابه ، وقاموا بشروط القتــال كما أمرهم الله . كانوا كتلة من القــوة والبـــأس رهيبــة ، لأن من استجمع كل ذلك نزع الجبن من قلبــه . فلم يخش الموت . فاقبل على القتال شديد البأس . ثابت القدم . مشوقا الى بلوغ احدى الحسنيين :

١ ــ النصر واعــلاء كلمة الله .

٢ ــ الشهادة عنده وبلوغ رضوانه .

كما أنه يجد معونة الله مصاحبــة له مهما كر أو فر ، ويعلم أن وعد الله بالنصر للصادقين معـــه المخلصين له لا بد محقق ، لأنه فيما يقوم به انمـا يقاتل عــدو الله وعدو المسلمين وهو يعتقـــد أنه يقـاتل باذن الله وأمــره ، مؤيدا بعون الله وقهره ، موعودا بأجر الله ونصره .

ولذلك ترتفع قوة المقاتلين فى سبيل الله بحسب ما فى قلوبهم من ايمـان وصبر وصدق مع الله حتى يكون الواحــد منهم مكافئا للعشرة من العدو فى الحد الأعلى ولاثنين من العدو فى الحد الأدنى ؛ ويدل على ذلك قوله تعــالى :
« يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال ان يكن منــكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منــكم مائة يغلبوا ألفـــا من الذين كفروا بأنهم قــوم لا يفقهون . الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة

يغلبوا مائتين وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين))(١) .

هذه قوة المؤمن الصابر بخلاف الذى يقاتل حمية وعصبية . أو يقاتل من أجل الوصول الى مال أو مجد دنيوى ، أو يقاتل فى سبيل حزب أو زعيم ، أو غير ذلك من أمور الدنيا . فانه ان يخرج الى القتال فما أسرع ما يدب الذعر الى قلبه . ويصيبه الخوف والهلع ، اذ يقول لنفسه ما قيمة المال اذا فقدت حياتى . ولماذا أموت ليكون غيرى زعيما أو ذا مجد ، وأى مجد أمسك به اذا أصبحت فى الغابرين .

ثم انه فى الغالب متى وجد لنفسه منفذا للفرار من المعركة أخذ سبيله اليه . الا أن يغلب على ظنه أنه بقوته منتصر ، وأن عدوه ضعيف أو جبان ، أو أن يقوم فى نفسه انه أصبح ملزما بالقتال والا قتل ، فهو يحاول أن يقاتل ليدفع عن نفسه الموت بما استطاع .

ومن أجل ذلك نلاحظ أن الجيوش تعانى أكبر ما تعانى مما يسمى عند العسكريين بفقد الروح المعنوية .

أما جيوش الاسلام الصادقة مع الله المقاتلة لاعلاء كلمته ، وابتغاء تحقيق رضوانه .واستحقاق جنته ، فانها قلما تصاب بفقد الروح المعنوية . حتى ولو لم يتحقق لها الظفر المادى على العدو ، لأن كل مقاتل فيها يعتقد أنه قد ظفر بما يقاتل من أجله وهو بلوغ رضوان الله وتحقيق الأجر عنده . وأنه يقاتل لغاية هو يرجوها ويطلبها ولم يفرض عليه القتال لمصلحة غيره .

أما النصر المادى فيعتقد أنه بيد الله يؤتيه من يشاء لحكمة يعلمها . وحكمة الله غير متهمة فى قلوب المؤمنين .

ما جاء من الضمان الالهى لمن خرج فى سبيل الله :

يقول الله سبحانه فى الحديث القدسى :

((من خرج لا يخرجه الا جهادا فى سبيلى وايمانا بى وتصديقا برسلى فهو على ضامن ان ادخله الجنة أو أرجعه الى مسكنه الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة)) .

أى من خرج الى قتال أعداء الله مستجمعا هذه الشروط فقد حق له وعد من الله صادق ، فليضمنه على الله لنفسه ، والوعد : هو أن يدخله الله الجنة اذا قتل فى سبيل الله . أو يرجعه الى مسكنه نائلا من الأجر العظيم ما لا نقدر

---

(١) الأنفال الآية ٦٥ ، ٦٦

اذا سلم ، وقد يصيب مع الأجر العظيم غنيمة من العدو يأكلها حلالا طيبا ما لم يأخذها بمعصية أو غلول .

و (أو) فى (أو غنيمة) بمعنى الواو ، ويظهر لى أنها استعملت فى هذا المقام بدل الواو لأن المعطوف عليه وهو الاجر أمر محقق ، أما الغنيمة فقد تحصل وقد لا تحصل والله اعلم .

ما جاء من الترغيب بالجهاد فى سبيل الله على لسان الرسول :

ولقد رغب الرسول صلوات الله عليه بالقتال فى سبيل الله اذ أوضح فى الحديث صورة صك الشهادة التى يحملها يوم القيامة كل مجاهد أصابه فى سبيل الله جرح ما صغيرا كان أو كبيرا ، اذ يأتى وجرحه ينزف دما ، لونه لون دم وريحه ريح مسك ، وانها لأعظم شهادة مرئية يأتى بها المجاهد فى موقف الحساب ، يشهدها أهل المحشر ويتنسمون ريحها ، ويكرمون صاحبها ، ويشهدها الملائكة فيأخذون بيد صاحبها الى مقام التكريم ، وتكون له وثيقة مباركة يجتاز بها الى ما أعد الله من أجر المجاهدين فى سبيله ، فقال الرسول مقسما :

« والذى نفس محمد بيده ما من كلم ، يكلم فى سبيل الله الا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم ، لونه لون دم وريحه مسك » .

تقديم الرسول المصلحة العامة على رغبته الخاصة :

واذا كان للقتال فى سبيل الله كل هذا الأجر العظيم ، فلماذا لا يخرج الرسول بنفسه مع كل سرية تقاتل فى سبيل الله ؟ .

سؤال طرحه الرسول على نفسه ولم يصرح به ولكنه أعطى الاجابة عليه ، بكلام يعلن شدة ولعه بأن يكون مع كل سرية تغزو فيقتل ، ثم يغزو فيقتل ، مرات ومرات ، حتى ينال ثواب الغزاة المجاهدين القاتلين فى سبيل الله ، ويكون من الشهداء عنده ، الا انه يرجح مصلحة المسلمين العامة على رغبته الخاصة ، ويعطى فى ذلك سنة للقادة من بعده ، لأنه لو خرج مع كل سرية لشق ذلك على المسلمين ، فاما أن يتحملوا ما لا يطيقون فيخرجوا معه دون ان يكون لديهم العدة الكافية لمقابلة العدو ، فيعرضوا انفسهم الهلاك ، واما ان تتقطع قلوبهم حزنا اذا تخلفوا عنه وتركوه يخرج للقتال مع السرايا ، فقال الرسول مقسما :

« والذى نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله ابدا ولكن لا أجد سعة فأحملهم ولا يجدون سعة ، ويشق عليهم ان يتخلفوا عنى . والذى نفس محمد بيده لوددت أنى اغزو فى سبيل الله فأقتل ، ثم اغزو فأقتل ، ثم اغزو فأقتل » .

(د) ما يستفاد من الحديث :

١ ــ الضمان بالجنة لمن يقتل فى سبيل الله .

٢ ــ الأجر العظيم الذى يفوق التقدير الانسانى للمجاهد فى سبيل الله .

٣ ــ ان الجرح الذى يجرح فى سبيل الله يأتى يوم القيامة مثل هيئته يوم جرح الا ان ريحه كريح المسك يعبق طيبا .

٤ ــ للقائد العام ان يتخلف عن الجيش المقاتل اذا كان تخلفه لمصلحة عامة للمسلمين اكبر من خروجه الى القتال .

٥ ــ مشروعية ارسال السرايا وجواز تخلف قسم من المسلمين عن القتال وذلك ضمن التخطيط العام الذى تقتضيه المصلحة السياسية العليا للمسلمين .

٦ ــ كون الرسول يود ان ينال منزلة الشهداء فى سبيل الله ، فيغزو فيقتل ، ثم يغزو فيقتل ، ثم يغزو فيقتل ، وهذه المحبة لا تتعارض مع ما وعده الله به من العصمة من الناس ، لان العصمة التى حفظه الله بها من الناس لمصلحة الرسالة التى يحملها ، والأمة التى يقودها ويسوسها ، اما محبته الشهادة فى سبيل الله فلينال هو أجر الشهداء ، وليبين للمسلمين انه وهو الرسول الكريم ذو المنزلة العظمى التى لا يبلغ شأوها احد ، يود لو يقتل فى سبيل الله ، ليضيف الى منزلته العظمى درجة الشهداء ، وليبين لهم انه أسبق منهم الى بذل روحه فى سبيل الله ، وانه لا يبخل بنفسه ، ولا يجبن عن قتال ، وقد كان صلوات الله عليه فى الغزوات اشجع الناس .

الحديث الرابع

عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ - : (مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضاً ، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا ، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ ، لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلأً ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْساً ، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ) .

رواه البخاري ومسلم

١ ــ ترجمة راوى الحديث :

١ ــ هو ابو موسى عبد الله بن قيس الأشعرى ، نسبة الى أشعر وهى قبيلة من قبائل العرب ، قال الجوهرى : والأشعر ابو قبيلة من اليمن ، وهو اشعر بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان .

٢ ــ صحابى جليل أسلم قبل الهجرة ، وقال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : لقد أوتى مزمارا من مزامير داود ، فقد كان صاحب صوت جميل .

٣ ــ استعمله النبى صلى الله عليه وسلم على زبيد وعدن ، واستخلفه عمر على البصرة ففقههم وعلمهم ، واستعمله ايضا على الكوفة ، كما ولى الكوفة زمن عثمان .

٤ ــ قال الشعبى : خذوا العلم عن ستة وذكر فيهم ابا موسى الأشعرى، وقال ابن المدينى قضاة الأمة اربعة : عمر ، وعلى ، وابو موسى ، وزيد بن ثابت .

٥ ــ توفى رضى الله عنه سنة (٤٢) للهجرة ، وقيل سنة (٤٤) وقيل غير ذلك ، عن عمر بلغ (٦٢) سنة .

(ب) اللغــة :

١ ــ من الهــدى والعلم :

الهدى : هو الارشاد ، والدلالة الى طريق الحق والخير والسعادة ، وهو ضد الضلالة ، والهدى يذكر ويؤنث .

ولما كان مما جاء به الرسول صلوات الله عليه بيان الصراط المستقيم المؤدى الى رضوان الله ، وسعادة الانسان فى الدنيا دار الابتلاء والآخرة دار الجزاء كان جديرا بأن يطلق عليه انه الهدى .

العلم : هو الفهم المطابق للواقع ، ويدخل فيه حقائق الأخبار التاريخية، والحقائق الغيبية ، والحقائق العقلية ، والحقائق العملية التى تكسب المتحلى بها سعادة الدارين . ومن تأمل فيما جاء به الرسول مما وصل الينا بطريق يقينى صادق تبين له انه حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

٢ – كمثـل غيث :

مثل ومثل : كلمة تسوية ، يقال : هــذا مثله ومثله ، كما يقـال : شبهه وشبهــه .

ودخول الكاف على مثل زائدة للتأكيـد ولتزيين اللفظ . فالمراد من (كمثل) كالمراد من (مثل) ونظيره ما فى قوله تعالى : **(ليس كمثله شىء)** (١). أى ، ليس مثله شىء .

غيث : الغيث المطر . وغاث الغيث الأرض اذا اصابها ويقال : غـاث الله البلاد يغيثها غيثا اذا أنزل بها الغيث .

٣ – طائفة طيبـــة :

الطائفة من الشىء جزء منه او قطعـة منـه ، يقال طائفة من الأرض ، وطائفة من الليل ، وصنفة من الناس .

أما الطائفة من الناس فتطلق على الرجل الواحد فما فوق ، وقيل : أقـل الطائفة رجلان .

قال تعالى : **(وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما)** (٢) .

طيبة : الطيب خلاف الخبيث ، ويقـال أرض طيبـة اذا كانت تصـلح للنبات ، وامراة طيبة اذا كانت حصانا عفيفة ، وبلدة طيبة آمنة كثيـرة الخير ، وتربة طيبة أى طاهرة ، وهكذا وكلها ترجع الى معـانى الجـودة والكمال ونفى الخبث .

٤ – فانبتت الكلأ والعشـــب :

الكلأ : عند العرب ما تنبته الأرض من مرعى الدواب .

العشب : هو الرطب من البقول البرية ينبت فى الربيـــع ، واحـدته عشبة ، وجمع العشب اعشاب .

٥ – وكان منهـا اجادب :

الأجادب من الأرض : قال ابن الاثير : (الأجادب صـــلاب الارض التى تمسك الماء فلا تشربه سريعا) .

قال ابن منظور فى لسان العرب : (وقد يكون جمع اجدب الذى هـو جمع جدب . مثل كلب واكلب واكالب . فهو على هذا جمع الجمع .

---

(١) الشورى الآية ١١

(٢) الحجرات الآية ٩

٦ ـ انما هي قيعان :

القيعان : جمع قاع . والمراد من القيعان فى الحديث انواع من الأرض لا تمسك المـــاء ، ولا تنبت الكلأ . وهذه تكون عادة فى أرض صلبة قاســية مستوية ، او ارض رملية غير صالحة للنبات ، او صخور قاسية ملســاء .

٧ ـ فذلك مثل من فقه فى دين الله :

فذلك : الاشـــارة الى مختلف أصناف الأرض التي وردت فى التشبيه .

فقه : بضم القاف اى صار الفقه له سجية وخلقـا لازما ، والفقه الذى هو مصدر فقه هو الفهم الدقيق العميق . اما فقه بكسر القاف فمعناها فهـــم .

٨ ـ ومثل من لم يرفع بذلك رأسا :

هذا التعبير كناية عن أنه ظل معرضا ، فلم يستجب لما جاء به الرسول صـــلوات الله عليه من هدى وعلم ، ولم يصغ اليه سمعا ، لأن من عرض عليه امر فلم يكترث به لم يرفع راســـه لاستماعه فضـــلا عن أن يهتم بالعمل بـــه .

(جـ) الشرح :

١ ـ مقدمة :

تضمن هذا الحديث من كلام الرسول صلوات الله عليـــه بيـــانا لمعظم احوال الناس واقسامهم بالنسبة الى ما بعث الله به رســـوله من الهـــدى الى الصراط المستقيم ، والعلم بأصول الدين واحكام الشريعة التى اصطفاها الله ، وختم بها رسالاته الناس . وذلك فى صورة تشبيهية بالغة الروعة ، ابرزت أصنافا ثلاثة من الناس ، واصنافا ثلاثة من الأرض ؛ هذه بالنسبة الى الغيث الذى ينزله الله من السماء الى الأرض ؛ وتلـك بالنســـبة الى العلم والهدى اللذين انزلهمـــا الله من السماء وبعث بهما نبيه محمد ليبلغهما للناس .

٢ ـ مثل ما بعث الله به نبيه كمثل الغيث

ما أشبه الهدى الاسلامى ، والعلم الربانى بالغيث تجود به السماء .

(ا) فهما أمران فيهما حياة الناس المعنوية حياة سعيدة باذخة المجد عزيزة الجانب ، والغيث فيه حياة الأرض ونضارتها ورونقها .

(ب) وهما امران منزلان على رسول الله ـ صلوات الله عليه ـ مـــن السماء ، أى من جهة السمو المعنوى ، والسمو المادى أيضـــا بالنســـبة

الى الأرض ، والغيث ينزل من السماء ، اى من جهة السمو المادى بالنسبة الى الأرض ، ومن جهة السمو المعنوى ايضا . لأنه انما ينزل بمشيئة الله ، وعلى وفق مراده .

(جـ) وهما أمران نقيان طاهران من كل باطل أو فساد ، والغيث نقى طاهر من كل رجس .

(د) وهما أمران يقدمهما الرسول الى الناس جميعا على السواء ليتعلموا ويهتدوا . والغيث اذ ينزل فى بلد فانه يشمل رقعة أرضها ، فيصيب مختلف أصنافها على السواء دون ان يفرق بين حجر صلد ، وزمال غير متماسكة ، وتربة خصيبة .

فما بعث الله به نبيه محمدا من الهدى والعلم مشبه ، والغيث مشبه به ، والأمور الأربعة التى ذكرناها هى وجوه الشبه ، ولكن هذه الوجوه لم يصرح بها فى الحديث ، لأنها مما يمكن استنباطه بالتأمل فكان حذفها أبلغ من ذكرها .

انه تشبيه بين منزلين من السماء ، احدهما هدى وعلم ، والآخر ماء طهور .

وفى الحديث تشبيه آخر اذ يشبه الرسول الناس بالأرض ، هؤلاء انزل الهدى والعلم لحياتهم وخيرهم ، وهذه ينزل الماء لحياتها وخيرها ، والناس بالنسبة للهدى والعلم أصناف كما ان الأرض بالنسبة الى ماء السماء أصناف .

٣ ــ طائفة طيبة من الأرض يشبهها طائفة طيبة من الناس .

ففى الأرض طائفة طيبة . حسنة التربة ، منخفضة الجانب ، متعطشة للغيث ، مستعدة للحياة ، خيرة معطاة ، غنية بالخصب والنماء . يصيبها الغيث فتقبله امتصاصا ورشفا ، وتحتويه فى كل ذرة منها ، حتى اذا بل جفافها ، وخالط ذراتها ، وأروى ظمأها ، وسقى بذورها . تفتقت عن خيراتها بزروع شتى ، وثمرات مختلفات ، واهتزت وربت ، وانبتت من كل زوج بهيج ، فأقبل كل منتجع للخير فأخذ منها شبعا ومدخرات ، واستنبط منها ريا اذا شاء .

وهذه الطائفة الطيبة من الأرض متفاوتة فى مقادير جودتها وخصوبتها وعطائها ، فمن خيرة غنية كثيرة العطاء الى رقيقة فقيرة قليلة الخصوبة .

وعلى مثل هذه الطائفة الطيبة من الأرض نجد فى الناس امام غيث الهدى والعلم قسما طيبا ، حسن الفطرة ، لين العريكة ، موطأ الأكناف .

متعطشا للمعرفة ، مستعدا لخير الحياة ، يعرض عليه الهدى والعلم اللذين بعث الله بهما رسوله محمدا صلوات الله عليه ، فيقبله بلهفة وشوق قبول الظامىء اليه ، حتى اذا بالطت منــه عقلا واعيــا ، وقلبا مطمئنا ، ونفســا هينة لينة ، تدفقت منه الأعمال الصالحة ، وتفجرت فيه ينابيع الحكمة ، تسقى الواردين ، وتمنح القاصدين ، وتعطى فضلها للبعداء الجــاهلين .
وافراد هذا القسم الطيب من الناس متفاوتون كذلك فى مقادير ما عندهم من استعداد للهداية والعلم والنفع والعطاء ، ففيهم نخبة ممتازة كالخيرة الجلة من اصحاب رسول الله ، وهم السابقون الأولون ، ثم تتنازل المراتب حتى تصل الى أدناها ممن عنده ايمان قليل صحيح مقبول عند الله ، وقليل من خير ونفع للنــاس .

أفلسنا نرى تشابها كبيرا بين هذه الطائفة الطيبة من الأرض ، وهــذا القسم الطيب من الناس ، فى كثير من وجوه الشبه ، امــام متشــابهين آخرين ، هما الغيث ، وما جاء به الرسول من الهدى والعلم ؟ .

٤ ــ طائفة اجادب من الأرض يشبهها قسم من الناس :

وفى الأرض طائفة لا خصب فيها ، ولا خير عنــدها ، ولكنهــا مطمئنــة الجانب ، يصيبها الغيث من السماء فتحفظه فى منخفضاتها ، وفى تجاويفها ، ولا تستكبر عن تلقيه وحفظه ، مع انها لا ترتشفه ولا يخالط منهــا تــربة صالحة ، لذلك فهى لا تعطى ثمرا ، ولا تنبت نباتا حسنا ، ولكنهــا تحفظ ما ينزل عليهــا من الغيث ، فيأتى النــاس فيجدون ما عندها من مــاء ، فيأخذونه ، فينتفعون به ، يسقون ويزرعون ، ويردون ويوردون ، وهــذه الطائفة من الأرض متفاوتة فى مقادير ما تحفظ من ماء ، على مقدار ما عندها من استعداد للاستيعاب ، فمنها ما يحوى البحيرات الضخمة ، ومنهــا ما يحوى الجرعات الخفيفة ، ومنها ما هو بين ذلك .

وفى الناس امام غيث الهدى والعلم طائفة اجادب كذلك لاتقبل فى ذاتها الخير والهداية ، فلا تنبت عملا صالحا ، ولا تمنح خيرا ، ولا ثمرا ، ولكنهــا تستوعب ما يلقى اليها من علم ومعرفة استيعاب الحفظ المجرد ، لا استيعاب الحفظ مع العمل والتطبيق ، فيأتى اليها طلاب الهداية والمعرفة ، فيجدون ما عندها من ذلك ، فيتعلمونه ويعملون به وينتفعون وينفعون ، ويستفيدون ويفيدون .

وهذا القسم من الناس هم الذين يستمعون الى الهــداية والعــلم ، ويتعلمون ما يسمعونه فيحفظونه كله أو بعضــــه ، ولكنهم لا يعملون بمــا يعلمون ، ولا يطبقون ولا ينتفعون .

فيأتى اليهم طالب المعرفة والهداية ، فيجد ما عندهم من علم فيأخذه عنهم فينتفع به ، ويهدى به الناس .

أما هم فمن الخير لانفسهم بعيدون . وللعمل الصالح مجافون ، وهم العلماء الذين لا يعملون بما يعلمون .

وقد أنزل الله فى علماء اليهود الذين لا يعملون بعلمهم قوله :

(مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا) (١) .

وأفراد هذا القسم من الناس متفاوتون فى مقادير ما عندهم من استعداد للاستيعاب والمعرفة . فمنهم من يستوعب علما جما . ومنهم دون ذلك . وتتنازل المراتب حتى مرتبة الذى لا يعلم الا المسائل اليسيرة .

أفلسنا نرى تشابها كبيرا بين هذه الطائفة الاجادب من الارض . وبين هذا القسم من الناس الذى يحمل العلم ولا يعمل به . ولا ينتفع فيه ؟

٥ ــ طائفة قيعان من الأرض يشبهها قسم من الناس لا خير فيه :

وفى الأرض قيعان . صخور قاسية ملساء . وأرض مستوية صلدة . ورؤوس جبال مستكبرة . ورمال قاسية مبعثرة . ينزل عليها الغيث من السماء ، فيصيبها كما يصيب غيرها من الارض . ولكنها لا تمتص ماء . ولا تمسكه . ولا تحفظه . ولا تنبت كلأ ولا عشبا . فهى لاتنتفع من الماء بنفسها ، ولا تمسكه لمن ينتفع به .

وعلى مثل هذه القيعان من الارض نجد قيعان أخرى من الناس ، يقرع اسماعها هدى الاسلام وعلومه . وتصدم عيونها انواره . وتنزل عليها غيوثه ، ولكنها لا تعبأ بهدى منه ولا معرفة . ولا ترفع بشىء من ذلك رؤوسها . قسوة فى قلوبها . وكبرا فى انوفها . وجفاء فى طباعها . فهى لا تقبل من الحق الذى جاء به عملا ولا علما . يحجبها عن الخير شىء فى نفوسها ، مثل الشىء الذى نجده فى صخرة صماء من الارض . وان افتخرت على التراب الطيب بقساوتها ، أو ارتفاع مكانها . فما هذا بفخر يذكر . ولا بمجد يؤثر . وانما الفخر كل الفخر لأرض طيبة تنبت الجنات . وتعطى الثمرات ، وتفيض بالخيرات والبركات ، وان انخفض مكانها ولان جانبها .

---

(١) الجمعة الآية ٥

او يحجبهـا عن الخير مثل الشيء الذى نجـده فى أرض صلبة مسـتوية ينفسح عنها الماء ، او فى رمل صلب الذرات لا تماسك فيه .

هذا القسم من الناس هو قسم الكفرة الجهلة الذين يستكبرون عـن العلم والعمل معا ، وتقسو قلوبهم ، وتتحجر عقولهم . فهم لا خير عنـدهم لانفسهم ، ولا خير عندهم لغيرهم .

(د) ما يستفاد من الحديث :

١ ــ الناس اقسام ثلاثة :

(أ) متعلمون عاملون نفاعون ، مثلهم كمثل الأرض الطيبة .

(ب) متعلمون غير عاملين ، فيهم نفع لغـيرهم دون انفسـهم ، مثلهم كالأجادب من الأرض .

(جـ) لا عاملون ولا يتقبلون العلم والمعرفة ، فهم لا خير فيهم لأنفسـهم ولا لغيرهم ، ومثلهم كمثل القيعان من الأرض .

٢ ــ بلاغة الرسول صلوات الله عليه فى تقريب الحقائق العلمية بالأمثلة والتشبيهات الحسية . لان ذلـك أدعى الى تثبيت الحقيقـة فى نفـوس السامعين ، واكثر تاثيرا فى توجيهها للخير . .

٣ ــ ما جاء به الرسول من هدى وعلم يتضمن حياة النـاس كمـا ان الغيث فيه حيـاة الأرض .

الحديث الخامس

عَنْ أَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الأُتْرُجَّة رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ : لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ : رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ)

متفق عليه

(أ) ترجمة راوى الحديث :

سبقت فى الحديث الرابع .

(ب) اللغــة :

١ ــ **القرآن :** اسم لكتاب الله المعجز الذى انزله الله على نبيه محمد صلوات الله عليه ؛ ووصل الينا بالتواتر .

واصل كلمة قرآن مصدر قرا بمعنى تلا ــ وبمعنى جمع . تقول : قرات السورة قرا وقراءة وقرآنا اذا تلوتها . وتقول : قرات الماء فى الحوض قرآنا اذا جمعته فيه .

وكتاب الله القرآن على المعنى الأول أفضل مقروء متلو ؛ وعلى المعنى الثانى هو أفضل وأعظم وأحكم ما جمع من كلام .

٢ ــ **الأترجة :** واحدة الأترج . ويقال فيها : ترنجة ، وترنج ؛ وهو مايسمى فى بلاد الشام (الكباد) فاكهة من الحمضيات ذات رائحة طيبة . وقشرة الكبير منه يبلغ سمكها نحو عقدة الانملة . ويصنع من قشره اجود أنواع المربى . ولبه شديد الحموضة كثير الفائدة .

٣ ــ **التمرة :** واحدة التمر . وهو اسم جنس يفرق بينـه وبين واحده بالتاء . فاذا اريد به الانواع جمع على تمور وتمــران ، وجمع التمرة تمرات بالتحريك .

٤ ــ **المنافق :** اسم فاعل من نافق ينافق منافقــة ونفاقا . والنفــاق هو اظهار الاسلام وابطان الكفر . وهو بهذا المعنى اسم اسلامى لم تعرفه العرب قبل الاسلام . ولكنه مأخوذ من نافقاء اليربوع (دويبة فوق الجرذ) وذلك لأن اليربوع يتخذ لنفسه فى الأرض نفقين أو اكثر ؛ يجعل فى الأرض بينهما حجابا رقيقا ، ويجعل على أحدهما سترا من التراب . والعرب تسمى أحد النفقين النافقاء . وتسمى الآخر القاصعاء . فاذا لوحق اليربوع من القاصعاء ضرب الحجاب الرقيق بين النفقين براسه فخرج من النافقاء . واذا لوحق من النافقاء ضرب الحجاب الرقيق الى القاصعاء وفر منها .

وقد شبه ما يفعله من يظهر الاسلام ويبطن الكفر بذلك ؛ لأنه اذا لوحق من قبل المؤمنين بكفره فر واظهر نفسه فى صف المسلمين ؛ واذا لوحق من قبل الكافرين فر واظهر أنه منهم . ويصور القرآن حقيقة المنافقين بقوله تعالى :

(واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنـــا واذا خلوا الى شيـــاطينهم قالوا انا معكم انمـــا نحن مستهزئون) (١) .

٥ ــ **الريحانة** : هى الطاقة الواحدة من الريحان والريحان يطلق على كل نبت طيب الريح من انواع المشموم .

٦ ــ **الحنظلة** : واحدة الحنظل ، وهو ثمر معروف شديد المرارة لشجر يسمى العلقم .

(ج) الشرح :

مقـــدمة :

بدأ الاســـلام بالدعوة الى القـــراءة فكان أول ما بدىء به من الوحى قوله تعالى لنبيه : **(اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم) (٢) .**

وذلك لأن القراءة اهم وسيلة لاكتساب المعارف والعلوم ، واعظم وسيلة لتثبيتها ونشرها وتخليـــدها للأجيال ، كما انها من أهم الوسائل ذات الأثر فى الفكر والعمل ، لأن القارىء حينما يقرأ النص بعيدا عن صاحبه الذى كتبه أو أملاه يقـــرأه وهو متجرد من اكثر العوامل التى تغذى فى الانسان حب المعارضة ، فتسرى اليه الحقيقة البينة ، دون ان يجد صعوبة فى الاقتناع بهـــا ..

ولما كانت رسالة الاسلام تعتمد على أسس العلم ، وتستند الى الحقيقة النيرة ، وتساير كل معرفة صحيحة ، وتمجد كل نظر سديد ، كان من البدهى فبها أن تحث على التعلم والنظر ، وتتبع الحقائق واكتساب المعارف ، ولما كان القرآن أعظم كتاب يهدى للتى هى أقوم علما وخلقا وسلوكا وتربية كان افضل مقروء وأعظم متلو .

لذلك نجد الرسول صلوات الله عليه يحث على قراءة القرآن وتدبره فى أحاديث شتى ، وفى هذا الحـــديث يبين الرسول فضل قارىء القرآن على غيره ، فى صورة تشبيهات بأمور محسة ، ويقسم فيها المسلمين الى أربعة أقسام ، يشبه كل قسم منها بثمرة من ثمرات الأشجار مناسبة له ، مأخوذة من واقع البيئة العربية .

---

(١) سورة البقرة : الاية ١٤ .

(٢) العلق الآيات ١ ــ ٥

فالمسلمون قسمان : مسلمون صادقون باسلامهم وهم المؤمنون ، ومسلمون كاذبون باسلامهم وهم المنافقون ، وكل من هذين القسمين المؤمنين والمنافقين اما قارىء للقرآن أو غير قارىء له ، فالأقسام اذن اربعة ، وقد أورد الرسول لكل من هذه الأقسام الأربعة تشبيها مناسبا له .

مثل المؤمن القارىء للقرآن :

فالمؤمن الذى يقرأ القرآن مثله كمثل الأترجة ، بجامع طيب الباطن وطيب الظاهر فى كل منهما ، وذلك لأنه يحوى فى باطنه جوهرة الايمان التى لا تقدر بثمن فهو طيب الباطن ، وهو ينفح بقراءته للقرآن عطر المعرفة ، وشذا التلاوة ، فهو طيب الظاهر ، كما ان الأترجة طيبة الباطن اذا شق عن باطنها وطعم لبها ، وطيبة الظاهر ، لأن قشرتها تنفح بعطر زكى .

اما المؤمن الذى لا يقرأ القرآن فقد حوى طيب الباطن فقط ، وذلك بفضل جوهرة الايمان التى يحويها فى قلبه ، أما فى الظاهر فقد خسر بعدم قراءته القرآن نفحات زكيات كان من الممكن أن تتضوع منه لو كان قارئا ، فمثله كمثل التمرة .

والمنافق الذى يقرأ القرآن خلا باطنه من جوهرة الايمان ، فهو سيىء الباطن ، لكنه بقراءته القرآن ينفح عطرا زكيا ، فمثله كمثل الريحانة طيبة الرائحة مرة الطعم .

ورابع الأقسام المنافق الذى لا يقرأ القرآن ، وهذا قد خلا باطنه من الخير ، كما خلا ظاهره منه ، فهو كالحنظلة ليس فى ظاهرها رائحة جيدة وطعمها فى باطنها مر علقم .

(د) ــ ما يستفاد من الحديث :

١ ــ فضل قارىء القرآن على غيره .
٢ ــ الحث على قراءة القرآن ، لما للقراءة من أثر فى الفكر والنفس والعمل .
٣ ــ قراءة القرآن وحدها من غير استكمال شرط الايمان لا تضفى حلاوة على مرارة قلب المنافق بسبب نفاقه وان زينت ظاهرة بأريجها .
٤ ــ الأسلوب التربوى النبوى فى تقريب الحقائق الفكرية بأمثلة محسة مستقاة من بيئة المخاطبين ، وقد سبق صلوات الله عليه فى تطبيق هذا المبدأ التربوى علماء التربية بثلاثة عشر قرنا ، كما هو شأنه فى كل المبادىء والأصول التربوية المثلى كيف لا ؟ وقد تخرج من مدرسته عظماء الدنيا ، وقادة التاريخ الأمثلون ، فنشروا الحق والعدل والهدى والعلم فى الأمم والشعوب .

الحديث السادس

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : جَاءَتْ امْرَأَةٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ ذَهَبَ الرِّجَالُ بِحَدِيثِكَ ، فَاجْعَلْ لَنَا مِنْ نَفْسِكَ يَوْماً نَأْتِيكَ فِيهِ تُعَلِّمُنَا مِمَّا عَلَّمَكَ اللهُ ، قَالَ : اجْتَمِعْنَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا ، فَاجْتَمَعْنَ ، فَأَتَاهُنَّ النَّبِيُّ ﷺ ، فَعَلَّمَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَهُ اللهُ ، ثُمَّ قَالَ : (مَامِنْكُنَّ مِنِ امْرَأَةٍ تُقَدِّمُ ثَلَاثَةً مِنَ الْوَلَدِ إِلاَّ كَانُوا لَهَا حِجَاباً مِنَ النَّارِ) فَقَالَتِ امْرَأَةٌ : وَاثْنَيْنِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (وَاثْنَيْنِ).

متفق عليه

(أ) ترجمة راوى الحديث :

سبقت فى شرح الحديث الثـــانى .

(ب) اللغـــة :

١ ـ ذهب الرجال بحديثك :

فعل (ذهب) فعل لازم وعدى هنا بواسطة البـــاء ، أورد ابن هشام من معانى الباء الجارة التعدية ، قال وتسمى باء النقل أيضا ، وهى المعاقبة للهمزة فى تصيير الفاعل مفعولا . واكثر ما تعدى الفعل القاصر ، تقول فى ذهب زيد : ذهبت بزيد ، واذهبته ، ومنه (ذهب الله بنورهم) هـ .

واصل معنى الذهاب السير والمرور ، ولكن المراد هنا أن الرجال استأثروا بحديث الرسول صلوات الله عليه فلم يبق للنســـاء وقت خاص بهن ، يتعلمن فيه ما يخصهن ويتصل بشؤونهن من أمور الدين .

والاضافة فى : (بحديثك) تفيـــد العموم ، اى ذهب الرجال بكل أنواع حديثك أو بكل أوقات حديثك ، وذلك لأن اضـافة النـــكرة الى المعرفة من الصيغ التى تفيد العموم ما لم توجد قرينة صارفة عن ارادة العموم .

٢ ـ اجتمعن يوم كـذا وكـذا :

(كـذا) هنا : كلمـــة مركبـــة من كلمتين بحسب الأصـــل ، هما كاف التشبيه وذا التى هى من أسماء الاشارة ، وتستعمل كلمة واحدة كما هنـــا غير ملاحظ فيها معنى الكلمتين الأصليتين ، وانما يجاء بها للكناية عن أمر ما ، اذا لم يقصد المتكلم تحديد ذلك الأمر ، بل قصد أن يشير اليـــه اشارة عامة ، أو كان يجهل تحديده .

فاما أن يكون الراوى هنا لا يعرف الأيام التى حددها الرسول لاجتمـــاع النساء حتى يأتيهن ويعلمهن ، واما أن يكون رأى ذكر ذلك غير مهم فى الموضوع فكنى عنه بقوله : (كذا وكذا) .

٣ ـ ما منكن من امرأة تقدم ثلاثة من الولد :

امرأة ، ومرأة ، ومرة : مؤنث امرىء ، ومرىء . وهذه المفردات لا جمع لها من لفظها ، الا انه جاء نادرا من مرء مرؤون ، ومنه قول رؤبة ابن العجاج لطائفة رآهم : أين يريد المرؤون .

الولد ، **والولد والولد : بفتحتين** ، **وبضم فسكون** ، **وبكسر فسكون** ، يطلق على الواحد والكثير ، والذكر والأنثى .

والمراد من قوله صلى الله عليه وسلم : (تقدم ثلاثة من **الولد**) أنهم يموتون قبلها ، فتتقبل قضاء الله وقدره راضية غير متسخطة فكأنها قدمتهم بنفسها الى الله ، محتسبة أجر مصيبتها فيهم عنده ، أو على معنى تقدم صبرها على موت ثلاثة من الولد ، والصبر من الأعمال التى يستحق فاعلها الأجر عند الله بحسب وعده الكريم .

٤ ــ **فقالت امرأة : واثنين ؟** : على الاستفهام ، أى أو تقديم اثنين من الولد كذلك ، وقد دل على المحاذيف قول الرسول : (تقدم ثلاثة من الولد الا كانوا لهـا حجابا من النـار) وبقى جر اثنين لملاحظة المضاف المحذوف ، وللدلالة عليه .

٥ ــ **فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (واثنين)** على الاثبات ، أى وتقديم اثنين من الولد كذلك .

(الا) حرف استثناء جاء هنا للحصر ، فهو من باب الاستثناء المفرغ .
(كانوا) فعل ماض ناقص والضمير فى محل رفع اسمه .

(لهـا) جار ومجرور متعلق بـ (حجابا) .

(حجابا) خبر كان منصوب بفتح ظـاهر . و (من النـار) متعلق بـ (حجابا) وجملة (كانوا لها حجابا من النار) فى محل رفع خبر المبتدأ .

٦ ــ فقالت امرأة : واثنين ؟ :

(اثنين) مجرور لأنه مضاف اليه ، اذ أصل الكلام : (أو تقديم اثنين من الولد **كذلك**) على حذف مضاف هو مبتـدأ ، وحذف الخبر وهو **كذلك** . والكلام فى الأصل مصدر باستفهام محذوف ايضا . أو على تقدير : (أو من تقدم اثنين كذلك) فيكون لفظ (اثنين) مفعولا به لفعل محذوف .

ومثل ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (واثنين) الا انها بغير استفهام .

(ج)ـ الشـرح :

الجراة الادبية عند المسلمات فى عصر الصحابة :

هذا حديث من الأحاديث النبوية الكثيرة التي تصور لنا جراة النساء المسلمات في عصر الرسول صلوات الله عليه ، وذلك في سعيهن لنيل حقهن من المعرفة بأمور الدين .

فهذه امراة منهن تأتي الى رسول الله بجراة ادبية طيبة ، مع رباطة جأش ، فتقول له : يا رسول الله ، ذهب الرجال بحديثك . وذلك لأن الرجال كانوا يحتلون مكان المقدمة من مجالس الرسول ، فتوجه اليهم اكثر كلماته وعظاته وبياناته ، ولئن كان الاسلام في دعوته وأحكامه وتكاليفه ومواعظه يتناول الرجال والنساء على السواء ، فان بعض مسائله وأحكامه خاص بالرجال ، وبعضها خاص بالنساء ، أما الرجال فينالون حظهم من التعرف على ما يخصهم اذ ليس بينهم وبين الرسول حجاب ، ولديهم من الجراة ما يسألون عن كل امر من امور دينهم ، فهم يسألون الرسول عن ذلك أينما حلوا واينما ارتحلوا ، لكن النساء لا يستطعن دائما أن يسألن عما يخصهن من أمور الدين ، ويحللن به مشكلاتهن ، لعدم مشروعية المجتمع المختلط اختلاطا تاما في آداب الاسلام الاجتماعية ، ولئن كن يحضرن مجالس الرسول منعزلات عن الرجال فانهن ربما يستحيين أمام الرجال أن يسألن عنها .

لذلك فان تعليمهن ما يخصهن ، وحل مشكلاتهن لا بد فيه من تخصيص مجالس لهن تعالج فيها امورهن ، وتوجه لهن فيها الاحكام والمواعظ بحسب خصائصهن النفسية والفكرية والخلقية والاجتماعية ، وبحسب مسؤوليتهن في الحياة داخل أسرتهن وخارجها ، ولكل هذه الأمور أتبعت هذه المراة من الصحابيات كلامها للرسول . « فأجعل لنا من نفسك يوما نأتيك فيه ، تعلمنا مما علمك الله » .

وهذا هو الحل الوحيد الذي يتم فيه تعليم النساء ، واخراجهن من ظلمات الجهل الى نور المعرفة ، حتى يؤدين رسالتهن في الحياة على أحسن وجه وأفضله ، ويحملن مسؤوليتهن كما يجب ان يحملنها ، مع المحافظة على عفافهن واخلاقهن ، وعدم قذفهن الى مجتمع مختلط تسرع اليه مفاسد المجتمعات المختلطة ، وتشب فيه نيران الشهوات العارمة ، التي تنتشر معها المعاصي والآثام ، ومفاسد كثيرة أخرى .

لأن العلم الصحيح هو الوسيلة الأولى التي لا بد منها لاصلاح كل مجتمع ، رجاله ونسائه كباره وصغاره .

ومن أجل ذلك حمل الاسلام لواء العلم والمعرفة ، في أصوله وفروعه ،

واحكامه وآدابه ، كما حمل لواء الدعوة اليهما ، بين مختلف طبقات البشر فى كل امر من امور الكون والحياة والنفس ، الظاهر منها والباطن .

تعليم المراة :

وقد حرص الاسلام على تعليم المراة ما تكون به عنصر صلاح واصلاح ، فى مجتمع اسلامى متطور الى الكمال ، متقدم الى القوة والمجد ، آمن مطمئن سعيد ، فأذن باشتراكها فى المجامع الاسلامية العامة الكبرى منها والصغرى ، فرغب بأن تحضر صلاة الجماعة ، وتشهد خطبة الجمعة ، وخطبة العيد ، وأمرها بالحج والعمرة ، وحثها على حضور مجالس العلم ، وخاطب الله فى القرآن النساء بمثل ماخاطب الرجال ، وادمجهن فى عموم خطاب الرجال فى كثير من الأحوال ، حرصا على تعليمهن وتثقيفهن ، وتعريفهن بأمور دينهن ، ونظرة الى واقع الحياة تبدى لنا اهمية صلاح المراة علما وخلقا وسلوكا داخل الأسرة ، ثم فى المجتمع الكبير ، فبمقدار صلاح المراة فى الأسرة يكون غالبا صلاح النشء والذرية فيها ، وبمقدار فسادها يكون غالبا فسادهم ، يضاف الى ذلك ما لها من تأثير بالغ على الرجال زوجا كان أو ابا او اخا ، واهمية صلاح المراة لصلاح الأسرة أكثر من اهمية صلاح الرجل لصلاحها ، وذلك لأن المراة تستطيع أن تكون ذات أثر فعال مرشد أو مفسد فى تكوين اخلاق الأطفال الصغار وطبائعهم وعاداتهم ، اكثر من الرجل بكثير ، لعدة أسباب : منها ما وهبها الله من عاطفة متدفقة . ولين فى الطبع ، وقابلية للاندماج والمشاركة فى أمور الصغار على مقدار طبائعهم ونفوسهم . مما له أثر كبير فى اكتساب حبهم واحراز ثقتهم . حتى يتخذوها قدوة لهم فى اقوالها . واعمالها ، وأخلاقها ، وسائر تصرفاتها . ومنها واقع ملازمتها لأطفالها فى أكثر اوقات نشأتهم ، وهم ما يزالون بعد فطرة نقية . وعجينة لينة ، قابلة للتكيف ، فما يطبع فيها من خير جفت عليه . وما يطبع فيها من سوء كذلك ، ثم يعسر بعد ذلك التغيير والتبديل . متى صلب عود الطفل . واقتبس شيئا بالتقليد أو بالعادة ، ومن شب على شيء شاب عليه .

ولما كان للمراة كل هذا الأثر فى تربية الطفولة داخل أسرتها أو خارجها ، كان لابد من العناية بتكوينها تكوينا راقيا . والعمل على جعلها قدوة صالحة وأسوة حسنة ، وذلك لا يتم الا بتعليمها ما تكون به المربية الفاضلة ، وتربيتها تربية اسلامية حسنة ، والاستفادة مما وهبها الله من عاطفة رقيقة لملء قلبها ونفسها بالايمان والخير ، حتى تغذى به جيلها الذى تنشئه وتربيه .

ولذلك كثيرا ما نلاحظ أولادا فاضلين مهذبين ، ثم نبحث عن سر ذلك فنعلم ان لهم أما مربية فاضلة ، تقية مهـــذبة ، وان لم يكن أبوهم على مثل ذلك . ونلاحظ أولادا فاســدين منحرفين ، ثم نبحث عن سر ذلك فنعلم أن لهم أما منحرفة فاســدة . وقد يكون لهم آباء صالحون فاضلون . فلا عجب بعد كل هذه الموجبات لاصلاح المرأة علما وخلقا حتى تكون مربية فاضلة داخل أسرتها وخارجها ضمن المجتمع النسائى الكبير أن نجد الرسول صلوات الله عليه يأمر النساء أن يجتمعن أياما محددة اجتماعات خاصـــة بهن ويأتيهن ويعلمهن . فقال رسول الله صلوات الله عليه ، (اجتمعن يوم كذا وكذا) .

ولما كانت النساء المسلمات فى الصدر الاسلامى الاول متلهفات لمعرفة أمور دينهن . وتبين حلول مشكلاتهن الخاصة فقد تبادرن للاجتماع الى مجالس الرسول الخاصة بهن ، فاجتمعن ، فأتاهن النبى صلى الله عليه وسلم فى المواعيد المحددة فعلمهن مما علمه الله ، فبين لهن مابين ، وسألنه عن مسائل تتعلق بخصائصهن ، واجابهن صلوات الله عليه .

ولما كان فى صحابيات الانصار جريئات فى السؤال عما يتعلق بأحوال النساء وخصائصهن أثنى عليهن الرسول صلى الله عليه وسلم فى احدى المرات اذ دعا لهن بالرحمة فقال : « رحم الله نساء الأنصـــار لا يمنعهن حياؤهن ان يسألن عن أمور دينهن » .

توجيه خاص من الرسول صلوات الله عليه الى النساء :

فكان مما خصهن به من توجيه قضية لها فى واقع حياة المرأة أثر كبير ، الا وهى ما تتعرض اليه من الحزن الشديد على ما تفقده وتقدمه بين يديها من أولادها .

انها قضية الموت ، قضية القضاء والقدر التى لاتستطيع قوة مهما بلغت ان تتدخل فيها أو تغير من واقعها شيئا ، وهى ابتلاء محزن شديد الوقع على النفوس كلها ، لكنه على نفس الأم اشد وقعا ، وأكثر ايلاما .

ومعلوم فى حكمة الشريعة وفلسفة الدين أن الابتلاء بالمصائب يحمل فى داخله نعمة تكفير السيئات . ورفع الدرجات ، وزيادة الحسنات ، ولما كانت المصيبة بالموت من اكبر المصائب فى الدنيا كان الاجر بالصبر عليها والرضاء بقضاء الله فيها من أعظم الأجر ، وبخاصة من تكون مصيبتها به أكبر . ألا وهى الأم ، فكيف بهذه المصيبة اذا تكررت فى حياة الانسان مرتين أو اكثر ان الأجر بذلك ينمو وينمو حتى يكون حجـــابا لصاحبه من النار ، أى مكفرا لخطيئاته وسيئاته التى يستحق عليها شيئا من عذاب النار دون الخلود فيها ، لأن

حصول الأجر على المصائب مشروط بأن يكون المصاب مسلما مؤمنا راضيا بقضاء الله غير متسخط عليه فيما يجرى به مراده .

ولذلك خصهن الرسول بخطابه فقال لهن :

(ما منكن من امرأة تقدم ثلاثة من الولد الا كانوا لها حجابا من النار) .

وهنا طمعت امراة من الحاضرات مجلس الرسول الخاص بالنساء ، فقالت على سبيل الاستفهام : « واثنين ؟ » ولعلها كانت ممن قدم بين يديه الى الآخرة ولدين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (واثنين) على سبيل الايجاب .

وقوله صلى الله عليه وسلم (تقدم) دون أن يقول يموت لها أو يؤخذ منها او نحو ذلك ، يشير الى معنى التسليم لله والرضا بقضائه ، وعدم التسخط عليه ، لأن من يقدم الشيء انما يقدمه بحسب العادة عن رضا وتسليم ، بخلاف من ينزع منه الشيء نزعا ، أو يغضب منه غضبا ، أو يسرق منه سرقة ، فان ذلك يغضبه ويسخطه حتى يكون منه ما لا يكون ممن يقدم الشيء بنفسه .

ولما كان الموت أخذا لا تقديما كان الرضا والتسليم به بمثابة التقديم ، ولا يمنع من ذلك ما يقع فى القلب من الحزن الشديد ، وما يظهر فى العين من البكاء ، لأنها عاطفة لا يمكن دفعها ، وتأثر لا يملك الانسان رده ، ولا يعارض الرضا والتسليم بما يجرى به القضاء والقدر ، فحينما توفى الرسول صلوات الله عليه ابنه ابراهيم قال : « ان القلب ليحزن وان العين لتدمع ولا نقول الا ما يرضى ربنا : انا لله وانا اليه راجعون » فلم يكن حزن قلبه وبكاء عينه معارضا لتسليمه ورضاه بقضاء الله وقدره .

(د) ما يستفاد من الحديث :

١ ـ الجرأة الأدبية عند المسلمات فى الصدر الأول .

٢ ـ رغبة الصحابيات بالعلم وسعيهن الى معرفة أمور دينهن .

٣ ـ اهتمام الاسلام بتعليم المراة حتى تكون عضوا صالحا فى المجتمع الاسلامى ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتحسن القيام بمسئوليتها فى الحياة من عمل وخلق وتربية فاضلة لمن تشرف على تربيتهم .

٤ ـ مشروعية تخصيص العالم الموثوق مجالس لتعليم النساء وموعظتهن ،

تكون بعيدة عن الخلوة المحرمة ، وبعيدة عن أسباب الفتنة .

٥ ـ عظم اجر التى تصاب بموت ولدين لها فأكثر ، الى حد ان يكون ذلك مكفرا لها جميع سيئاتها حتى يكون حجابا لها من النار .

٦ ـ حكمة الرسول صلوات الله عليه فى اختيار الموضوعات التى تناسب النساء فى المجالس التى عقدها لهن .

٧ ـ بلاغة الرسول وايجازه فى المقام الذى يناسبه الايجاز ، واطنابه فى المقام الذى يناسبه الاطناب .

٨ ـ قول الرسول (واثنين) جوابا لسؤال المراة بعد ان نص فى كلامه السابق على أن التقديم لثلاثة من الولد ، يحتمل أن يكون مأذونا بذلك مسبقا ، او ان يكون نزل عليه الوحى بذلك ما بين سؤال المراة واجابتها ، أو ان يكون العدد لامفهوم له ، وانما راعى الرسول حالة خاصة عند بعض النساء الحاضرات فنص عليها ، ولما سئل عما دونها اجاب بالايجاب ، وربما لو سئل عن ولد واحد لأجاب بالايجاب أيضا ، والله أعلم .

الحديث السابع

عَنْ أَبِي بِشْرٍ قَبِيصَةَ بْنِ الْمُخَارِقِ ــ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ــ قَالَ : تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَسْأَلُ فِيهَا ، فَقَالَ : (أَقِمْ حَتَّىٰ تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا) ثُمَّ قَالَ : (يَاقَبِيصَةُ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلاَّ لِأَحَدِ ثَلَاثَةٍ : رَجُلٌ تَحَمَّلَ حَمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكَ ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّىٰ يُصِيبَ قِوَاماً مِنْ عَيْشٍ ، أَوْ قَالَ : سِدَاداً مِنْ عَيْشٍ ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُولَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ لَقَدْ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ ، حَتَّىٰ يُصِيبَ قِوَاماً مِنْ عَيْشٍ ، أَوْ قَالَ : سِدَاداً مِنْ عَيْشٍ ، فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتٌ ، يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتاً).

رواه مسلم

ا) ترجمة راوى الحديث :

١ — هو أبو بشر قبيصة بن المخارن بن عبد الله الهلالى البصرى .

٢ — صحابى وفد الى النبى صلى الله عليه وسلم من البصرة ، وروى عنه .

ب) اللغـة :

١ — **تحملت حمالة** : الحمالة بفتح الحاء ما يتحمله الانسان عن غيره من دية أو غرامة . كأن يقع قتال أو خصام بين فريقين فيصلح انسان ذات بينهم على مال فيتحمله ، ويلتزمه على نفسه ، والتحمل هو أن يحمل الحمالة عنهم على نفسه ، ويسأل الناس فيها .

وتقول لغة : حملت به حمالة اذا كفلت به .

٢ — **اسال فيها** : يقال لغة سألته سؤالا ومسئلة بمعنى استعطيته اياه ، واشتهرت المسئلة بمعنى استجداء المال ، ومن ذلك يسمى الفقير سائلا ، وجمعه سؤال . واصل السؤال طلب الشيء فالسؤال عن العلم طلب بيانه ، والسؤال عن الحادثة طلب الاخبار عنها ، وسؤال المال طلب اعطائه وهكذا .

و (فى) من قول قبيصة : (اسأل فيها) :

اما ظرفية ، أى اسأل رسول الله المال فى شأن اعطائى مقدار الحمالة التى تحملتها ، والظرفية هنا مجازية .

واما سببية ، وهى التى تأتى للتعليل ، أى اسأل رسول الله المال بسبب الحمالة التى تحملتها .

وكل من الظرفية والسببية من معانى (فى) كما هو معلوم عند النحاة .

٣ — **اقم حتى تأتينا الصدقة** : اى حتى تأتينا الزكاة ، لأن من تحمل الحمالة يدخل فى عموم الغارمين المنصوص على انهم من مستحقى الزكاة فى القرآن الكريم .

واصل الصدقة ما يعطى للفقراء ابتغاء وجه الله ، وتطلق على الزكاة المفروضة ، كما تطلق على صدقة التطوع .

٤ — حتى يصيبها ثم يمسك :

يصيبها : اى يجدها ويحصل عليها ، يقال أصاب الشيء اذا وجده وحصل عليه .

يمسك : اى يسكت عن المسألة ، تقول : امسكت عن الكلام اذا سكت .

٥ ـ **اصابته جائحة اجتاحت ما له** : الجائحة : المصـيبة العظيمة التى تحل فى مال الانسان فتستأصله كله ، يقال : أصابتهم **سنة شديدة اجتاحت** أموالهم ، وجاحتها .

٦ ـ **قواما من عيش ، أو قال : سدادا من عيش :**

قواما : بكسر القاف ويجوز فتحها ، هو ما يقوم به أمر الانسان من مال ونحوه ، وقوله : من عيش بيان للمراد من القوام هنا .

سدادا : بكسر السين ويجوز فتحها ولكن الكسر أفصح ، هو ما تسـد به حاجة المعوز ، وقوله أو قال : سدادا من عيش شك من الراوى .

٧ ـ **من ذوى الحجا** : أى من أصحاب العقل ، فالحجا : العقل والفطنة وجمعه أحجاء .

٨ ـ **السحت** : بضم السين ، هو الحرام الذى لا يحل كسبه من المال ، سمى بذلك لأنه يسحت البركة ، اى يذهبها ، وأصل السحت مصدر سحت اذا قشر الشىء قليلا قليلا حتى استأصله ، والسحت أيضا العذاب .

(ج) الشرح :

مقـــدمة :

خلق الله الناس وجعل فى مناكب الأرض وخبـاياها أقواتهم وارزاقهم وسائر أسباب رفاهيتهم ورغد عيشهم ، ومنحهم القدرة على السعى والعمل ، وربط بها تحصيل ما بث لهم فى مناكب الأرض وخباياها ، وقال لهم بمنطق الفطرة وبلسان الشريعة : **(فامشوا فى مناكبهـا وكلوا من رزقه) (١)** فالعمل هو الوسيلة الفطرية المنطقية لاكتساب الرزق وتحصيل أسباب العيش .

وقد جعل الفاطر الحكيم طاقة الفرد على الكسب والاستثمار فى الحالات الطبيعية العادية أكثر من حاجاته الخاصـة به ، فهو يستطيع بطاقتـه ان يكتسب ويستثمر أكثر من حاجات عيشه ورفاهيته التى لا اسراف فيهـا ولا تبذير وذلك ليدخر لنفسـه بعض ما يزيد عن حاجتـه فى أوقات كسبه وسعيه ، وليؤدى بقسم آخر واجبه نحو المجتمع الانسانى الذى يشاركه فى العيش والرزق والرفاهيـة على هذه الأرض ، وليقوم بوظيفتـه الجماعية بوصفه واحدا من هؤلاء الشركاء ، فيقدم قسما مما يزيد عن حاجتـه من كسبه لمستحقى ذلك بحسب فلسـفة العيش الأقوم للانسانيـة على هذه الأرض ، وطبق نظام التكافل الجماعى الذى شرعه الله لعباده .

---

(١) الملك الآية ١٥

وذلك لأن الانسان لا بد من ان يمر في مرحلة الطفولة وهي فترة يعجز فيها عن الكسب فلا بد له من كافل يسعى ليقدم له رزقه ، ويمر في اواخر عمره بمرحلة الشيخوخة التي تقعده عن العمل فلا بد له من كافل يسعى ليقدم له رزقه وحاجاته ، كما انه قد يتعرض في ايام شبابه الى العجز عن العمل فلا بد له من كفالة .

والجماعة بحاجة الى تقاسم الأعمال في الحياة ، ومنها ما يؤدي فيه الفرد خدمة ضرورية للدين او الدنيا ، للاسرة الصغيرة او المجتمع الكبير ، فكان على المتخصصين بالكسب واستثمار الأرزاق ان يقدموا للتمفرغين للقيام بالخدمات الأخرى التي لابد منها ما يحتاجون اليه ضمن نظام التكافل والتعاون في الحياة .

وهنا تبدو فلسفة العيش في نظام الاسلام بأروع ما يمكن أن تبدو فيه فلسفة ما في الدنيا ، فالقادرون على العمل مأمورون بالسعي لاكتساب رزقهم من الطرق التي شرع الله واذن ، وطرق اكتساب الرزق كثيرة ، منها ما هو استثمار واستنتاج ، ومنها ما هو تصنيع وتحويل ، ومنها ما هو خدمة خاصة او عامة ، وقد اذن الله باكتساب الرزق عن اية طريق من هذه الطرق ، ما لم يكن في العمل الذي يباشره مكتسب الرزق عدوان على حق غيره ، أو اضرار بالفرد أو بالمجتمع ، أو بسياسة الدولة الاسلامية ، أو مخالفة لأصل من أصول الدين أو حكم من احكامه مما يمس العقيدة أو العبادة أو الخلق أو نظام الجماعة ، أو خدمة في شيء من ذلك او معاونة عليه .

والمتفرغون عن العمل لمصلحة غيرهم ، أو لمصلحة تقاسم المسئولية داخل الأسرة مكفيون في نظام الاسلام بالنفقة الواجبة التي فرضها الله على طائفة من القادرين ، فالمراة متفرغة بحسب الأصل لحمل المسئولية الداخلية في الاسرة، لذلك فان نفقتها على ولي أمرها واجبة في نظام الاسلام .

واما العاجزون عن العمل فان كان في اسرتهم اغنياء بكسبهم او بما عندهم من مال ممن قرر الله في دينه قيام نظام التكافل بينهم ، فان نفقتهم تجب على هؤلاء الأغنياء من اسرتهم ، وان لم يكن في اسرتهم اغنياء بكسبهم او بما يملكون وجب على المجتمع كله أن يكلفهم ، ومن اجل حل مشكلة هذا القسم شرع الله نظام الصدقة المفروضة وغير المفروضة .

ثم اذا تأملنا في تفصيل هذه الخطوط العريضة التي اوردناها وجدنا أن الاسلام قد حل مشكلة الحاجة في المجتمع الانساني بأبسط حل واحكمه ،

فهو عملى تطبيقى يناسب مختلف المجتمعات الانسانية دون تعقيد ولا عدوان، ولا تحاسد ولا تحاقد ، ووجدنا انه لا مجال فيه للمسألة واستجداء المال الا لطالب حقه من الزكاة المفروضة وهم من نص عليهم هذا الحديث الذى نعالج شرحه ونبين معانيه .

سؤال قبيصة المال من أجل الحمالة التى تحملها :

يقول هذا الصحابى عن نفسه : انه قد تحمل حمالة فأتى رسول الله يسأل فيها ، اى التزم فى سبيل اصلاحه بين فريقين مختصمين من قومه أن يدفع من ماله ما يحل به عقدة خلافهما ، فهو بهذا يدخل فى قسم الغارمين الذين يستحقون ما غرموه من أموال الصدقة ، اخذا من قوله تعالى : **(انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل)** (١) .

ولما سأل رسول الله فيها قال له الرسول صلوات الله عليه : **(اقم حتى تأتينا الصدقة فنامر لك بها)** اى بمقدار الحمالة التى تحملتها ، ودل قول الرسول هذا على أن من تحمل حمالة يدخل فى ضمن المستحقين الذين تدفع لهم الصدقة ، اى الزكاة ، واذا فتشنا عنه ضمن الأصناف الثمانية المذكورين فى الآية وجدناه من صنف الغارمين .

ومن عظيم حكمة الرسول صلوات الله عليه أنه لم يدع هذه الحادثة تمر دون أن يعطى فيها بيانا شاملا يحدد فيه أصناف الناس الذين تحل لهم المسألة ، وهى استجداء أموال الصدقة ، ردعا للذين تحدثهم نفوسهم باستجداء الصدقات طمعا واستكثارا بدون أن يكون لهم حق شرعى بها فى نظام الاسلام ، لأن أخذ أموال الصدقات دون استحقاق شرعى عدوان على المستحقين ، وظلم لا يأذن الله به ، ومكسب حرام يسحت آكله حتى يستأصله ويهلكه .

أصناف الناس الذين تحل لهم المسألة :

أما أصناف الناس الذين تحل لهم المسألة فثلاثة بينها الرسول صلوات الله عليه فى هذا الحديث بيانا تاما ، وهى كما يلى :

الصنف الأول : (رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك) فالغارم له أن يسأل حتى ينال مقدار الالتزام الذى التزمه فى حمالته،

(١) التوبة الآية ٦٠ .

فاذا ناله وجب عليه أن يمسك عن المسألة وليس له حق فى أن يأخذ ما زاد عليــه .

الصنف الثانى : (ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش ، أو قال ، سدادا من عيش) .

ويدخل هذا الصنف ضمن الفقراء والمساكين الذين نصت عليه الآية ، فهو فى الأصل رجل غنى بماله ، ولكن اصابته مصيبة اجتاحت ماله ، فأمسى فقيرا ذا حاجة ، فحلت له المسألة ، ولكن الشارع هنا لا يأذن لهذا الرجل بأن يستمر فى المسألة حتى يعوض مقدار ما اجتيح من أمواله أو يزيد علبها ، وانما يأذن له بأن يسأل حتى ينال من أموال الصدقات ما يكون فيه الكفاية بالمعروف دون زيادة ولا استكثار ، وان كان أقل مما اجتيح من ماله بكثير ، لأنه ليس المفروض أن الصدقات ستعيده الى ما كان عليه من غنى ، ولكن المفروض أن تسد بها حاجة عيشه وعيش أسرته ، وهو ما أشار اليه الرسول بقوله : (**حتى يصيب قواما من عيش**) أو قوله : (**حتى يصيب سدادا من عيش**) .

الصنف الثالث : (ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوى الحجا من قومه : لقد أصابته فاقة ، فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش أو قال سدادا من عيش) .

ويدخل هذا الصنف أيضا ضمن الفقراء أو المساكين الذين نصت عليهم الآية ، والفرق بين هذا الصنف والصنف الثانى أن الفقر الذى أصاب هــذا الصنف بعد سابق غنى فقر مستور ترافقه بحسب العــادة شبهة الاحتيال والكذب ، لذلك احتاج الى شهادة ثلاثة من ذوى الحجا من قومه العارفين به ، يشهدون له بأنه قد أصابته فاقة ، بخلاف الصنف الثانى فان الجوائح فى العادة ظاهرة لا تخفى ، ويبعد أن يكون معها احتيال أو كذب ، ومتى كان مدعيها محتالا أو كاذبا فلا بد أن ينكشف حاله بسرعة وينقطع به حبل الكذب لذلك لم يلزمه الرسول بأن يكون معــه شـــهادة من ذوى الحجا من قومه ، وكذلك " ، الأول فان من يتحمل الحمـــالة لابد أن يكون ذا وجاهــة فى قومه و ب شهرة ، وما تحمله من حمالة يكون فى العادة أمرا مشتهرا لا حاجة فيــه الى شــهادة .

وحكم من أصابته فاقة كحكم من اصابته جائحة ليس له أن يسأل زيادة على ما يصيب به قواما من عيش له ولأسرته .

وانهى رسول الله صلى الله عليه وسلم كلامه فى بيان الأصناف الثلاثة بوعيد من يتجاوز حدود الله فيما أحل من المســألة فقال : **(فما سواهن من**

المسألة يا قبيصة سحت يأكلها صاحبها سحتا) فكل ما ينال عن طريق مسألة غير مشروعة مال سحت ومكسب حرام، ولم يكتف الرسول بقوله : **(سحت)** بل اكد ذلك بقوله : **(يأكلها صاحبها سحتا)** اشارة الى ما فى كلمة السحت من معنى الاستئصال والعذاب .

اما بقية الأصناف الثمانية المذكورة فى آية : **(انما الصدقات للفقراء ..)** فهم اما داخلون فى واحد ممن تحل لهم المسألة بموجب هذا الحديث ، واما غير مستحقين بذاتهم ان يأخذوا من الصدقات وانما اذن الله للحاكم المسلم بأن يعطيهم منها رعاية لمصلحة المسلمين العامة ، لا أن يسألوا هم من أموال الصدقة بوصفهم مستحقين .

وذلك لأن العاملين على جباية الصدقات موظفون يأخذون أجورهم على اعمالهم ، وللحاكم ان يدفع لهم هذه الأجور من اموال الزكاة ، واما المؤلفة قلوبهم فليسوا اصحاب حق أساسى فى اموال الزكاة لتاليف قلوبهم على الاسلام حتى يطالبوا بها ، وانما اذن الله للحاكم المسلم اذا راى فى اعطائهم مصلحة للمسلمين أن يعطيهم من أموال الزكاة ، واما المجاهدون فى سبيل الله فهم أما فقراء أو موظفون او متبرعون ، فان كانوا فقراء سألوا باسم الفقر ، وان كانوا موظفين بالأجر فعطاؤهم مثل عطاء العاملين عليها ، وان كانوا أغنياء متبرعين فللحاكم أن يعطيهم دون سؤال منهم ، واما ابن السبيل فهو منقطع فقير أو اصابته جائحة والله أعلم .

(د) ما يستفاد من الحديث :

١ - تحريم استجداء أموال الصدقات الا لأحد أصناف ثلاثة وهم :

(أ) الغارمون ، وهم يأخذون مقدار ما التزموه فقط ثم يمسكون عن المسألة.

(ب) المصابون بالجوائح ، وهؤلاء يأخذون من الصدقات ما يسدون به عيشهم وعيش أسرتهم .

(جـ) المصابون بالفاقة ، وهؤلاء عليهم أن يقدموا شهادة ثلاثة من عقلاء قومهم بأنهم قد أصابتهم فاقة ، ثم لهم أن يأخذوا من الصدقات ما يسدون به حاجة عيشهم وعيش أسرتهم .

٢ - الأموال التى يأخذها السائلون بدون حق أموال سحت ، يأكلونها حراما فيه الهلكة والعذاب .

٣ ـ الاسلوب النبوى الرفيع فى تصيد المناسبات لتبليغ احكام الله وشرائعه .

٤ ـ بلاغة الرسول صلوات الله عليه فى استيعاب الأقسام باسلوب موجز رفيع ، فى فقرات محكمة دقيقة التعبير كأنها مواد قانونية اجتهدت طائفة من ذوى الاختصاص القانونى فى صياغتها واحكام سبكها ، مع مزج الأسلوب التربوى ضمن البيان القانونى ، اذ اثار المخاوف من عقوبة كسب المال الحرام فى آخر كلامه بقوله : (ياكلها صاحبها سحتا) .

الحديث الثامن

عَنْ عَمْرِو بْنِ تَغْلِبَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ - أُتِيَ بِمَالٍ أَوْ سَبْيٍ فَقَسَّمَهُ ، فَأَعْطَى رِجَالاً وَتَرَكَ رِجَالاً ، فَبَلَغَهُ أَنَّ الَّذِينَ تَرَكَ عَتَبُوا ، فَحَمِدَ اللهَ ثُمَّ أَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ (أَمَّا بَعْدُ فَوَاللهِ إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَأَدَعُ الرَّجُلَ ، والَّذِي أَدَعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الَّذِي أُعْطِي ، وَلَكِنِّي إِنَّمَا أُعْطِي أَقْوَاماً لِمَا أَرَى فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجَزَعِ وَالْهَلَعِ ، وَأَكِلُ أَقْوَاماً إِلَى مَا جَعَلَ اللهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْغِنَى وَالْخَيْرِ ، مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ) قَالَ عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ : فَوَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِكَلِمَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ - حُمْرَ النَّعَمِ .

رواه البخاري

(ا) **ترجمة راوى الحديث :**

ما جـاء فى ترجمته :

١ ــ هو عمرو بن تغلب النمرى ، (من النمر) .

٢ ــ صحابى أصله من قرية من قرى البحرين تسمى : (جواثى)

٣ ــ روى عن النبى صلى الله عليـــه وسـلم ، وروى عنـــه الحسن البصرى .

(ب) اللغـــة :

١ ــ **اتى بمال أو سبى :** شك من الراوى الذى روى عن عمرو هل قال عمرو : (بمال) أو قال : (بسبى) .

والسبى هنا هو المسبى من العـدو ، تقول : سبى العـدو سبيا وسباء اذا اسره ، فهو سبى ، والانثى كذلك سبى بغير هاء ، ويقال فيها سـبية اى مسبية ، وعلى كل فالمال الذى جـاءه ليس من قبيـل امـوال الزكاة أو الصـدقات التى تأتى باسم الفقراء ، وانما هو من قبيل الأمـوال العامة التى يكون حق التصرف فيها راجعا الى الرسول صلوات الله عليه ، ثم الى خلفائه من بعده ، حسب المصلحة العامة التى تقضى بهـا ادارة احـوال المسلمين وسياستهم الرشيدة .

٢ ــ **فبلغه ان الذين ترك عتبوا :** اى الذين ترك عطاءهم عتبوا .

عتبوا : يقال عتب عليـه بفتح التـاء يعتب ويعتب من باب ضرب ونصر عتبـا وعتابا اذا وجد عليـه فى نفسه ولامه ، ويكون العتب عادة مع الحب والاجلال ، فالرجل يعاتب صاحبه وصديقه او من يجله ، ولا يعاتب عدوه أو من يكرهـه .

٣ ــ **فحمد الله واثنى عليه :**

الحمد اللفظى هو الثنـاء باللسان على الصفات والأفعال الحسنة ، فقول الراوى ثم اثنى عليه يفهم منـه ان الرسـول صلوات الله عليه بعـد ان اطال عبارات الحمد لله جاء بعبارات الثنـاء عليه ، وان كان مؤدى كل من الحمـد والثنـاء واحـداً .

٤ ــ **اما بعد فوالله :**

اما : حرف شرط ، و (بعد) قائم مقـام شرطها ، والفـاء من (فوالله) واقعة فى جواب الشرط ، والأصل فى هذا الاستعمال وما يشبهه : مهما يكن

من شيء بعـــد ما سبق فوائد ، و (بعد) مبنية على الضم لانهـــا قطعت عن الاضافة مع نية المضاف اليه .

٥ ـ **وادع الرجل** : اى أترك الرجل فلا اعطيــه ، وهذا الفعل يستعمل منه المضارع والأمر ولا يستعمل منــه العرب الماضى الذى هو ودع ولا المصدر الذى هو الودع الا نادرا ، ويكتفون باســـتعمال ترك تركا ، وهذا الفعل مثل فعل يذر وذر فلا يقال فيه أيضا وذر ولا وذرا . ومن النـــادر قول الرسول صلى الله عليه وسلم (**لينتهين اقوام عن ودعهم الجمعـــات أو ليختمن على قلوبهم**) أى عن تركهم اياها .

٦ ـ **لما أرى فى قلوبهم من الجزع والهلع** :

الجزع : بفتحتين الضجر وعدم الصبر وفعله من باب فرح يفرح والجزوع هو من كان كثير الجزع .

الهلع : شدة الجزع عند الشر ، وشدة الحرص عند الخير ، قال تعالى : **ان الانسان خلق هلوعا . اذا مسه الشر جزوعا . واذا مسه الخير منوعا**) (١) وفعله من باب فرح ، يقال : هلع يهلع هلعـــا وهلوعا فهو هلع وهلوع . اى يعطيهم الرســـول لما يرى فى قلوبهم من القلق والاضطراب وعـدم الصبر ، وشدة الحرص ، والطمع بتحصيل المـــال ، فهو بذلك يؤلف قلوبهم لتمكين الايمان فيها ، حتى لا يكون ما فى طبعهـــا من الجزع والهلـــع صارفا لهم عن الخير لو تركوا فلم يعطوا .

٧ ـ **واكل اقواما الى ما جعل الله فى قلوبهم من الغنى والخير** :

أكل : بكسر الكاف مضارع وكل بفتح الكاف فهو من باب ضرب يضرب ، تقول : وكلت أمرى الى فلان أى الجأته اليه واعتمدت فيه عليه .

من الغنى : المراد غنى النفس وهى القناعة ، قال صلى الله عليه وسلم : (ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس) .

والخير : كلمة جامعة لكل أنواع الخير التى يمكن أن تتصف بها القلوب ، منها الايمان والعفة والرضا عن الله والرسول وعدم الحسد وما الى ذلك .

٨ ـ **حمر النعم** :

حمر : بضم الحـــاء وسكون الميم جمع احمـــر ، أما حمراء فجمعهـــا حمراوات .

---

(١) المعارج الآيات ١٩ ـ ٢١

النعم : الابل ، وقد يطلق على الابل والبقـــر والغنم ، والابل الحمر هى اصبر الابل على الهواجر ، والعرب تقول : خير الابل حمرها وصهبهـــا ، أى شقرها لأن الصهبة هى الشقرة ، يقال : بعير أصهب أى أشقر .

(جـ) الشـــــرح :

مقـــدمة :

ان قائد الجماعة ــ اميرا كان او رئيسا او ملكا او نبيا ــ لا بد أن يعترضه فى سياسته للجماعة مشكلات مهما عدل وراعى المصلحـــة الفضلى ، وساس جماعته بحكمة بالغة ، وذلك لأن اشد ما فى الوجود واعقـــده معالجة النفوس الانسانيــــة .

وهذا الحديث يبين سياسة الرسول الحكيمة فى قيادته العظيمة ، أمـــام احدى المشكلات التى تتعرض اليها القيادات ، انها مشكلة التصرف بما تحت يد القـــائد من أموال او مناصب او امارات بحسب المصلحة التى تمليهـــا السياسة الحكيمة الرشيدة ، بغية تحقيق غاية اسلامية ، وهدف عام أمثل للجماعة ، بعيد عن الأغراض الخاصة للقائد أو لأقاربه وحاشيته .

مال أو سبى يؤتى به الى الرسول فيقسمه :

مال يؤتى به الى الرســـول صلوات الله عليــــه ، وليس هو من أموال الصدقات حتى يوزع على الفقراء بالعـــدل حسب حاجاتهم ، وانما هو من الأموال التى يكون للقائد حق التصرف بهـــا فى مصلحة الاســـلام وجماعة المسلمين ، ونظرا الى انه لم تتكامل بعد لجماعة المسلمين دولة محكمة الامارات والادارات حينئذ ، وانها لم تزل فى دور نشوئها الأول ، فقد كانت سياســـة الرسول صلوات الله عليه أن لا يدخر مالا عاما ، وأن يبـــادر الى تقسيمه على المسلمين بحسب المصلحـــة التى يراها ، لأن ذلك أدعى الى تأليف قلوبهم على الله ، لا على أموال يرقبون مدخراتها ويطمعون فيهـــا ، وادعى الى تدريبهم جميعا على البذل والعطاء كلما حزب جماعة المسلمين أمر ، واعتبـــار جميع ما يملكونه هو الصندوق العام للدولة الاسلامية التى بدأت طلائعهـــا تظهر ، وبدأت نبتتها تزهر .

نظر الرسول فرأى ان مصلحة الاســـلام وجماعة المسلمين تقضى فى تلك الفترة بأن يعطى اقواما ويترك آخرين ، وهذا مما له حق التصرف به حسب المصلحة التى تترجح لديه فى سياسته وقيادته كما اذن الله له ، فأعطى رجالا راى ان المصلحة تقضى باعطائهم لاصلاح قلوبهم وتاليفها على الخير والهداية ،

وترك رجالا لنفاذ ما عنده ، وثقة بما فى قلوبهم من القناعة والايمان والرضا عن الله والرسول .

فبلغه أن الذين تركهم فلم يعطهم عتبوا ، وهنا تظهر المشكلة ، وقد كان من المرتقب ان تظهر ، ليس لأن الذين ترك عطاءهم يستشرفون الى المال امعين بالاستكثار منه ، ومنهم من لو دعى الى تقديم جميع ما عنده لقدمه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتغاء مرضاة الله ، ولكن لتوهم أن العطاء مرتبط بالتفضيل فى المحبة ، فمن اعطاهم الرسول احب اليه من الذين لم يعطهم ، وهم يتنافسون جهدهم فى اغتنام مرتبة الصف الأول من محبة الرسول لهم .

وامام هذه العارضة فى طريق سياسة الرسول وقيادته الحكيمة كان لا بد من حسمها بمنتهى الحكمة ، وبالدواء الشافى لعوارض المشكلة ، والمزيل لأسبابها .

خطبة الرسول فى حل مشكلة ما بلغه من عتب :

وقف الرسول فى أصحابه خطيبا فحمد الله بعبارات الحمد ، واطال النفس فى ذلك ، ثم اثنى عليه بعبارات الثناء واطال النفس فى ذلك ، ثم قال : (اما بعد) ودخل مباشرة فى الموضوع الذى قصده فى خطبته ، واوضح فى كلامه ما هو الدواء الشافى لما وقع فى نفوس الذين ترك عطاءهم من عتب ، فقال مقسما بالله مؤكدا كلامه بأبلغ صور التأكيد : **(فوالله انى لأعطى الرجل وادع الرجل والذى ادع احب الى من الذى اعطى ولكنى انما اعطى اقواما لما ارى فى قلوبهم من الجزع والهلع واكل اقواما الى ما جعل الله فى قلوبهم من الغنى والخير)** وخص الرسول بكلامه رجلا ممن ترك فقال : **(منهم عمرو بن تغلب)** وهو راوى الحديث .

فكانت سياسة الرسول وحكمته فى هذا ان اصلح قلوب ذوى الجزع والهلع ، بما اعطاهم من مال ، واصلح نفوس ذوى العتب بما منحهم من تكريم ، وبما افصح لهم من حب ، وبما كشف لهم من الغاية التى قصد اليها فى كل من عطائه وتركه .

وفى مناسبات متكررة اكد الرسول صلوات الله عليه لأصحابه هذه الغاية التى بينها فى هذا الحديث ، منها قوله : **(انى لأعطى الرجل وغيره احب الى منه مخافة ان يكبه الله فى النار)** .

ويدل على ان العاتبين كان عتبهم تنافسا على المرتبة الأولى من محبة الرسول صلوات الله عليه بناء على توهمهم ان العطاء دليل زيادة المحبة لا طمعا

بالمال ولا حسداً ، وأن كلام الرسول قد تناول مشكلة نفوسهم من أسبابها فأزالها وأزال عوارضها ، قول عمرو بن تغلب (فوالله ما أحب أن لى بكلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم حمر النعم) ، لأنه لما علم أن تخصيص الرسول فى عطائه قد كان لاصلاح قلوب من أعطاهم ، وذلك ما تدعو اليه المصلحة الاسلامية العامة ، وأن من تركهم احب الى رسول الله من الذين أعطاهم ، زال كل ما فى نفسه من عتب ، وأحس بأنه قد نال عطاء أكبر بكثير من كل عطاء دنيوى آخر ، فهو لا يحب أن يكون له بدل كلمة الرسول هذه حمر النعم كلها ، ومن كان عنده ذلك كان أكثر الناس غنى بأكرم مال عند العرب ، وبخاصة اذا خصص الرسول اسمه بالذكر فقال ، (منهم عمرو ابن تغلب) وفى هذا التخصيص ثناء عليه عظيم بما فى قلبه من القناعة والايمان والرضا وسائر صنوف الخير .

(د) ما يستفاد من الحديث :

١ ـ لقائد الأمة فى نظام الاسلام أن يتصرف فى ادارة الأموال العامة ضمن حدود المصلحة الاسلامية وحدود مصلحة المسلمين .

٢ ـ على رئيس الدولة فى نظام الاسلام أن لا يحابى الأحباء أو الاقرباء على حساب المصلحة الاسلامية العامة ، أو مصلحة جماعة المسلمين .

٣ ـ من المصلحة الاسلامية التى تستدعى بذل الأموال فى سبيلها ما من شأنه اصلاح قلوب بعض الأفراد ، وتأليفها على الخير ، وتمكين الايمان فيها ، وطرد نوازغ الشيطان عنها .

٤ ـ سياسة الرسول الفضلى ، وحكمته المثلى ، فى المبادرة الى مداواة قلوب أتباعه متى نابها شىء .

٥ ـ جواز الثناء العلنى على طائفة عامة من الناس أو على شخص بعينه لمصلحة دينية ، واثر ذلك فى مداواة ما قد يعلق فى النفوس من وساوس الشيطان ونزغاته .

٦ ـ ينبغى القائد أن يكون يقظا يتحسس ما يتهامس به أتباعه من ورائه ، ليبادر الى تدارك الأمور قبل أن تستحفل ، عملا بالحكمة القائلة : (خذ الأمر بقوابله) .

٧ ـ نفاذ نظر الرسول فى معرفة خصائص نفوس أتباعه ، وتربية كل منهم بما يناسب فطرته وميوله ودوافعه الخاصة به .

الحديث التاسع

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ : يَا هَذَا اتَّقِ اللهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ وَهُوَ عَلَى حَالِهِ فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ »

ثُمَّ قَالَ : (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ

أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

ثُمَّ قَالَ : « كَلَّا وَاللهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ ، وَلَتَأْطُرُونَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْراً ، وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْراً ، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُم عَلَى بَعْضٍ ، ثُمَّ لَيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ » .

رواه ابو داود والترمذي وقال حديث حسن

(أ) ترجمة راوى الحديث :

١ ــ هو ابو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود بن غافل ، وهو هــذلى ويلتقى نسبه مع نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مدركة بن الياس .

٢ ــ صحابى جليل كان من اوائل من اسـلم بمكة ، قيل : وكان سادس من دخل فى الاســــلام .

٣ ــ هاجر الهجرتين وشهد بدرا والمشاهد كلها ، وكان صاحب نعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، اى كان يحمل له نعله حينما يخلعه .

٤ ــ قال له النبى صلى الله عليه وسلم : انك غلام معلم ، وآخى الرســول بينه وبين سعد بن معــاذ .

٥ ــ قال ابن مسعود : اخــذت من فى رســـول الله صلى الله عليه وســلم سبعين ســورة

٦ ــ توفى بالمدينة قبل عثمــان .

(ب) اللغــــة :

١ ــ ان أول ما دخل النقص على بنى اسرائيل :

النقص : المراد منه النقص فى الدين عقيدة وشريعة المؤدى الى النقص فى الدنيا والآخرة . اخـــذا مما جاء فى الحديث من تصوير واقع النقص الذى أصــــابهم .

على بنى اسرائيل : هم ذرية نبى الله يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم السلام . قالوا : وكان اسمه اسرائيل ولقبه يعقوب ، والله أعلم .

٢ ــ انه كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فانه لا يحل لك :

يلقى : على وزن (يفعل) ماضيه لقى من باب فرح يفرح .

اتق : على وزن (افتــع) من اتقى ، وأصل الكلمـــة او تقى يوتقى على وزن افتعل يفتعل قلبت الواو التى هى فاء الكلمة تاء وادغمت بتاء الافتعال ، بدليل قولهم فى المصدر وقاية ، وأصل التقوى جعل النفس فى وقاية من أمــر مخــوف .

دع : على وزن (عل) بحذف فاء الكلمة التى هى الواو ، لأنهــا من ودع يودع اودع ثم حذفت تخفيفا فصارت الكلمة يدع فى المضارع ودع فى الأمر ،

وقد سبق الكلام على هذا الفعل وان ماضيه ومصدره متروكان في الاستعمال الا ما جاء من ذلك نادرا .

يحل : بكسر الحاء على وزن (يفعل) وماضيه حل على وزن (فعل) فهو من باب ضرب ، وأصل الكلمة (يحلل) ، ومعنى لا يحل لك ، اى لا يجوز لك ، اما حل يحل بضم الحاء فهو من باب نصر ، تقول : حل بالمكان يحل اذا نزل فيه ، وتقول : حل العقدة يحلها اذا فكها .

٣ ــ ان يكون اكيله وشريبه وقعيده :

على وزن (فعيل) فى الثلاث ، اى مصاحبا له فى الأكل والشرب والقعود ، وصيغة فعيل هنا بمعنى مفاعل .

٤ ــ ضرب الله قلوبهم بعضهم ببعض :

هو كناية عن القاء التنافر والخلاف والعداوة فيها ، جزاء لهم بضد ما قصدوه من تركهم للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لأن سكوت اهل الحق عن انكار الباطل انما يكون محافظة على مودات المبطلين ، فيجازيهم الله بأن يلقى بينهم العداوة والبغضاء بأسباب أخرى ، ولو جهروا بالحق واقاموه لأثابهم الله بأن يجمع عليهم القلوب فتحبهم وتعظمهم .

٥ ــ « لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم » :

لعن : على البناء للمجهول ، واللعن هو الطرد من رحمة الله ، وانما استحقوا اللعن بسبب ما انتهوا اليه من الكفر ، لذلك جاء بالموصول وصلته اشعارا بالسبب .

وقوله تعالى : (**على لسان داود وعيسى بن مريم**) مع ايراد فعل اللعن بالبناء للمجهول يشير الى ان لعنتهم قد كان فيما انزل الله على داود وعلى عيسى ابن مريم ، وهما كتابا الزبور والانجيل والله اعلم .

٦ ــ « ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » :

اى ذلك اللعن وما انتهوا اليه من الكفر قد كان بسبب انتشار العصيان والعدوان فيهم ، المتسببين عن تركهم فريضة التناهى عن المنكر ، فبئست هذه البدايات التى ادت الى تلك النهايات .

عصوا : على وزن (فعوا) بحذف لام الكلمة واصلها (عصاوا) التقى فيها ساكنان ، فحذف الأول لأنه من بناء الكلمة ، ولم يحذف الثانى ، لأنه قد جيء

به لغرض ، ولو حذف لم يوجد ما يدل عليه ، فصارت عصوا ، وبقيت الفتحة على الصاد دليلا على الألف المحذوفة . والعصيان هو مخالفة الأمر .

يعتدون : على وزن (يفتعون) بحذف لام الكلمة واصلها (يفتعلون) لأن اصلها من اعتدى يعتدى ، ولما اضيفت واو الجماعة الى يعتدى صارت يعتديون ، ثم استثقلت الضمة على الياء فنقلت الى الدال قبلها فالتقى ساكنان الياء والواو فحذفت الياء لأنها من بناء الكلمة الى آخر التعليل الذى سبق فى عصوا ، والاعتداء هو الظلم وتجاوز حدود الحق .

يتناهون : على وزن (يتفاعون) بحذف لام الكلمة واصلها (يتفاعلون) لأن أصل الفعل من تناهى يتناهى ، ولما اضيفت واو الجماعة الى يتناهى صارت (يتناهاون) وضمة الرفع مقدرة على الألف ، فالتقى ساكنان فحذفت الألف لأنها من بناء الكلمة كما سبق .

والمعنى : كانوا لا ينهى بعضهم بعضا عن منكر فعلوه .

منكر : المنكر هو كل أمر قبيح ينكره الشرع ويحرمه ، وينكره العقل الصحيح والذوق السليم ، فكأن هذه الأصول لا تعرفه ، لأنها تحرمه وتقبحه ، أو تنفر عنه ولا تتلاءم معه .

لبئس : بئس فعل جامد غير متصرف يؤتى به للذم والتقبيح .

٧ ـ ((ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم انفسهم ان سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون)) :

يتولون : على وزن (يتفعون) بحذف لام الكلمة ، واصلها (يتولاون) التقى ساكنان الألف وواو الجماعة فحذفت الألف لأنها من بناء الكلمة كما سبق . ومعنى (يتولون الذين كفروا) يجعلونهم أولياء لهم اى نصراء وأحباء ، فيستنصرون بهم على اخوانهم من المؤمنين ، ويحبون طريقتهم لمشاكلتهم لهم فى ارتكاب الآثام ، والانغماس فى العصيان والعدوان . وفى هذا عرض للون من الوان عصيانهم وعدوانهم ، أو ان عدوانهم ادى بهم الى موالاة الكافرين ، وبذلك قدموا لأنفسهم أعمالا سيئة فكأنهم قدموا لأنفسهم سخط الله عليهم وخلودهم فى العذاب ، فبئس ما قدمت لهم انفسهم .

٨ ـ ((ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما انزل اليه ما اتخذوهم اولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون)) (١) :

---

(١) المائدة الآيات ٧٨ ـ ٨١

وفى هذا بيان لعلة العلل واصل الداء الذى أوصلهم الى اتخاذ الكافرين أولياء الا وهو عدم كمال ايمانهم بالله وبالنبى وبما انزل اليه من عند الله ، ولو كانوا يؤمنون بأركان الايمان هذه ما اتخذوهم أولياء ولكن تناقص الايمان فى قلوبهم أثمر كثرة الفساق فى جماعتهم ، فشاكلت اعمالهم أعمال الكافرين فتقاربوا معهم واستحلوا مجالسهم فاستحبوا طريقتهم ، فاستنصروا بهم على اخوانهم فخسروا أصل ايمانهم .

٩ ـ كلا والله لتامرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتاخذن على يد الظالم ولتاطرنه على الحق اطرا ولتقصرنه على الحق قصرا :

لتأمرن : على وزن (اتفعلن) اصلها لتأمرونن بنونات ثلاث . الأولى نون الرفع فنون التوكيد الثقيلة ، وقد حذفت نون الرفع لتوالى الأمثال فصارت لتأمرون ، فالتقى ساكنان واو الجماعة والنون الساكنة الأولى فحذفت الواو وبقيت الضمة على الراء دليلا عليها ، ومثلها الافعال التالية : (لتأخذن ــ لتأطرن ــ لتقصرن) .

اما (لتنهون) فهى على وزن (اتفعون) لأن أصلها (لتنهاونن) حذفت الألف لالتقاء الساكنين فصارت (لتنهونن)ثم حذفت نون الرفع لتوالى الأمثال فصارت (لتنهون) بسكون الواو والنون الأولى من نونى التوكيد الثقيلة . فحركت الواو بالضمة وأبقيت ولم تحذف لأنها لو حذفت لاشتبه الفعل بالمفرد دون أن يوجد دليل على واو الجماعة فصارت (لتنهون) والمراد من الأخذ على يد الظالم منعه عن الظلم ومحاسبته ومعاقبته عليه بالعدل .

ومعنى لتأطرنه على الحق اطرا : لتعطفنه ولتثننه على الحق ، وأصل الأطر هو أن تأخذ بطرفى الشيء فتعطفهما وتثنيهما الى بعضهما ، ومنه الاطار لانه يدور بعطف طرفيه المتباعدين حتى يجتمعا فى دائرة . وفعل أطر : من باب ضرب ونصر ، تقول اطره يأطره ويأطره .

ومعنى لتقصرنه على الحق قصرا : لتلزمنه طريقته ولتردنه اليه . نقول : قصرت ابنى على طاعتى اذا رددته اليها وألزمته بها ، وهو من باب نصر ، تقول : قصرته أقصره .

(ج) الشـــرح :

مقـــدمة :

من اهم الواجبات التى تصان بها الجماعات عن أن ينتشر فيها الفساد ، ويستشرى فيها الشر ، ركن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، انه أول

مسؤولية يجب على جماعة المسلمين ان تضطلع بها فى نطاقها الداخلى ، وهو فى هذا النطاق الداخلى شبيه بركن الجهاد فى سبيل الله فى النطاق الخارج عن حدود جماعتهم .

فالمسلمون اذا كانوا على مستوى اسلامهم كانت عين كل فرد فى جماعتهم رقيبة على ما يحدث فى صفوفهم من خلل ، وفى افرادهم من فساد او انحراف ومخالفة لأوامر الله ونواهيه ، ولسان كل فرد فيهم ناصح امين حكيم آمر بالمعروف ناه عن المنكر ، وهم جميعا متآزرون متعاونون على رفع المنكر ودفعه وازالة الشر واسبابه ، والأخذ على يد الظالم وعقابه ، بسلطان الجماعة ، طبق أحكام شريعة الله لعباده . ومن اجل ذلك نجد الاسلام يعلن مسؤولية المسلمين الكبرى امام هذا الركن من الاركان التى تصان بها التطبيقات الاسلامية ، ضمن جماعة المسلمين ، وينذرهم بالخطر العظيم الذى ينزل فيهم أذا تهاونوا بالقيام به كما امر الله .

وبسبب تطبيق هذا الركن جعل الله امة محمد خير امة اخرجت للناس فقال تعالى : **(كنتم خير امة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)** (١) .

ونظرة شاملة فى النصوص الاسلامية تبين لنا ان الامر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب على كل فرد من افراد المسلمين ذكرا كان او انثى كبيرا او صغيرا ، ولكن كلا منهم يتحمل من المسؤولية على مقداره من العلم بالدين ومن القدرة على الحكمة المطلوبة فيه لدى القيام بهذا الواجب ، ومن الهبة الربانية التى حباه الله اياها ، من سلطان او بيان فى قلم او لسان ، فكل انسان داخل اسرته ، او فى مركز عمله مسؤول عن القيام بهذا الواجب فى حدود ما يعلم من شريعة الله .

أما القيام بمهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بصفة عامة فينبغى فيها أن يكون من يضطلع بها متحققا بشروط لا بد من توافرها فى كل من يتسلم توجيها عاما من هذا القبيل ، ويمكن تلخيص هذه الشروط بما يلى :

(أ) أن يتفقه فى الدين بنسبة حسنة حتى لا يأمر بمنكر وينهى عن معروف جهلا منه وهو يحسب انه يحسن صنعا .

(ب) أن يتأدب بآداب الاسلام ويتدرب على استعمال الحكمة فى قيامه بمهمته ، عملا بقول الله تعالى : **(ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة)** (٢) حتى لا يسىء الى الاسلام بدعوته او بطريقته واسلوبه .

---

(١) آل عمران الآية ١١٠ .

(٢) النحل الآية : ١٢٥

(ج) ان يلتزم تطبيق ما يأمر به ، ويكف عما ينهى عنه . حتى لا يكون قوله منافيا لعمله ، فيكون قدوة سيئة ، او محلا لتندر الناس به . وحتى لا ينطبق عليه قول الله تعالى لبنى اسرائيل : **(أتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم وانتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون)** (١) وقوله تعالى : **(لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون)** (٢) .

هذا ، ونحن الآن امام حديث عظيم من كلام الرسول صلوات الله عليه . يبين لنا اهمية هذا الركن الذى يجب على جماعة المسلمين ان يضطلعوا به ، ومدى الخطورة التى تهددهم اذا اهملوه او تخلوا عنه ، وقد جاء الحديث مقسما على ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : عرض واقع تاريخى لامة ذات شأن فى تاريخ الشرائع السماوية . الا وهم بنو اسرائيل .

المرحلة الثانية : الاستشهاد بنص قرآنى على هذا الواقع التاريخى لهذه الأمة .

المرحلة الثالثة : الانتقال الى ما يجب على المسلمين ان يفعلوه مستفيدين من العبرة التاريخية التى سلفت فى بنى اسرائيل ، حذر أن يصيبهم ما اصابهم ، وذكرى بأن سنة الله فى عباده لا تتغير مهما اختلفت الامم والعصور .

وفيما يلى تفصيل هذه المراحل اخذا من الحديث الذى نحن فى صدد شرح معانيه وتدبر مراميه .

اول ما دخل النقص على بنى اسرائيل :

لقد سبق ان جعل الله بنى اسرائيل مفضلين على العالمين أيام حملهم شرائع الله ورسالاته اذ كانت غالبية الشعوب وثنية كافرة بالله وبأنعمه عليها ، ثم دخل على أجيالهم المتتابعة النقص فى الدين والدنيا ، وانتشر فيهم الفساد ، واستشرى فيهم الشر ، حتى اصابتهم لعنة الله والمرسلين وضرب الله عليهم الذلة ، فسيئت وجوههم ، وشتتوا وقتلوا تقتيلا .

وللعظة والاعتبار يجب دراسة الأسباب التى أدت بهم الى هذا المنحدر السحيق بعد ذلك المجد الشامخ الذى كانوا فيه ، وهنا يكشف لنا الرسول صلوات الله عليه السبب الأول الذى أطلق شرارة الشر الأولى فى جماعتهم ، فسرت نارها حتى أتت على كل صلاح وخير ومجد لهم فأكلته فقال رسول الله

---

(١) البقرة الآية ٤٤

(٢) الصف الآية ٢ ، ٣

صلى الله عليــه وســلم : **(ان أول ما دخل النقص على بنى اسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هــذا اتق الله ودع ما تصنع فانه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده) .**

وفى هذا يبين الرسول صلوات الله عليه أن مبــادىء النقص الذى أصاب بنى اسرائيل فى أمور دينهم وأمور دنيــاهم قد كان بتركهم فريضــة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وبعدم مقاطعتهم مرتكبى المعــاصى ، وذلك أنهم كانوا اذا وجــدوا واحــدا منهم على اثم ومعصية وعظوه أول الأمر ونصحوه وذكروا له حــكم الله ، فاذا لم يتعظ ولم يرتدع عن اثمه تهاونوا فى أمره ، واغضوا عنه محافظة على مودته ، واستمروا على حالهم معه ، فلم يهجروه فى الله ، بل آكلوه وشــاربوه وجالسوه . كأنه لم يرتكب حراما ولم يفعل أثاما ، وهذا بالطبع يؤدى فى المجتمعات الى انتشار المعصية ، حتى تكون أمرا مألوفا معتادا ، ومتى أصبحت أمرا معتــادا لم تجــد من ينكرها ، بل ربما أصبح الحرج من فعلها أمرا معيبا ، وجمودا مشينا ، ومثــارا للازدراء والسخرية ، وبذلك يعم الفساد ، وتنتشر ألوان المعــاصى ، لأنه متى حصل السكوت عن واحدة منها فانتشرت سرت عدواها الى المعــاصى الأخرى ، وما تزال تنتشر كما تشتعل النار فى الهشيم حتى تفقد الأمة كل مقوماتها الدينية العملية ، ثم ينتقل ذلك الى أصول العقيدة فيقتلعها من جذورها ، وتنسفها رياح الشهوات حتى لا تبقى فى المجتمع منهــا شــيئا . فاذا ظهر فيهم ناصح يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويبين لهم ما وصلوا اليه من واقع سيىء ازدروه واحتقروه ، ثم اذا الح عليهم صابرا محتســبا ضاقوا به ذرعا فاعتدوا عليه بالضرب أو السجن أو القتل ، ثم تستحق هذه الأمة بما وصلت اليه من فساد أن يحل عليها سخط الله وعذابه .

ولما كان السكوت عن العصاة بسبب المحافظة على موداتهم ، ورغبة بعدم قطع الصلات معهم فان الله يعاقب الأمة بالشىء نفســه الذى سكتت عن انكار المنكر من أجله . فيلقى فى قلوب أفرادها العداوة والبغضاء ، وهذا ما كشفه الرسول صلوات الله عليه بقوله : **(فلما فعــلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهــم ببعض) .**

وحينما يشتد الخلاف فى الأمة ويستحكم الشقاق فى صفوفهــا ، يتلمس كل فريق منهم الأنصــار من غيرها . فلا يجدون الا الذين كفــروا يوالونهم ، ويستنصرون بهم على اخوانهــم ام لا يعقلون ذلك ! وقد تشــاكلوا معهم فى الأعمال ، وتماثلوا معهم فى كثير من العادات والمفــاهيم . واستحبوا مجالسهم على مجالس المؤمنين . وأنسوا بمخالطتهم ومداخلتهم . ووجدوا عندهم مرتعا

سهلا للشهوات المحرمة ، بعيدين عن نقد ناقد او اعتراض معترض . ثم لا تتم لهم النصرة التى يطلبونها من الذين كفروا على اخوانهم الا بتنازلات كثيرة من مبادئهم ومساومات كثيرة على عقائدهم وكراماتهم ، فيقدمونها الى اوليائهم زاعمين أن الضرورة هى التى املت ذلك عليهم ، ومتى كان منهم ذلك وقع عليهم سخط الله وحلت عليهم لعنته ، وسلموا انفسهم للشياطين تستهويهم وتستحوز عليهم ، ثم اهلكهم الله فى الدنيا وسلبهم كل معونة وعز ومنعة ، واعد لهم فى الآخرة عذابا هم فيه خالدون ، وهذا ما اوضحته الآيات العظيمة التى استشهد بها الرسول مبينة ما أصاب بنى اسرائيل ، وهى قوله تعالى :

(لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم انفسهم ان سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما انزل اليه ما اتخذوهم اولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون) .

وفى هذه الآيات نرى سلسلة من السيئات التى تتابعت فى بنى اسرائيل حتى استحق الذين كفروا منهم اللعن من الله على لسان داود وعيسى ابن مريم . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلون ، فنشأ من ذلك انتشار العصيان فيهم ، ثم انتشر فيهم الظلم والعدوان ، ولا بد أن يكون مع الظلم والعدوان شقاق وخلاف وعداوات فى الامة ، تؤدى بكثير منهم الى موالاة الذين كفروا ، ولهذه الموالاة ذيول تنتهى بسخط الله والخلود فى العذاب . ولدى البحث عن السبب الرئيسى الاول الذى يهون على الامة اتخاذ الكافرين أولياء لهم ، نجده تناقص الايمان بالله والنبى وما انزل اليه حتى يكون منعدما أو شبيها به أو قريبا منه ، وما سبب تناقص الايمان الى هذا الحد الا انتشار الفسق والعصيان فى الامة ، ووقوف حركة الصيانة لأخلاقها واعمالها ومبادئها بانعدام واجب التآمر بالمعروف والتناهى عن المنكر والأخذ على يد الظالم والزام المنحرفين بالاستقامة على صراط الله .

استخلاص العبرة :

ولما وصل الرسول فى عرض الواقع التاريخى الذى اصاب بنى اسرائيل المبلغ الذى أراده ، واستشهد عليه بالنص القرآنى ، ووجه المسلمين الى الاستفادة من العبرة قال :

(كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتاخذن على يد الظالم ولتاطرنه على الحق أطرا ، ولتقصرنه على الحق قصرا ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ، ثم ليلعنكم كما لعنهم) .

فحمل بذلك المسلمين المسئولية الجماعية فى صيانة المجتمع المسلم من الانحراف . وذلك بالقيام بركن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والأخذ على يد الظالم ، وردعه عن ظلمه ، وعقابه عليه بموجب أحكام الاسلام . والعمل على عطف كل منحرف ، ولفه فى دائرة الجماعة بمختلف وسائل التربية والتوجيه والالزام ، حتى لا يشذ عن جماعة المسلمين . واحاطته بمختلف الوسائل التربوية والالزامية لقصره على الحق ضمن دائرة الجماعة .

ثم يبين لهم أنه لن تكون نتيجتهم بأحسن مما وصل اليه بنو اسرائيل اذا تخلوا عن مسئوليتهم هذه وخالفوا امر الله ، وذلك بأن يضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، فيدخل الى صفوفهم الخلاف والشقاق . ويصيبهم داء العداوة والبغضاء ، ثم تتسلسل فيهم السيئات حتى ينتهى بهم الأمر الى أن تحل عليهم لعنة الله كما حلت على بنى اسرائيل .

ومن يتأمل فى الواقع الأليم الذى وصلت اليه الأمة الاسلامية وبخاصة العرب منهم فى هذه الفترة من تاريخهم يتخوف عليهم تخوفا بالغا من النهاية المخزية التى تنتظرهم ما لم يراجعوا دينهم . فان عصا اليمة من عصى التأديب الالهى قد أصابتهم فى هذا العصر على يد الأمة التى سبق أن حلت عليها لعنة الله وضربها الله بالذلة والمسكنة وهذه العصا الربانية انذار خطير بالعاقبة الوخيمة التى ستحل فيهم ما داموا على ما هم عليه من تنكر لشرائع الله . وتهاون بمسئوليتهم التى تصون دينهم واخلاقهم ومجدهم الذى منحهم الله اياه بسبب كونهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله .

(د)ـ ما يستفاد من الحديث :

١ ـ التآمر بالمعروف والتناهى عن المنكر مسؤولية كبرى تقع على جماعة المسلمين صيانة لأخلاقهم وأعمالهم وعقائدهم عن الانحراف وتنكب صراط الاسلام فى عقائده وشرائعه ومبادئه واخلاقه وآدابه .

٢ ـ السبب الرئيسى فى النقص الذى أصاب بنى اسرائيل انما هو تركهم ركن التآمر بالمعروف والتناهى عن المنكر والتهاون فيه .

٣ ـ ترك هذا الركن يؤدى الى انتشار المعاصى . وانتشار المعاصى يؤدى الى انتشار الظلم والعدوان . وهذا بدوره يؤدى الى داء التباغض والتخالف

والشقاق . والأخير أيضـــا يؤدى الى موالاة الكافرين على المؤمنين ؛ ثم تتسلسل الشرور حتى يحل الكفر محل الايمان ، فتستحق الأمة سخط الله وعذابه ولعنته .

٤ – سنه الله فى عباده لن تتغير فما أصاب بنى اسرائيل سيصيب أمة محمد اذا فعلت مثل أفعال بنى اسرائيل .

٥ – لا تقتصر مسئولية الأمة على مجرد التآمر بالمعروف والتناهى عن المنكر اللفظى بل لا بد من اتخاذ جميع الوسائل الحكيمة التى من شـــأنها أن تردع الظـــالم ، وترد المنحرف ، وتصون الملتزم بسياج من المراقبـــة والتوجيه المستمرين حتى لا يخرج عن دائرة الاستقامة .

٦ – من وسائل التربيـــة الاســـلامية فى ردع الآثم عن اثمه هجره فى الله ومقاطعته وعدم مؤاكلته ومشاربته ومجالسته .

٧ – روعة الأســـلوب التربوى النبـــوى بعرض التحليل التـــاريخى . ثم بالاستشهاد عليـــه ، ثم باســـتخلاص العبرة منه ، ثم بتوجيه النصيحة بعد استخلاص العبرة .

الحديث العاشر

عَنْ أَبِي زَيْدٍ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ - سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - يَقُولُ : (يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ فِي الرَّحَا ، فَيَجْتَمِعَ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ : يَا فُلَانُ مَالَكَ ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ ؟ فَيَقُولُ : بَلَى ، كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ) .

رواه البخارى ومسلم

(أ) ترجمة راوى الحديث :

١ ــ هو أبو زيد أو أبو محمد أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبى .

٢ ــ مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحبه وابن حبه ، لم يعرف غير الاسلام لأنه ولد بعد البعثة وعاش فى كنف الرسول .

٣ ــ استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على جيش فيه أبو بكر وعمر فلم ينفذ حتى توفى النبى صلى الله عليه وسلم ، فبعثه أبو بكر الى الشام وكان عمره حينئذ (١٨) سنة وقيل (٢٠) سنة .

٤ ــ سكن مدة فى قرية من قرى دمشق اسمها (المزة) ثم انتقل الى المدينة فمات بها سنة (٥٤) وقيل سنة (٥٨) أو (٥٩) وقد بلغ عمره نيفا وستين سنة .

(ب) اللغـــة :

١ ــ فتندلق أقتاب بطنـه :

فتندلق : الاندلاق خروج الشيء بسرعة وتتابع ، يقال : اندلق السيل على القوم أى هجم متدفقا سريعا ، واندلقت الخيل أى هجمت متتابعة متدافعة سريعـة .

أقتاب بطنه : أى أمعاء بطنـه . والأقتاب جمع مفرده قتب وقتب بكسر القاف وسكون التاء وبفتحهما .

ولفظ البطن مذكر . وحكى أبو عبيدة أن تأنيثه لغة .

٢ ــ فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحى :

الرحا : مؤنثة اللفظ . وهى الحجر العظيم الذى يطحن به ، والف الرحا تكتب بالياء وتكتب بالألف . لأن أصلها متردد بين الياء والواو ، تقول : رحيت الرحى أى عملتها . وتقول رحوت الرحى أيضا ، وتثنية رحا رحوان ورحيان ، وجمعها أرح وأرحاء .

٣ ــ يا فلان ما لك ؟

فلان وفلانة : كناية عن الذكر والأنثى من الناس وهما معرفتـان فاذا كنيت بهما فى غير الناس قلت الفلان والفلانة بالألف واللام .

ما لك ؟ : يعنى أى شيء كائن لك حتى صرت من أهل النار ؟ .

٤ ــ فيقول : بلى :

بلى : حرف جواب ، ولا تأتى الا بعــد نفى ، وتفيد ابطاله فتجعل المنفى مثبتا ، سواء أكان النفى مقترنا باستفهام أو غير مقترن به .

ولا يصح اســتعمال حرف (نعم) فى مواقع (بلى) لان نعم حرف جواب لتحقيق ما جاء قبلها وتصديقه . موجبا كان او منفيا . لا لابطاله بخلاف بلى فانها لابطاله كما ذكرنا .

(جـ) الشرح :

عرفنا فى شرح الحديث السابق ما يجب على من يتصدى لمهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بشكل عام من تحل بالشروط الأساسية التى يجب توافرها فى كل داع الى الله قائم فى الناس على تنفيذ شرائعه بالحكم والسلطان ، أو بالأمر والنهى والموعظة ، أو بالفتوى والقضاء ، وهى :

أولا ــ أن يكون عالما متفقها فيما يبثه فى الناس من علم أو فتاوى أو اقضية ، وعارفا بحكم الله فيما يأمر به أو ينهى عنه .

ثانيا ــ أن يستعمل الحكمة فيما يأمر به او ينهى عنه ، ويقتدى فى دعوته وتأدية رسالته بالنبى صلى الله عليه وسلم ، ويعمل بقوله تعالى : **(ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى احسن)** فيســلك كل الأساليب التربوية الحكيمة التى من شأنهــا أن تحبب بدين الله والتزام شرائعه .

ثالثا ــ ان يتحلى بالفضائل الخلقية . ويقوم فى نفســه بتطبيق ما يعظ الناس به ، ويجعل من نفسه قدوة حسنة بالتزامه شريعة الله ، وبعده عما حرم . وسبقه الى كل فضيلة ، وتنافسه فى كل عمل مبرور .

وهذا الحديث يعالج هذا الشرط الثالث بأسلوبه البيانى الرائع . اذ يكشف لمن يتصدى لمهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مخلا بشرط العمل بالمعروف الذى يأمر الناس به ، والبعد عن المنكر الذى ينهاهم عنه صورة واقع العذاب الأليم المخزى الذى يلاقيه يوم القيامة فى النار .

انه بسبب سوء عمله وبسبب مخالفة أفعاله لأقواله يستحق العذاب فى النار . فيؤتى به يوم القيــامة . تأتى به ملائــكة العذاب **((فيلقى فى النار))**

قذفا مشينا مهينا . فيصطدم بما فيها اصطداما عنيفا مهشما للعظام ، شاقا للبطن « فتندلق اقتاب بطنه » الذى اكل فيه الأموال باسم الدين ، وحشاه فى الدنيا حشو الجشعين ، وتعاظم به تعاظم المترفين ، فيطير صوابه ، ويتعاظم عذابه ، وتتراكب عليه الذلة **((فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحى))** فرارا مما يلاقيه من عذاب . ولكن أين المفر ؟ انه يفر فيجد نفسه يدور فيعود الى المكان الذى فر منه . ويرى الناس الذين كانوا يشاهدونه فى الدنيا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . وهم منغمسون فى معاصيهم غير مكترثين بموعظة ولا تذكير ، وقد كان يتعاظم عليهم بفضل العلم وبفضل التقوى التى يرائى الناس بها ، فيناله الخزى . فيخفض راسه ويغمض عينيه ، فتكون صورته فى كل ذلك كصورة الحمار الدائر فى الرحى . بدورانه وذلته واغماض عينيه ، ولكن الناس الذين كانوا يرونه فى الدنيا واعظا مرشدا يعجبون لأمره ، فيأتون اليه **((فيقولون: يا فلان مالك ؟ ! الم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر))** اذ كنت عالما بالحلال والحرام ، متصديا لمهمة التوجيه العام ، والأمر بوجوه الخير والنهى عن وجوه الشر ، **((فيقول : بلى ، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وانهى عن المنكر وآتيه)) .**

ان هـذا العذاب هو نتيجة المقت الربانى الذى يحل بالذين يقولون مالا يفعلون ، قال الله تعالى :

((يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتا عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون)) (١) .

اعاذنا الله من ذلك ومن كل سوء . .

(د) ما يستفاد من الحديث :

١ ـ يجب على الداعى الى الله ان يكون متحليا بما يدعو الناس اليه من قول وعمل .

٢ ـ عذاب الذى يخالف اوامر الله ونواهيه ـ وقد جعل من نفسه داعيا الى الله وقدوة الناس فى اقواله واعماله اومنحه الله ولاية تتصل باقامة دينه ـ اشد من عذاب غيره ، لأن مسئوليته فى الدنيا أكبر من مسئولية غيره اذ المسئولية تناسب مقدار المنحة .

٣ ـ الاسلوب النبوى الرائع المتضمن عرض المطلوب فى صورة مشهد حى يلفت النظر ، ويؤثر فى النفس ، وقد انضم اليه الحوار الذى يحكى الواقع الذى سيكون فكأنه واقع كائن .

٤ ـ التربية بوسيلة الترهيب من العواقب الوخيمة .

تم بعون الله تعالى وتوفيقه

---

(١) سورة الصف : الآية ٢ ، ٣

فهرس